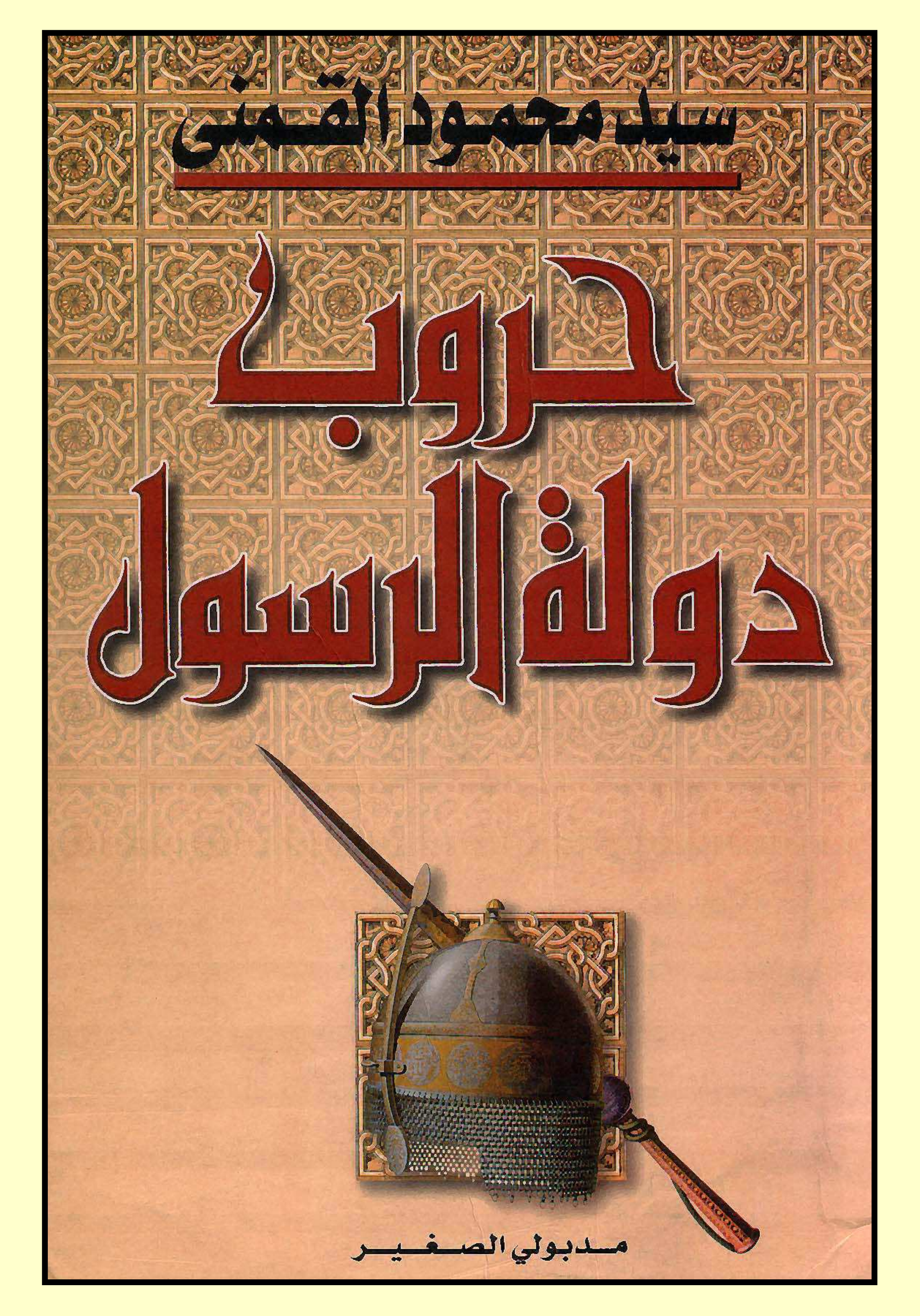

سيد محمود القمنى
حروب دولة الرسول
مدبولي الصغير



من أهم الكتب بعد كتاب (الحزب الهاشمي)، وكما كان كتاب (الحزب الهاشمي) كتابا تأسيسيا، ودافعا لعدد من البحوث التي أخذت خطه ومنهجه، فكان بداية لمدرسة، كذلك هذا الكتاب الذي بين يديك.

وبالقدر ذاته الذي أثاره كتاب «الحزب الهاشمي»، جاءت ذات الإثارة في (حروب دولة الرسول)، إذ يعرض باحثنا قراءاته الجديدة للمعارك التي خاضتها دولة الإسلام إبان دورها التأسيسي الأول في عهد المصطفى ﷺ، وما ترتب عليها من نتائج أفرزت صراعات جديدة في سبيل الحرص على استدامة الدولة الناشئة وتقوية دعائمها، إزاء المناخ المعادي الذي أحاط بها.

وإذا كان تاريخ الكتابة العربية في هذه المنطقة، قد ظل يعالجها بمنطق المعجزة والمفاجأة والأحجبة، فإن المفكر الكبير سيد القمني يستمر هنا دون تراجع، على العقلنة والموضعة، ليعالج الأحداث كما حدثت بالفعل، ويقدم لنا صورة النبي محمد الإنسان القائد الفذ ﷺ بحيث لا تنتهي من القراءة إلا وأنت أشد فخرا واعتزازاً بتلك القيادة النموذج والمثل الأروع، وأكثر احتراما لجهد علماء الأمة، كتاب السير والأخبار والتاريخ، وأكثر نفورا من وعاظ الإعلام وأصحاب المصالح، الذين كادوا يذهبون بنا إلى قاع مقلب نفايات الأمم الغوابر.

مدبولي الصغير



حـــروب دولـــة الرســـول
«صلى الله عليه وسلم»

الناشر: **مكتبــة مـدبـولـــى الصـــغير**
٤٥ شارع البطل أحمد عبدالعزيز
تليفون: ٣٤٤٢٢٥٠ـ٣٤٧٧٤١٠
ميدان سفنكس ت: ٣٤٦٣٥٣٥
رقم الإيداع: ٩٥/٩٣٤٧

الطبعة الثانية: ١٤١٦هـ ـ ١٩٩٦م

تصميم الغلاف: عاطف منصور
مراجعة لغوية: سيد عبدالمعطى
الصف والإخراج الفنى: كريم كمبيوتر

سيد محمود القمني

حروب دولة الرسول

صلى الله عليه وسلم

الجزء الأول

الناشر: مدبولى الصغير

محتويات الجزء الأول

الإهـــداء:

إلى الأصدقاء الذين وقفوا إلى جوارى فى محنتى الصحية:

الأستاذ فاروق حسنى والدكتور جابر عصفور والدكتور فوزى فهمى، والأستاذة فوزية رشيد، والأساتذة عبد العال الباقورى وصحيفة الأهالى، وجمال الغيطانى، ومصطفى بكرى، وسليمان فياض، وفتحى عامر، وعبد الغنى داود، وعبد الله الشرهان، والأصدقاء الذين أحاطونى بالحب والرعاية، كوكبة أطباء الزقازيق: الدكتور أيمن عبد الحارس والدكتور نصر السيد والدكتور أحمد والى، فكانوا إلى جوارى طوال الوقت، ومنحونى من الحب ما هو جدير بهم.

وإلى (عمال) جناح القلب بمستشفى الهرم، وإلى كل من شارك دون أن يعلمنى بدوره، وكل من كتب فى الصحف، أو وقع على بيان، أو شارك بالتمنى الطيب عن بعد.

لهم جميعا كل الحب وكل العرفان.

سيد القمنى

التأسـيس

التقريـــش والإيـــلاف

﴿فقال الملأ الذين كفروا من قومه ماهذا إلا بشر مثلكم يريد أن يتفضل عليكم﴾

[٢٤/ المؤمنون]

حــروب دولــة الرســول

جــزء أول

التقريــش

يقول القاموس المحيط، إن الملأ هم الأشراف والعلية، وهم القوم ذوو الشارة والمظهر الحسن والشرف[1]، وهم في المعجم (المنجد) أشراف القوم، الذين يملأون العيون أبهة، والصدور بهجة[2].

هكذا وصف رجال الحكومة القرشية، في المرحلة القبل إسلامية، في معاجمنا اللغوية، تلك الحكومة الابتدائية، التي تشكلت من كبار تجار مكة، أثريائها وعليتها، حيث مثل كل فرد منهم قومه في تلك الحكومة، بقدر ما يملك من إمكانات المظهر الحسن والشرف والأبهة، أي بقدر ما يملك من إمكانات مادية، وهي الحكومة التي تم تكريسها في (دار الندوة)، وعرف التاريخ أعضاءها باسم (الملأ).

ويلخص لنا (حسين مروة) أمر ندوة الملأ بإيجاز بليغ يقول:

> إن سيطرة أرستقراطية قريش المالية والتجارية، كان لابد لها أن تُنتج بدورها مؤسستها السياسية، المعروفة تاريخياً بدار الندوة، البذرة الأولى للدولة في مجتمع مكة، والتي كان من شأنها أن تنظم العلاقات السلطوية لهذه السيطرة، مع الفئات الاجتماعية الأخرى، الخاضعة لاستغلالها الاقتصادي، وأن تضفي على هذه العلاقة وجهها الحقوقي، الملائم للوضع التاريخي آنذاك، كما تفرض شرعيتها على تلك الفئات نفسها، التي أصبح عليها أن تخضع سياسياً، كما هي خاضعة اقتصادياً، لأرستقراطية قريش الحاكمة - الملأ - وكانت الندوة مجلساً يمثل الأرستقراطية، وفيها كانت تقضي قريش أمورها[3].

وحكومة الملأ إذن - كما هو مبين - كانت مجلساً سلطوياً قام في مكة، من أجل إحكام سيطرة الأرستقراطية المكية التجارية على مختلف الشئون، بغرض تناغمها جميعاً مع مصالحهم، بحيث يؤدي كل شأن دوره في حماية تجارتهم، واستمرار سيولتها، وضمان أمنها، دون أي توقف يمكن أن يهددها.

---

(١) القاموس المحيط: باب الهمزة، فصل الميم.

(٢) المنجد: حرف الميم، مادة إملاء.

(٣) د. حسين مروة: النزعات المادية في الفلسفة العربية الإسلامية، دار الفارابي، ط ٦، ١٩٨٨، بيروت، ج ١، ص ٢٣٠.

ولعل أهم الخطوات التى تمت بسبيل تأمين تلك المصالح، هى قيام مجلس الملأ نفسه، الذى ترافق مع خطوات أخرى، بدأت بالتقريش، ليتلوه الإيلاف، فكان التقريش خطوة أولى لتوحيد قبائل مكة وجمعها، أى تقريشها، وذلك زمن (قصىّ بن كلاب)، عندما استطاع مع حلفائه إجلاء قبائل (خزاعة) عن مكة، ليتمركز فيها مع أولئك الحلفاء، نتيجة مجموعة متضافرة من الظروف التاريخية، بدأت آنذاك تفعل فعلها فى جعل مكة زمن (قصىّ)، مركزاً كبيراً لاستراحة القوافل التجارية، على طريق الخط التجارى ما بين الشام واليمن، وعليه فإن نظام التقريش جاء كشكل اجتماعى، أكثر تطوراً بدرجة أعلى قليلاً، من الأنظمة القبلية المتشرذمة المتقاتلة بالجزيرة. وكلون من التنظيم الاجتماعى الذى يجمع القبائل الحليفة لقصى فى أضمومة وحزمة مترابطة بالمصلحة، مع استقلال كل قبيلة بشكلها العشائرى المألوف، وهو ما نفهمه من شرح (ابن كثير) لهذا الشكل المجتمعى التقريشى فى قوله:

> وأما اشتقاق قريش، فقيل: من التقرّش، وهو التجمّع بعد التفرّق.. وقيل سميت قريش قريشاً من التقرّش، وهو التكسّب والتجارة، حكاه ابن هشام رحمه الله، وقال الجوهرى: الكسب والجمع، وقد قَرَش يقرُش (نظن المقصود هنا القرش أى الهرس بالأضراس، كما تعنى أيضاً جمع القروش أى المال). وقال البيهقى: إن معاوية قال لابن عباس: فلم سميت قريش قريشاً؟ قال: لدابة تكون فى البحر، تكون أعظم دوابه يقال لها: القرش، لا تمر بشىء من الغث والسمين إلا أكلته[٤].

وهكذا يأتى هذا التفسير الجامع، معبراً صادقاً عن حال قريش، وحال المرحلة التاريخية متضمناً حال المرحلة المجتمعية، فالتقريش تجمع للقبائل التى حملت اسم قريش بعدما كانت شراذم قبلية متناثرة متصارعة، وما جمعها إلا المصلحة المادية المشتركة، وهى التكسب المادى، ذلك التكسب الواضح أنه ناتج التجارة على الخط التجارى، والذى تمثل فى عشور جمركية تقبضها قريش نظير المرور والاستراحة فى مدينتها، للموقع المتميز لمكة على الخط التجارى الدولى، ويحمل التعريف معنى هاماً بربطه المتين والرائع لجمع الناس وجمع المال بالارتباط المصلحى، فالقرش هو مفرد القروش المجموعة، والقَرش هو الكسب المالى، وهو فى الوقت ذاته تجمع الناس فى مجتمع مترابط (هو الكسب، وهو الجمع بعد التفرق)، ليبلغ التعريف كمال تبليغه البلاغى فى تصوير حال هذا الجمع المتكسب، واستعداده للدفاع عن

---

(٤) ابن كثير: البداية والنهاية، دار الكتب العلمية، ط ٤، ١٩٨٨، بيروت، ج ٢، ص١٨٧.

مصالحه، وتطور الأمر إلى حدّ النهم، فهو كالقرش السمك المتوحش لا يمر بشيء إلا أكله، مما يشير بالضرورة إلى وجود فئات أخرى، سقطت في حومة ذلك الحراك الاقتصادى الاجتماعى، وذلك فى قرن الجمع والتجمع بالكسب والتقرش وجمع القروش، مع القرش بالأضراس الذى تمثله دابة البحر.

الإيــلاف

أما التأليف بنظام الإيلاف، فكان - فى رأينا واستنتاجنا - الخطوة الثانية والضرورية بعد التقريش، وهو ما طبقته أرستقراطية مكة القرشية بنجاح، للتأليف بين قبائل مكة التجارية أو أثرياء مكة تحديداً، وبين القبائل الضاربة على الخط التجارى الواصل بين مكة، وبين حدود الامبراطوريتين: الرومانية والفارسية، ثم تأليف ثانٍ بين قريش وبين القبائل الضاربة فى باطن الجزيرة فى خطوط فرعية، ثم تأليف ثالث بين قريش وبين الامبراطوريتين.

وبالإيلاف، وللإيلاف، كان يتم توزيع المكاسب بشكل تناسبى، بما يضمن حماية طريق الإيلاف من إغارة البدو، وتأمينه لمصلحة الجميع، وهو ما يقول فيه (المسعودى) موجزاً: «وأخذت قريش الإيلاف من الملوك، وتفسير ذلك الأمن»[٥].

وعلى الطريق التجارى وفروعه الهامة، ارتبطت قريش بالإيلاف والعهود مع شيوخ قبائل الجزيرة، شيوخ قيس، واليمامة، وتميم، وأقيال اليمن، وملوك غسان والحيرة، كما وكلوا عنهم وكلاء فى جوش ونجران، وغيرها من المواضع الهامة فى شبه الجزيرة[٦]، وقد اتبعت قريش فى تأليفها أساليب منوعة، فهناك من رضى من شيوخ البدو على الطرق التجارية بالهدايا والجعالات، بينما اتفق آخرون على حماية طريق الإيلاف الكبير نظير الاشتراك مع قريش فى تجارتها، وهو ما يتضح من إشارة (الجاحظ) لدور (هاشم بن عبد مناف) فى تأليف قبائل العرب بإشراكهم فى التجارة[٧]، وما رواه (ابن سعد) عن تأليف (هاشم) للقبائل الضاربة على الطريق

(٥) المسعودى: مروج الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق محمد محيى عبدالحميد، المكتبة الإسلامية، د. ت، بيروت ج٢ ص٥٩.
(٦) د. سالم عبد العزيز سالم: دراسات فى تاريخ العرب فى عصر ماقبل الإسلام، دار النهضة، ١٩٨٠، بيروت، ج١، ص٥٠٣، ٥٠٥.
(٧) الجاحظ: الرسائل، جمع ونشر حسن السندوبى، المكتبة التجارية الكبرى، ١٩٣٣، القاهرة، ص٧٠.

الشامي بحمل بضائعهم دون أجر[8]، ثم ما ذكره (البلاذرى) عن دور (هاشم) وولده (عبدالمطلب) فى عقد المعاهدات وأخذ الحبال من ملوك روما وحمير، ودور (عبد شمس) فى تألف نجاشي الحبشة، ثم دور أخيه (نوفل) فى تألف أكاسرة فارس وأخذ عهود الأمن منهم[9].

وهكذا، كان نظام الإيلاف، تأميناً للطريق، وطمأنةً معلنة للامبراطوريتين المنتظرتين على نهاية خط طريق الإيلاف، للقوافل القادمة من مكة، بحيث ضمنت مكة بإيلافها أمان الرضى الامبراطورى عن دورها، وعن اقتدار ملئها، فى تأمين وصول المواد المطلوبة والسلع الهامة، فى مواقيتها دون تأخير، ولعل ما يعبر عن وعى العرب بهذا المعنى فى نظام الإيلاف، يتضح فى أبيات لمطرود بن كعب وهو ينشد:

يا أيها الرجل المحول رحله	هلاّ نزلت بآل عبد مناف؟
هبلتك أمك لو نزلت عليهم	ضمنوك فى جوع ومن إقراف
الآخذون العهد من آفاقها	والراحلون لرحلة الإيلاف[10].

أما القرآن الكريم، فكان بصدق تبليغه، مفصحاً، موجزاً، مبلغاً ببلاغته أمر الإيلاف وعلاقته بالأمن، وبالبيت الإلهى المكّى، فى قول الآيات - فى سورة تحمل اسم قريش

﴿لإيلاف قريش * إيلافهم رحلة الشتاء والصيف * فليعبدوا رب هذا البيت * الذى أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف﴾.

وقد هيأ مكة للقيام بهذا الدور التاريخى، مجموعة متسارعة من الأحداث. وظروف تلاحقت لتتراكم على صفحة المنطقة وتتوزع على خريطتها، حيث كان مركز اليمن الزراعى والتجارى قد تهاوى قبل العصر الجاهلى الأخير بزمان، بينما تضعضعت أحوال الممالك العربية الشمالية (الغساسنة والمناذرة) فى العصر الجاهلى الأخير، قبل الإسلام بفترة وجيزة، ووقعت تحت الاحتلال المباشر من الفرس والروم، وهو ما أحدث - ولا شك - فراغاً سياسياً فى المنطقة الممتدة من سواحل المحيط الهندى جنوباً، وحتى الخط الفاصل بين الامبراطوريتين فى بادية الشام شمالاً.

وقد ساعد على رسم تلك الخريطة السياسية، انهيار مجموعة طرق أخرى لم يبق آمناً من بينها

(٨) ابن سعد: الطبقات الكبرى، تحقيق أوجين متوخ، دار صادر، ١٩٥٧، بيروت، ج ١، ص ٤٥.
(٩) البلاذرى: أنساب الأشراف، تحقيق د. حميد الله، دار المعارف، ١٩٥٥، القاهرة ج ١، ص ٥٩.
(١٠) نفسه: ص٦٠.

سوى الطريق المار بمكة، قادماً من موانىء اليمن ليتجه شمالاً، ثم يتفرع إلى فرعين نحو فارس شرقاً وروما شمالاً وغرباً فى داخل الحدود الفلسطينية والمصرية، وكان انهيار مجموعة الطرق التجارية الأخرى راجعاً إلى تلك الحرب الطويلة الضروس، التى دارت بين الفرس والروم، ومطاردة كل منهما الأخرى فى كافة المواضع الممكن الوصول إليها لقطعها، ولم يبق فى المنطقة آنذاك طريق مأمون، سوى الطريق البرى المار بمكة، لمنعته الصحراوية على غير أهله، مما انتهى به إلى طريق أوحد مؤهل للقيام بأمر تجارة العالم، وهو ما أدى إلى تحول مكة عن وضعها زمن (قصىّ بن كلاب) كمحطة ترانزيت كبرى قابضة للعشور، إلى مركز للأرستقراطية المكية التجارية فى العصر الجاهلى الأخير، حيث تمكنت تلك الأرستقراطية بتراكم رأس مال العشور والتجارات الصغيرة، من الانتقال عن قبض العشور إلى شراء البضائع القادمة من المحيط الهندى وموانىء اليمن، والاتّجار بها لحساب تلك الأرستقراطية، لتمسك عندها بعنان تجارة عالم ذلك الزمان[11].

ولنا أن نفترض بدء ذلك التحول عن قبض العشور إلى القبض على تجارة العالم، كانت المرحلة التى عمدت فيها قريش إلى إنشاء نظام الإيلاف بعد التقريش، ففى مرحلة التقريش كانت قريش تقبض عشورها، وما كان يعنيها كثيراً أمان الطريق، فهى تتاجر تجارتها البسيطة مع القادمين والآيبين، وتأخذ العشور من السارق والمسروق، ومن ثم تطور الأمر عندما أصبحت التجارة ملكاً كاملاً لها، ذلك التطور الذى استدعى السعى الجدى لتأمين تلك التجارة بنظام الإيلاف، وهى ذات المرحلة التاريخية التى نعتقدها مرحلة الفرز للصراع التنافسى التجارى، ومن ثم السيادى، داخل مكة ذاتها، والذى انتهى، كما هو واضح بالمصادر الإسلامية، إلى سيادة مالية شبه كاملة للفرع الأموى، مع خسران واضح لأبناء عمومتهم، الفرع الهاشمى.

ولنا أن نتصور ذلك التراكم المالى وهو ينزع عن الترانزيت إلى المركزية التجارية، ينمو من خلال خبر (الواقدى) وتأكيده أنهم كانوا يربحون فى تجارتهم عن الدينار ديناراً[12]، حتى بلغ رأس مال بعض القوافل مائة ألف دينار للقافلة الواحدة، ويمكن أن نعلم المدى الذى وصل إليه

(١١) حول العوامل التى أدت إلى انهيار الأمن على الطرق التجارية القديمة، انظر: د. أحمد شلبى السيرة النبوية العطرة، مكتبة النهضة المصرية، ط ١٢، ١٩٨٧، القاهرة، ج ١، ص ١٢٤، ١٥٣، انظر أيضاً: أحمد أمين: فجر الإسلام، مكتبة النهضة المصرية، ط ١٤، ١٩٨٧، القاهرة، ص ١٢، ١٣.

(١٢) الواقدى: مغازى رسول الله، مطبعة السعادة، ١٩٤٨، القاهرة، ج ١، ص ١٥٧.

تضخم رأس المال القرشي من خبر سلعة واحدة ترفيهية كمالية، هى الطيوب، والتى كان يطلب منها الروم والفرس فى العام ما تصل قيمته إلى مائة مليون درهم(١٣).

أما قافلة (أبى سفيان) التى كانت سبباً بعد ذلك فى غزوة بدر الكبرى، فقد أسهم فيها البيت الأموى بأربعة أخماس رأس المال، وكان لأسرة (أبى أحيحة) وحدها ما يصل إلى ثلاثين ألف دينار، وهى أسرة أموية، وذلك من مجموع أموال القافلة البالغ خمسين ألف دينار.

تحريم المواسم

وإضافة إلى الإيلاف بعد التقريش، تمكنت مكة، على المستوى الداخلى للجزيرة، من استقطاب القبائل المتناثرة فى الباطن والأطراف لسوقها المركزى، بتكتيك تدفعه المصلحة يتجاوز المفاهيم الدينية القبلية المتعصبة، فقامت تستضيف فى كعبتها أرباب قبائل الجزيرة على تعددها وتناقضها، تلك الأرباب التى كانت فى نظر أصحابها أسلافاً صالحين، وكان الرب هو جد القبيلة البعيد وسيدها ورمزها، ومعبودها، وضامن وحدتها وتماسكها، فكانت تلك الضيافة لسادة القبائل ورموزها، ضيافة حسنة لكل القبائل، وسبيلاً إلى التقريب بين القبائل بتجاور الأرباب من الأسلاف، فى فناء معبد واحد، بحيث حاز كل رب نفس القدر من الحرمة، ولم تجد قبائل الجزيرة فى تلك الضيافة غضاضة، بل رحبت بدورها بتلك الخطوة وسارعت إليها، وقد بدت تسييداً أوسع، ونشراً لأمر رب كل قبيلة خارج حماه، وخارج دائرة نفوذه القبلى وحدوده الإقليمية، مع الأخذ فى الحسبان الاعتبار الأكثر أهمية، وهو انهيار الطرق التجارية الأخرى المارة بمواطن تلك القبائل فى بقاع الجزيرة، مما أدى لسقوط معابدها وكعباتها وتدنى شأن آلهتها، بفقدها الأساس الاقتصادى مع تحول التجارة عنها، إضافة إلى التنامى الذى حققته الظروف لمكة. وهو ما أضعف شأن الأسواق الأخرى إلى حد التضاؤل والتهميش(١٤).

وعليه؛ فقد كانت ضيافة الكعبة المكية للأرباب القبلية، تأليفاً آخر لقبائل الجزيرة جميعاً، وهو ما ساعد على مزيد من تمركز التجارة بمكة، مع اتصال مكة بفروع للطرق نحو الأسواق الداخلية

---

(١٣) أحمد عباس صالح: الصراع بين اليمين واليسار فى الإسلام، مجلة الكاتب عدد ٢٤ نوفمبر ١٩٦٤، القاهرة، ص٢١، نقلاً عن سعيد الأفغانى. أسواق العرب.

(١٤) سيد محمود القمنى: الحزب الهاشمى وتأسيس الدولة الإسلامية، دار سينا، ١٩٩٠، القاهرة، ص ٢١ : ٢٤.

الضارية فى بطن الجزيرة، وزاد فى المركزة التجارية والدينية والقبلية بل واللغوية لمكة ولهجتها القرشية، بعد أن أصبحت لغة قريش ذات السيادة والانتشار، فأصبحت مكة مزاراً لكل العرب، وحاز موسمها التجارى الأكبر (موسم الحج) مكانة لا تضارع، بعد أن أصبح موسماً لكسبهم وعبادتهم وسمرهم ومرحهم، حتى كادت مكة - على المستوى العرفى - أن تكون عاصمة لجزيرة العرب جميعاً.

وبسبيل مزيد من الحفاظ على المكاسب ودوامها، تمكن الملأ القرشى من تنظيم أسواق بعينها، فى هيئة مواسم منظمة بمواقيت، تتفق ومواسم المحاصيل، سواء فى الجزيرة أو شرق أفريقيا أو الهند، ووفق خطوط الرياح فى المحيط الهندى، وموعد وصول شحنات البحر من الهند وشرق أفريقيا إلى موانىء الساحل اليمنى، ووقت الطلب الشمالى لتلك البضائع والسلع بتقدير دقيق، يأخذ فى اعتباره أصغر العوامل، حتى طبيعة المناخ وموجات الحرارة والبرودة، مع تحريم مواقيت تلك الأسواق إيمانياً ومصلحيا، لضمان الموسم الأكبر (موسم الحج)، الذى تجمع فيه مواد بضائع الساحل اليمنى وأسواق الجزيرة الداخلية، لتشق رحلتها الصيفية إلى الشمال، بحيث أصبحت أشهر الحج والسفر الصيفى أشهراً حراماً، ثم كان فى الإمكان - للمصلحة التجارية، وحسب ظروف تطرأ أحياناً، وحسب الطلب، وتغير مواقيت السنة العربية القمرية مع السنة الشمسية الزراعية المحصولية، ولضبط الأشهر الحرام القمرية مع الرحلتين ومواسم الحصاد - تحريك تلك المواقيت، ونقل الأشهر من مواضعها بالإزاحة، فيما يعرف بنظام النسىء[١٥].

ولمزيد من الضمانات، نظم الملأ نواة أولى لقوات مسلحة من العبيد، ومن الأحابيش كانت مهمتهم الأساسية حماية أصحاب رؤوس الأموال والشخصيات الكبرى، وحراسة بيوت رجال الملأ، ثم المهمة الأساسية، وهى حراسة القوافل التجارية.

وعليه؛ فقد أخذت مكة - بتسارع - تتحول إلى حاضرة تتناقض مع البداوة والقبلية فى داخلها، كما تتناقض مع المحيط المتشرذم حولها فى جزيرة العرب، ومن ثم كان ضرورياً أن تمر مكة بتحولات بنيوية هائلة، فى تركيبتها الاجتماعية، والاقتصادية، والسياسية، التى انتهت بها من قبائل متشرذمة، إلى قبائل متقرشة، خاضعة لرجال الندوة من حكومة الملأ، لتنضح - باشتراك المصالح - تقريشها إيلافاً على محيطها القبلى فى الجزيرة، وبخاصة القبائل التى ألفها طريق الإيلاف الأكبر.

---

(١٥) المسعودى: سبق ذكره، ج ٢، ص ٥٧، ٥٨.

المتغير الاجتماعى

يسوق (ابن سعد) فى طبقاته خبراً، يوافقه عليه جميع رواة السير والأخبار، والخبر يقول: إنه حين تغلبت قريش على خزاعة، وتسلم (قصىّ بن كلاب) - بعد أن كثر ماله وعظم شرفه - زعامة قبائل مكة المتحالفة معه، التى تقرشت، قطع (قصىّ) مكة أرباعاً بين قومه، فأنزل كل قوم من قريش منازلهم[١٦]، وقد ذهب الكاتب (برهان الدين دلو) مذهب الباحث (حسين مروة)، فى تحديد المغزى التاريخى لهذا الحدث، بأنه «كان تصنيفاً اجتماعياً لسكان مكة، بطون قريش وحلفائها، روعى فيه الوضع المالى دون العرف القبلى، إذ جعلهم صنفاً ممتازاً أدنى أسكن فى الظواهر، وهم قريش الظواهر، وكانت قريش الظواهر متبدية أو شبه مستقرة»[١٧]، وقد ركن الكاتب هنا، فى تقديره لسوء أحوال «قريش الظواهر» المادية إلى تقرير الباحث المؤرخ (جواد على) فى مفصله عن تاريخ العرب قبل الإسلام[١٨]. ومن ثم استنتج من التصنيف المشار إليه:

> إن الوضع المالى والتجارى لأبناء القبيلة، أصبح يحتل المركز الأول من الاعتبار، فكان أن أصبح بنو عبد مناف وبنو عبد الدار فى مقدمة قريش البطاح، لأنهم صاروا أوفر مالاً وأعظم تجارة، ثم احتلت أمية فى قريش الجاهلية الأخيرة مكان الصدارة، مذ أصبح فيهم أعظم التجار ثراء، وبسطت سلطانها المالى والتجارى على كثير من قبائل المنطقة العربية خارج مكة، وبفضل مركز أمية المالى والتجارى، فإن أمراء القوافل كانوا منهم[١٩].

ونرى من واجبنا هنا التوضيح - حتى لا يختلط الأمر - حيث كان بنو عبد مناف وبنو عبد الدار أبناء لقصىّ سيد مكة - المتقرشة - الأول والمطلق النفوذ، والأكثر مالاً، وكان طبيعياً أن يكون ورثته فى مقدمة قريش البطاح، وليس كما ذهب (دلو) لكون وفرة مالهم الأساسى كانت من التجارة، وإنما لورثتهم ألوية التشريف والسيادة عن سلفهم (قصى)، مما أعطاهم فرصة الحصول على النصيب الكامل من المكوس الجمركية لبضائع الترانزيت المارة بمكة، وهى الألوية التى يشرف كل منها على لون من الخدمات المأجورة، التى كانوا يؤدونها للتجار المارين بمكة

---

(١٦) ابن سعد: سبق ذكره، ج١، ص٧٠، ٧١.

(١٧) برهان الدين دلو: مساهمة فى إعادة كتابة التاريخ العربى الإسلامى، الفارابى، ١٩٨٥، بيروت، ص٥٩.

(١٨) د. جواد على: المفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام، المجمع العلمى العراقى، د. ت، ج٤، ص١٩٥.

(١٩) دلو: مساهمة...، سبق ذكره، ص٦٠.

بقوافلهم، والتى حملت أسماء ألوية التشريف التى نظمها (قصّى)، للحصول على النصيب الأعظم من المكوس، وتمثلت فى (السقاية، والرفادة، والحجابة، والسدانة، واللواء، والندوة.. الخ).

والاعتراض من جانبنا يقوم على حجة أن تلك المرحلة كانت قبل انتقال قريش إلى مرحلة التجارة لحسابها، إلا أن إشارة الكاتب (دلو)، التى تؤكد أن الوضع المالى لأبناء القبيلة، قد أصبح يحتل الموقع الأول من الاعتبار، فهو الأمر الذى لا يمكن النزاع حوله.

ومع ذلك الثراء الذى أصابت حظوظه أفراداً من عشائر مكية مختلفة، ومع تحول هؤلاء النفر عن قبض العشور إلى التجارة لحسابهم، ومع حجم تلك التجارة الهائل، كان طبيعياً، بل كان محتماً، أن تبدأ الانقسامات الطبقية الحادة فى الظهور بوضوح داخل القبيلة الواحدة، وهو ما انعكس بدوره على الوضع القبلى للقبائل الأخرى بالجزيرة، المرتبطة بحركة مكة التجارية، وهو ما كان العامل الأول فى تهشيم الأسس القديمة لروابط القبيلة، وسيولة لزوجتها الجامعة لأفرادها، نتيجة للتطور التجارى، وما صاحبه من تقسيم للعمل، وتضخم ملكيات رؤوس الأموال، مقابل فارق طبقى كبير، نتيجة لتفاوت توزيع الثروة، مع اختلاف الأوضاع والأدوار فى العملية التجارية التى تقودها مكة، أو بالتحديد نفر متبعثر فى قبائلها، شكل الأساس الاقتصادى المتين بينهم رابطة قيادية للعملية التجارية، فتوزعت الأدوار ما بين ملاك للمال، إلى أدّلاء للقوافل، وحراس مسلحين، وعمال تشهيلات للشحن والتفريغ، وآخرين يبتهلون الفرص على الطريق لتقديم الخدمات الضرورية للقوافل، فى نقاط محددة ومحطات قاموا بإنشائها على الطريق للترغيب فى الاستراحة وبيع خدمات الراحة. هذا إضافة إلى المتاجرين الصغار، وشيوخ القبائل الذين يتقاضون الإتاوات، ثم الأهم وهو انتشار التعامل النقدى بعملات الفرس والروم، وهو ما أدى جميعه لفوارق وتفاوت، فكك بالتدريج روابط النظام القبلى القديم، نتيجة حتمية لوجود العبيد والمعدمين على الطرف الآخر غير المستفيد من العملية التجارية القائمة داخل ذات القبيلة، ومن ثم بدأت قيم القبيلة القديمة تتراجع.

والمعلوم أن القيم القبلية القديمة، كانت تقوم على المساواة المطلقة والامتلاك الجماعى لوسائل الإنتاج والثروة، ومن ثم توافقت معها علاقات الإنتاج، فكان الولاء الجماعى للقبيلة، وتماسك الكل فى القبيلة مع أى فرد فيها مهما صغر شأنه ضد الكون جميعاً، فهى تأخذ بثأره حتى لو تآكلت جميعاً، ثم هو معها كترس فى آلة عسكرية متحركة دوماً، لا رابط لها سوى تلك اللزوجة الاجتماعية، والسلف المشترك العزيز على جميع نفوس الأفراد، فكانت القبيلة، وكان السلف، هو الوطن، وكان ذلك اللون من العلاقات الاجتماعية هو الضمان الوحيد لسلامتها كوحدة محاربة متنقلة.

ولكن بعد التطور السريع، واستقرار أكثر القبائل، خاصة القوية، على الطريق التجارى الرئيسى، أو الطرق الفرعية، وظهور الفوارق الطبقية الحادة داخل القبيلة، لم تعد القبيلة مسئولة كل المسئولية عن الفرد فيها، وبدأت تظهر حالات خلع الأفراد الذين يمكن بحمقهم جلب الضرر للقبيلة التى شرعت فى الاستقرار، فظهرت طائفة الخلعاء المتشردين، ثم من جانب آخر ظهرت جماعات الصعاليك، أولئك الأفراد الذين بدأوا بدورهم يرفضون المنطق الجديد، ويهجرون قبائلهم، وأخذ تراكم رأس المال لدى أفراد بذاتهم يفعل فعله فى تحول الولاء عن القبيلة إلى الطبقة، كما أخذت قيم الولاء الجمعى تنداح مخلفة وراءها شكلاً جديداً من العلاقات الاجتماعية الأكثر تطوراً، تمثلت فى الفردية التى اتضحت فى إمكان تحدد قيمة الفرد دون جماعة، مع تحول قيمة الشرف عن النسب القبلى وعدد النفر إلى قدر ما يملك من مال، وهو ما أفصح عن نفسه فى تكوين جيش العبيد والأحلاف والأحابيش، الذى كان مؤشراً بالغ الدلالة على بدء منطق جديد، يمكن فيه الاستغناء عن النفورة وعزة النفر القبلى، بعد أن بات ممكناً شراء النفر المسلح والمدرب، أو الحليف بالمصلحة المادية، وهو ما بدأ يخرج بالفرد عن القبيلة إلى التحالف المصلحى مع أفراد من قبائل أخرى، وهو شاهد واضح البرهنة على بدء تفجر الأطر القبلية.

وهكذا أمسى ممكناً أن تجمع المصالح بين أصحاب الثروات على تفرقهم بين قبائل مختلفة وعلى أن يجمع الشقاء بين المستضعفين على تفرقهم بين قبائل مختلفة، وهو ما يشهد عليه بدء ظهور تجمعات أكبر من القبيلة، تمثلت فى أحلاف يأتينا خبرها فى أسمائها عبر كتب السير والأخبار، مثل حلف ذى المجاز وتنوخ، وحلف قريش والأحابيش، وحلف الفضول، وحلف المطيبين، وحلف لعقة الدم، وحلف الأحلاف، وحلف الرباب، وحلف الحمس.. إلخ، لتشير الظاهرة إلى توجه اجتماعى جديد ينحو نحو التوحد على أساس من المصالح المشتركة.

لكن؛ علينا هنا أن نكون حذرين، فالمرحلة كانت مرحلة بدء، وكل تلك التطورات لم تكن تعنى تفجيراً كاملاً ومبرماً للقديم، لأنه بقليل من الجهد، يمكننا ـ ونحن ندرس مجتمع مكة تحديداً ـ أن نلحظ المحتوى الطبقى الجديد، وهو يتخفى برداء أو شكل قبلى عصبى عشائرى قديم، بمعنى أن الجديد قد تزيّا بالقديم، وسعت كل مجموعة من الأثرياء إلى ربط أفراد قبيلتهم بهم وبمصالحهم، بالعطاء والمنح وإشراك صغار تجار القبيلة فى قوافلهم التجارية، مما أسفر فى المجتمع المكى تحديداً عن محتوى طبقى يتخفى داخل نسق عشائرى، تمثل فى انقسام المجتمع القرشى إلى حزبين كبيرين قبليين، بين أبناء العمومة، أو إلى طبقتين ولكن بملامح قسمت

قبلية، يمثلهما البيت الأموى الثرى، والبيت الهاشمى الذى غلب عليه الفقر، وبخاصة فى بيت عبد المطلب، وإن كان من العلمية التوضيح أن ذلك الانقسام بدوره لم يكن تام التحديد بفواصل قاطعة مانعة، بل كان يتضمن بعض التداخل الطبقى بين العشيرتين، فضمت الطبقة الثرية أفراداً من هاشم، مثل العباس بن عبد المطلب، وأبو لهب (عبد العزى)، يشاركون أمية المصلحة الطبقية، ولذلك فإن المحتوى، وإن تغير، فقد ظل يتخفى بأردية عصبية النسق، وظل الشكل القديم محافظاً مع تغير المحتوى، لقد كانت المرحلة مرحلة بدء، بدء تحول، بدء طور انتقالى.

ويمكن للمطالع فى تلك المرحلة، أن يلحظ أمراً له مغزاه، فسيجد فقر هاشم وبنى عبد المطلب طارئاً جديداً، وهو ما يدفع إلى افتراضه متصلاً بالمنافسة التجارية التى يقع فيها البعض بالضرورة خاسراً، كما يفترض اتصاله بالصراع بين البيتين الهاشمى والأموى، الذى يضرب بجذوره فى الماضى إلى أيام الجد (قصىّ بن كلاب)، وهو الصراع الذى استعر حول حيازة ألوية التشريف السيادية، والتى بلا جدال كانت سلطوية فى بعض مناحيها كما فى لواء (الندوة) ولواء (اللواء)، وهى الألوية التى استحر صراع حرور حولها لأنها كانت عاملاً حاسماً فى القسمة الطبقية. بينما اعتمد الأمويون فى تقوية سلطتهم ونفوذهم على مزيد من التراكم الثروى، وعقد الموادعات والتحالفات التى تضمنها المصالح المادية المشتركة مع قبائل أخرى، فإن الهاشميين لجأوا إلى كسب مزيد من التشريف وألويته بتكتيك آخر، زاد فى فقدهم للأساس المادى باستمرار، لكنه كان منحى يهدف إلى كسب ولاء القبائل بالعطاء وبالبذل، لكسب الشرف الرئاسى بالجود والفضل، فهذا هاشم، يضع ثروته جميعها تقريباً فى قافلة قوامها الزاد، لفقراء مكة والقبائل، فى سنوات المجاعة المسنتة، وقام يهشم الثريد باللحم للجوعى بيديه، لذلك لقب هاشماً، أما اسمه الحقيقى فكان (عمرو)، وفى ذلك يقول (ابن كثير):

> .. هاشم واسمه عمرو، سمى هاشماً لهشمه الثريد مع اللحم لقومه فى سنى المحل، كما قال مطرود بن كعب الخزاعى فى قصيدته..

عمرو الذى هشم الثريد لقومه	ورجال مكة مسنتون عجاف
سنت إليه الرحلتان كلاهما	سفر الشتاء ورحلة الأصياف[٢٠]

وإشارة (مطرود بن كعب) هنا، لعلاقة هاشم برحلتى الشتاء والصيف، إضافة لما سبق وأشرنا

(٢٠) ابن كثير: البداية.. سبق ذكره، ج ٢، ص ٢٣٦.

إليه فى أخذه الإيلاف لقريش من الملوك وزعماء القبائل، تلقى ضوءاً على علاقة البيت الهاشمى الوطيدة، القديمة، بالنظام التجارى الملكى، باعتباره أحد المؤسسين لنظام الإيلاف، ودوره فى التجارة العالمية، التى ـ لا شك ـ جعلت بيت هاشم أياماً، بيتاً ثرياً ينافس البيت الأموى، وإن أفقره ذلك الأمر غير الواضح بكتبنا التراثية، والذى أرجعناه افتراضاً إلى السقوط فى حلبة المنافسة، وإلى عنصر آخر غير تام الإقناع، وإن كان ذا دور هام، وهو الكرم والعطاء، لإقامة تحالفات مطلوبة فى الصراع، وكسباً للرجال فى حومة مقبلة، وإن كان ذلك العنصر فى منطق الجزيرة وطبعها المجدب الشظف، وخاصة فى تلك المرحلة الطبقية، ربما كان منطقاً مقنعاً للعرب أنفسهم بحق التشريف السيادى لهاشم، فكان للكرم لديهم مغزاه السياسى والاجتماعى، وكان مما يدعم الكريم بالتسييد وما يستتبعه التسييد من سلطة، وهو ما يدل عليه قول (حاتم الطائى) أكرم العرب وأشهرهم فى هذا الضرب السيادى:

يقولون لى: أهلكت مالك فاقتصد وما كنت ـ لولا ما يقولون ـ سيدا[٢١].

ثم يخبرنا التاريخ أن (هاشم) قد دفع بالصراع دفعة كبرى، عندما دعم حلفه ضد (أمية) بزواج شرفى تعاقدى، مع أهل الحرب والدم والحلقة من بنى النجار، خزرج يثرب، وأن أخاه (المطلب) سار على نفس المنحى التكتيكى، وأن (عبد المطلب بن هاشم) قام بدعم آخر لحلف (هاشم / يثرب ـ الخزرج) بزواج آخر واستمر فى البذل حتى لقبته العرب بالفياض لكثرة جوده[٢٢]، فى الوقت الذى حافظ فيه ولده العباس على ماله، فكان كثير المال، وهو ما يشير إلى ممكنات الثراء فى البيت الهاشمى، لولا بذل هاشم وعبد المطلب وآله، وبخل شديد وحرص فى العباس، حدثتنا عنه كتب السيرة فى أكثر من مناسبة.

المستوى الفكرى

ومع مزيد من التراكم على خط التطور، كان لابد أن يتزايد التناقض بين الشكل والمحتوى، حتى يبلغ مداه التفجيرى للإطار أو الشكل، لصالح المحتوى الجديد، بعد تراكم الجديد داخل إطار ضاق به ولم يعد يسعه، وقد ساعد على زيادة ذلك التناقض بين الشكل والمحتوى، بقاء الشكل

(٢١) حاتم الطائى: (ديوانه)، تحقيق وشرح كرم البستانى، مكتبة صادر، د. ت، بيروت، ص ٥٨.

(٢٢) السهيلى: سيرة ابن هشام (الروض الأنف فى تفسير السيرة النبوية لابن هشام)، ضبط طه عبدالرءوف، دار المعرفة، ١٩٧٨، بيروت، ج ٢، ص ١٣١، انظر أيضاً: الحلبى سيرة الأمين المأمون إنسان العيون، دار المعرفة، د. ت، بيروت ج ١، ص ٢٢، ٢٣.

أوالإطار محكوماً بعلاقات استهلكها التطور السريع، فتفسخت القيم القبلية، رغم الإصرار الظاهر على استدامتها، هذا بالطبع مع الإفراز الفكرى للمرحلة التى اصطبغت بالشكل المادى النفعى، فاستبطن المحتوى الجديد، داخل فكر قديم، لكن فقط للمسامرات الفكرية، والندوات الديوانية، والممارسات الطقسية، والتبريرات النفعية، دون إيمان حقيقى، فعلى المستوى الواقعى، أمسى ظاهراً رفض العربى وخاصة المكى، لكثير من أشكال المعجزات الميتافيزيقية القديمة، خاصة إذا ما كان ذلك المكى من الطبقة الثرية الأرستقراطية، المترفة والمتحققة، حتى أصبحت تلك الميتافيزيقا القديمة فى مأثوره الجديد، على لسان الصفوة التى أتاحت لها الثروة التزود بالثقافة الحضارية فى مدارس الامبراطوريات وجامعاتها، مجرد أساطير الأولين، وما كان يتم استدعاؤها عن قناعة، بل من باب التخديم على المصالح المادية، ولم يعد الفكر الدينى ومفاهيمه، سوى أسلوب لتنسيق المكاسب، ومطية لمنافع مادية بحتة.

ومن ثم تخبرنا صدور كتب السير والأخبار، بتسامح مطاط فى قبول أى دين وأى معتقد، مهما بدا شاذاً وغير مألوف، شرط أن يكون دافعاً لمزيد من الحضور التجارى، أو على الأقل شرط ألا يكون متضارباً مع المصلحة التجارية، وكان أمراً مفروغ الحدوث، أن يبلغ ذلك التناقض مداه على كافة المستويات.

فعلى المستوى الاقتصادى: كان تركز الثروة بيد أفراد دون آخرين داخل القبيلة، دافعاً لمزيد من تناقض الشكل القبلى والمحتوى الطبقى، وكان مفترضاً وصول التناقض لمرحلة التفجر لصالح المحتوى الطبقى، لولا أن الشكل القبلى كان يؤدى للقيادة المكية ـ ولمصالح الملأ تحديداً ـ مكسباً أكبر من التحول النهائى نحو الشكل الطبقى، لأن التفكك القبلى وبقاء القبلية وإطالة أمدها، كان يعنى مزيداً من التراكم الثروى لأرستقراطية مكة، وهوالأمر الذى يفسره المستوى الفكرى.

وعلى المستوى الفكرى: كان الرب يمثل سيد القبيلة وسلفها ومعبودها ورمز عزتها وكبريائها، وكان تجمع تلك الأرباب فى ضيافة الكعبة المكية، يعنى مزيداً من الحضور التجارى لأتباع الأرباب، ومزيداً من المكاسب، فكان المحتوى الطبقى يسير نحو تفجير الشكل القبلى لصالح توحد القبائل جميعاً، بتقارب مصالح الأثرياء من قبائل مختلفة، بحيث صار ممكناً رفض رب القبيلة وسيدها وسلفها المعبود لدى الفرد عند الشريحتين الاجتماعيتين، الأرستقراطية والمعدمة، فكانت الشريحة الأرستقراطية تنحو نحو التوحد المصلحى الذى احتاج أدلجة، أفرزت اعتقاداً فى إله واحد يرعى تلك المصالح، ولأنهم السادة والملأ والحكومة، فقد جاء إلههم الجديد

فى مرتبة تتفق ومكانتهم، ليصبح فوق آلهة الكعبة جميعاً، وسيداً مطلقاً للكون الذى أمسكوا عنان تجارته بأيديهم، وراعياً غائباً لمصالحهم.

كذلك كانت فئة المضطهدين والمعدمين والعبيد، فى حالة رفض نفسى وعقلى لأرباب لا تعدل فى تقسيم الأرزاق، ومن ثم كان رفض تلك الأرباب لدى المضطهدين، قناعة مهيأة للإعلان العملى السافر. وقد برز الاعتقاد المكى فى إله واحد فوق أرباب القبائل وأسلافها المتعددين، الواقفين فى فناء الكعبة، وأمسى معترفاً به بشكل نهائى فى العصر الجاهلى الأخير، وهو ما قررته بعد ذلك آيات القرآن الكريم فى نصوص كثيرة متعددة، نقتصر منها على أمثلة تقول:

- ﴿قل من رب السماوات السبع ورب العرش العظيم. سيقولون لله قل أفلا تتقون﴾. (٨٦ـ ٨٧/ المؤمنون).

- ﴿ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض وسخر الشمس والقمر ليقولن الله فأنى يؤفكون﴾. (٦١/ العنكبوت).

لذلك ظل التشرذم القبلى قائماً، وجنين الوحدة المقبلة لعرب الجزيرة فى حالة إرهاص ومخاض، دون ميلاد حقيقى، يجمع العرب جميعاً فى مصلحة واحدة، ووحدة قومية جامعة فى ظل إله واحد، ولذلك انتشر الاعتقاد فى مهمة باقية لهذه الأرباب القبلية المتفرقة، وهى التشفع لأتباعها لدى الإله الواحد، واتخاذهم إليه زلفى وتقرباً، وهو ما كان ـ على المستوى النفسى ـ إخضاعاً داخلياً ذاتياً للقبائل، لملأ مكة وسيادة ذلك الملأ، عن طريق الاعتراف بسيادة إله الملأ على أرباب القبائل، وقد صورت آيات القرآن الكريم، المعنى الذى انتهى إليه أرباب القبائل بتصوير بليغ، يليق بصدق الوحى الكريم، وتطابقه مع واقع مكة والجزيرة، دون تفاوت ﴿ما ترى فى خلق الرحمن من تفاوت﴾ (٣/ الملك)، بقول يأتى على لسان المشركين:

﴿ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى﴾ (٣/ الزمر).

وعلى المستوى السياسى؛ تجاوزت حكومة الملأ ـ أصحاب الندوة ـ الشكل القبلى القديم، لكنها حرصت على استدامة النقيضين حرصاً على المصلحة المادية، فكانت حكومة الملأ حكومة شبه جمهورية، تتجاوز الشكل المشيخى الرئاسى القبلى القديم، لكنها تستبطنه فى تمثيل رجال الملأ

للتعددية القبلية لبطون قريش، بينما صراع النقيضين يفعل فعله التراكمى لصالح توحد كامل لشكل الحكم، بغرض القضاء على التمثيل القبلى والقبلية، لصالح نظام حكم مركزى جامع، يقوم على سلطة واحدة موحدة، لا تضع بحسبانها مصالح الملأ الأنانية الضيقة، بل تتجاوزها بضرب التعدد السلطوى والربوبى، لصالح دولة كبرى ومصالح أعظم وأعم نفعاً لجميع عرب الجزيرة، حكم يمكنه أن يوحد تلك الشراذم المتأرجحة بين الفردية والقبلية، الجديد والقديم، فى مرحلتها الانتقالية، نحو أمة واحدة، وهو ما يخبرنا التاريخ بأنه قد حدث، وذلك مع المرحلة الأولى من المراحل التى مرت بها أطوار الدولة المقبلة.

وقد تمثلت المرحلة الأولى فى تكوين تلك الدولة فى ظهور سلطتها، كسلطة نبوية، فى مكة بنداء النبى - صلى الله عليه وسلم - لعشيرته، بما بين يديه من سلطة نبوية (إنى نذير لكم بين يدى عذاب شديد)، تلك السلطة التى استندت إلى أساسين أولين هما: السلطة النبوية المستمدة من الأساس الثانى والأعظم، وهى سلطة الله الأوحد العليا، الراعى الأقدر للدولة القادمة.

وبالفعل تتجاوز الدعوة الطالعة لمؤسسة الدولة المقبلة، التعدد العشائرى نحو توحد عربى جامع، وذلك بنزوع مبكر، نحو دولة غير اعتيادية، إنما امبراطورية تسد الفراغ السياسى العالمى، وتقضى على ما تبقى من تفريخات منهارة للامبراطوريات القديمة المتصارعة لصالح التطور الأممى الجديد، وهو ما تأتينا نبوءته الصادقة يتردد صداها فى جنبات جزيرة العرب بلسان النبى الأمين:

اتبعونى أجعلكم أنساباً

والذى نفسى بيده

لتملكن كنوز كسرى وقيصر.

وهو المعنى الذى كان يحمل فى طياته غرض كسب ولاء جماعة تضامنية، تشكل الأساس الثالث للدولة، جماعة تشكل نواة تأسيسية للأمة المقبلة.

ظهور الإسلام

كنا نقول حتى الآن: من الطبيعى ومن الحتمى، ومن الضرورى، فالأمر حسب قوانين التاريخ، لابد أن تؤدى مقدماته إلى نتائجه، متى ما توافرت الشروط، لكن هنا قد يجوز القول

لقائل: ومن الغريب أن ينهض بإتمام التطور إلى نهاية نضجه، لصالح الطبقة التجارية، فرد مكّى قرشىّ، هو نبى الإسلام - صلى الله عليه وسلم - محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم، ووجه الغرابة أنه نشأ يتيماً فقيراً كادحاً، ينتمى إلى فرع هاشم، بل إلى الغصن الأفقر فيه، غصن عبد المطلب وأبى طالب، وأنه لضرورات وظروف نشأته، بدأ حياته العملية من أجل الرزق، وهو لم يتجاوز بعد صباه المبكر، فاشتغل وهو أقرب إلى الطفولة برعى غنم أهله، ورعى غنم أهل مكة، الذين يرفلون فى ثراء النعمة، ثم - مع تجاوز الصبا إلى الرجولة - اشتغل بالتجارة لحساب الأثرياء، وهو ما يصلنا خبره فى رحيله إلى الشام، بتجارة لإحدى شريفات قريش (خديجة بنت خويلدالأسدى).

ومثل ذلك الانتماء كان كفيلاً بجعل أمر قيامه بدفع الأمر نحو غايته ونضوجه لصالح الطبقة التاجرة، أمراً غريباً لأول استطلاع، لكنه يعود طبيعياً تماماً، إذا ما تذكرنا أن النبى عليه الصلاة والسلام، كان من مكة، ومن قريش تحديداً، دون سائر قبائل بلاد العرب، وإذا وضعنا بحسباننا الظرف الذى كان يدفع الحراك نحو غايته، تلك الغاية التى لم تعطلها دعوة النبى بل دفعتها حثيثاً نحو نتائجها المنطقية، مع اعتبار الخبرة النبوية فى الطفولة والصبا بالشظف والإملاق، فى وسط طبقى هائل التفاوت، ثم خبرة أخرى بحياة الدعة والطمأنينة بعد الزواج من أم المؤمنين، السيدة خديجة بنت خويلد رضى الله عنها، وكانت إحدى نساء قريش الثريات المعدودات، وهو الزواج الذى كان عاملاً ضمن عوامل، لانتقاله إلى انتماء جديد، لكنه انتماء خبر القديم، وأحس به حرماناً واستضعافاً وهواناً لا ينسى، فكان الدفع نحو إلغاء تلك القسمة المجتمعة بداية، والتى بدأت تحنفاً وتقشفاً وتعبداً فى حراء، رغم النعمة، على طريقة طائفة الحنفاء الذين انتشروا فى الجزيرة العربية، وفى مكة خاصة، فى العصر الجاهلى الأخير، يدعون إلى التوحد وإلى التوحيد وإلى المساواة وإلى العدل الاجتماعى[٢٣]، ويعتقد (حسين مروة) أن النبى - صلى الله عليه وسلم -، لم يكن حنيفياً بالتأثير أولمجرد التمّاس مع ذلك الفريق أو مع بعضهم، بل يذهب إلى احتسابه واحداً من جماعتهم، وقد اعتمد (مروة) فى مذهبه هذا على تأكيد آيات القرآن الكريم لهذا المعنى، وضرب منها أمثلة من قبيل:

- ﴿قل إننى هدانى ربى إلى صراط مستقيم ديناً قيماً ملة إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين﴾ (١٦١/ الأنعام).

---

(٢٣) حول ظاهرة التحنف والحنفاء، انظر: سيد محمود القمنى، الحزب الهاشمى، سبق ذكره، ص ٥٧ : ٧٤.

ـ ﴿ومن أحسن ديناً ممن أسلم وجهه لله وهو محسن واتبع ملة إبراهيم حنيفا﴾ (١٢٥/ النساء)(٢٤).

أما المنهج الأمثل الذى كانت تطلبه الأحناف لتحقيق التوحد ووحدة الأعراب وقبائلها، فهو التوحيد الربوبى، والدعوة بدعوة الإله الواحد، والسبيل إلى تحقيق ذلك، فيما ذهبوا إليه، نقرأه فى ملل الشهر ستانى بلسان الحنفاء وهم يقولون:

> إننا نحتاج فى المعرفة والطاعة إلى متوسط من جنس البشر، تكون درجته فى الطهارة والعصمة والتأييد والحكمة فوق الروحانية، ويلقى إلى الإنسان بطرف البشرية(٢٥).

وهم بذلك إنما يطلبون النبوة، ولابد للوحدة السياسية من توحيد علوى يتمثل فى سلطة إلهية واحدة موحدة عبر نبى عربى، وهو ما يظهر واضحاً فى قراءة (أحمد إبراهيم الشريف) لواقع الجاهلية الأخيرة قبل الإسلام مباشرة فى قوله:

> والدليل على أن الجاهليين كانوا يتطلعون إلى نظام جديد، أنهم كانوا ـ حسب تفكيرهم ـ يتحدثون عن علامات ونذر تنبىء عن قرب ظهور نبى منهم، وقد روى القدماء معجزات ونذراً قالوا: إنها وقعت قبل ظهور الإسلام، إرهاصاً به ومنبئة بقرب ظهوره، وتلك الروايات ـ إن صحت (!!) ـ كانت دليلاً على أن الجاهليين تطلعوا إلى الإصلاح، وإلى ظهور مصلح من بينهم، وكان الإصلاح قديماً لا يتأتى إلا على أيدى الحكماء والأنبياء، وهذا التطلع الطبيعى فى كل جماعة إحساس ضرورى يسبق كل حركة إصلاحية ويمهد لها،.... وكانت البيئة مستعدة لقبول النظام الجديد، لأنها بيئة لها وحدتها المميزة، من الناحية اللغوية ومن ناحية الجنس... وكان من المتوقع لو لم يظهر الإسلام أن يدخل العرب فى إحدى الديانتين (المسيحية أو اليهودية) لولا أنهم بدأوا نهضة قومية... لذلك يريدون ديانة خاصة يعتبرونها رمزاً لقوميتهم... ديانة تعبر عن روح العروبة وتكون عنواناً لها، لذلك بحث عقلاؤهم عن الحنيفية دين إبراهيم الذين كانوا يعدونه أباً لهم... وقد

(٢٤) د. حسين مروة: سبق ذكره، ج ١، ص ٣٣١، ٣٣٢.
(٢٥) الشهرستانى: الملل والنحل، تحقيق محمد سيد كيلانى، نشر البابى الحلبى، ١٩٦١، القاهرة، ج ١، ص ٢٣١.

ظهرت حركة التحنف قبل الإسلام مباشرة، وكانت رمزاً إلى أن الروح العربى كان يتلمس يومئذ ديناً آخر غير الوثنية، والإسلام حين جاء... كان دليلاً على نضوج دينى فلسفى استعد له العرب فى القرون المتطاولة السابقة... وكذلك كانوا يحسّون بأن عدم وجود دولة تجمعهم أمر فيه ذل وعار... وفى هذه الظروف المواتية من الناحية الدينية والاقتصادية والاجتماعية والسياسية، ظهرت النهضة العربية وكانت دينية، والدين كان عاملاً من عوامل التطوير والتقدم فى العصور القديمة، ولم يتنازل الدين بعض الشيء عن هذه الناحية، إلا بانتشار العلوم، ووجود العوامل التى تنافسه فى القيام بهذا الدور فى العصر الحديث(٢٦).

وهو الواقع الذى وعى قراءته مبكراً ابن خلدون، عندما عرض فى مقدمته لمسألة الوحدة السياسية للعرب فى مملكة موحدة، وأكد أن الملك لا يحصل لهم إلا بصبغة دينية من نبوة أو ولاية أو أثر عظيم من الدين على الجملة، وذلك فى تقريره عن العرب:

أنهم أصعب الأمم انقياداً بعضهم لبعض، للغلظة والأنفة وبعد الهمة، والمنافسة فى الرئاسة، فقلّما تجتمع أهواؤهم، فإذا كان الدين بالنبوة أو الولاية كان الوازع لهم من أنفسهم، وذهب خلق الكبر والمنافسة منهم، فسهل انقيادهم واجتماعهم، وذلك بما يشملهم من الدين المذهب للغلظة والأنفة، الوازع عن التحاسد والتنافس(٢٧).

أما الأكثر دلالة، ويضاف إلى مجموعة الإفادات السابقة، فى رصيد الإجابة عن السؤال المطروح المستغرب، هو أنه رغم عدم إفادة المصادر الإسلامية بوضع رجال الدين فى مكة، فإن تلك السدانة جاءت بدورها غير واضحة كما لو كان الغموض مقصوداً بكتبنا الإخبارية، ولم يبن بتلك الكتب ما إذا كانت السدانة طبقة بالمعنى المفهوم عن رجال الدين؟، وإن كان ما يفسر ذلك الغموض هو ارتباط الدين بالتجارة، مما جعل قريشاً تحوز جميعها قداسة رجال الدين بالنسبة لسائر أعراب شبه الجزيرة، وإن وجدنا وسط تلك الضبابية مجتهداً معاصراً، يعلمنا أن ذلك المنصب الدينى كان متوارثاً فى البيت الهاشمى تحديداً، ثم من بعده فى البيت المطلبى بالذات، وهو ما يصرح به (أحمد عباس صالح) فى قوله:

(٢٦) د. أحمد إبراهيم الشريف: مكة والمدينة فى الجاهلية وعهد الرسول، دار الفكر العربى، د. ت، القاهرة، ص ٢٣٩، ٢٤١ ط، ٢٤٥.
(٢٧) ابن خلدون: المقدمة، طبعة دار الشعب، د. ت، القاهرة، ص ١٣٦.

...وتستمد من هذه السدانة سلطة على سائر أهل قريش، وإن كنا نعلم أن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، من سلالة هؤلاء السدنة من قريش[٢٨].

وهو الخبر الذى يفسر لنا سر السيادة فى الفرع المطلبى، وشرفه الرئاسى العظيم، رغم رقة حاله المادى، كما يفسر لنا كثيراً من توجهات هاشم من قبله، عندما ترك ولده عبد المطلب (شيبة ابن هاشم) ينمو ويربو ويرضع الفروسية بين أخواله اليثارية، وحيث كان التاريخ الدينى يتواتر هناك فى مقدسات اليهود، مما يلقى ضوءاً على توجهات عبد المطلب فى الشئون الدينية، وما دعا إليه إبان حياته بشأن الإله الأوحد وبشأن الملة الإبراهيمية الإسماعيلية، وحديثه المسجوع كسجع كهان عرب الجزيرة المشهور، ونبوءاته التى أثبتت الأيام صدقها[٢٩].

وإعمالاً لكل ذلك، وتأسيساً على انقسام الجزيرة إلى وحدات، يصر الملأ على استدامتها قبلياً وربوبياً، ووقوف ذلك عائقاً دون تحقيق التطور لغايته، جاء الحضور التوحيدى فى الإسلام متحققاً على المستويين: المستوى المادى بسعيه لوحدة مؤسسية جامعة، فى دولة مركزية، وعلى مستوى الوعى بنهوضه على فكرة واعتقاد فى مبدأ أيديولوجى يضع النظرية لمؤسسة الدولة المقبلة.

وهنا يجب ألا يفوتنا انتماء النبى العشائرى إلى البيت الهاشمى، وهو ما دعاه إلى دعوة ذلك البيت من البدء إلى الوقوف مع الدعوة ﴿وأنذر عشيرتك الأقربين﴾ (٢١٤/ الشعراء)، لكنه تجاوز الخلافات بين البيتين الهاشمى والأموى، بتوسيع دائرة الدعوة بين البيتين، لكن تفصيلات الموقف، وما لحقه بعد ذلك من أحداث، فرضت انعطافات كثيرة على طريق الدعوة، فقد نفر منه الأمويون، واعتبروا دعوة الإسلام العظمى، خطوة أخرى من خطوات التكتيك الهاشمى، مما استدعى تحركاً آخر من قبل بنى هاشم، بنزوع عشائرى متماسك خلف ولدهم حماية له ووقاء، بفروض المنظومة القبلية وتحزبها، وربما مع وعى يقف فى صف المنظومة الوحدوية التى يدعو إليها، لكن دون الارتقاء إلى البنية العليا، وهو ما اتضح فى رفضهم للجانب الفكرى الدينى فى منظومته، أما الأمويون الذين تصوروا الإسلام الجليل صراعاً قبلياً، فقد لجأوا إلى محاولة رشوة النبى بالمال، ثم إلى محاولة ساذجة، تهدف إلى كشف مقاصد النبى الكريم ودوافعه، التى تصورت لهم رغبة فى الملك الهاشمى عليهم، فنصبوا له الفخاخ بدعوته إلى التملك عليهم، وهى الرشوة والخطة المكشوفة التى ما كان لها رد أبلغ من قول النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ :

(٢٨) أحمد عباس صالح: الصراع.. سبق ذكره، ص ٢٦.

(٢٩) بشأن عبدالمطلب وعقيدته انظر: سيد القمنى، الحزب الهاشمى، سبق ذكره، ص ٤٥ : ٥٤.

«والله، لو وضعوا الشمس فى يمينى ، والقمر فى يسارى، على أن أترك هذا الأمر أو أهلك دونه، ما تركته».

وهكذا بدا واضحاً أن الملأ لم يعوا المقاصد الكبرى للدعوة، ودورهم الممكن فيها، إزاء رؤية قاصرة، تقف عند حدود المصالح الآنية الأنانية المرحلية، ولم يتجاوزوا المنافع الضيقة لنفر معدود، التى تحققها التعددية الربوبية القبلية، ولم تتسع رؤيتهم لتستطلع الاتجاه التاريخى لمسار حركة التطور العام للحراك الاجتماعى العربى، ولم تع إطلاقاً أن ذلك الحراك هو تطور على درجة أعلى لمستقبلها كطبقة، تشكل نواة لشريحة كبرى، يمكنها أن تلعب دوراً كبيراً فى الفرز المرتقب للتشكيل التاريخى.

نعم لم يدرك الملأ أنهم الطبقة المؤهلة لقيادة الدولة، وأن قريشاً هى الفريق المؤهل لرئاسة حركة كبرى - وهو ما سيحدث بالفعل بعد ذلك - ولم يدركوا أن مصلحة الطبقة جميعاً على المستوى البعيد، مع التوحد فى دولة مركزية، تكون نواتها وعاصمتها مكة، تحت راية إله واحد فرد، يشكل الوحدة الجامعة الأيديولوجية، وتحت زعامة نبى عربى واحد موحد، لكن ذلك لا ينفى إدراك بعض عقلاء القوم - بوعيهم النافذ وحنكتهم وحكمتهم ودربتهم - للأمر العظيم، وهو ما يمثله موقف أكثر رجال الملأ حكمة وجلالاً (عتبة بن ربيعة)، ذلك العجوز الخبير الداهية، بعد أن التقى بالنبى - صلى الله عليه وسلم - وأدرك الأهداف الكبرى للدعوة، فهب ينادى قريشاً:

يا معشر قريش، أطيعونى واجعلوها بى، وخلوا بين هذا الرجل وما هو فيه فاعتزلوه، فوالله ليكونن لقوله الذى سمعت منه نبأ عظيم، فإن تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم، وإن يظهر على العرب، فملكه ملككم، وعزه عزكم، وكنتم أسعد الناس به[٣٠].

وضاع كلام عتبة، وسط ضجيج الحمية للمصالح الأنانية الضيقة، وتراكم خطأ حسابات الملأ، مما دفع إلى خطوات أخرى، ومتغيرات أخرى، وبالتدقيق، يمكن قراءة دوافع ذلك الخطأ الأساسى وكشفه، والذى يكمن برأينا، فى مجاهرة النبى بضرب المصالح الآنية الأنانية لأطماع

(٣٠) ابن هشام: السيرة النبوية، تحقيق طه عبدالرءوف، ومحمد محيى الدين عبدالحميد، دار الكتاب العربى، ١٩٦٧، بيروت، ج ١، ص٢٣٨، ٢٤١.

الملأ التى لا تتوقف، بدءاً بضرب التعدد الربوبى القبلى، بهدف التوحيد الآتى، وإعلانه كفران قريش، وسلبها لقب (أهل الله)، ومخاطبته إياها بالقول: ﴿قل يا أيها الكافرون * لا أعبد ما تعبدون﴾ (١، ٢/ الكافرون)، ثم تسفيهه لمعتقداتها وعقائد العربان، الذين هم أشد كفراً، باتباعهم أرباباً وأسماء سموها ما أنزل الله بها من سلطان.

ثم ما كان أكثر نكاية للملأ، برفض الدعوة لقواعد التجارة السارية، بعد أن خبر النبى فى تجاربه السابقة وتجارته، ما تؤدى إليه هذه القواعد من تعطيل وتجميد للحركة التجارية، عند حدود المكاسب الأكثر عائدية للأرستقراطية المكية وحدها، فقام يهاجم كنز الذهب والفضة وتعطيلهما عن أداء دورهما فى التنمية الاقتصادية والاجتماعية، وتنديده بلا هوادة بالربا والمرابين لدورهما فى سحق صغار التجار، بغرض تركيز الثروة بيد فئة لا تؤدى للمجتمع خدمات منوطة بوضعها السيادى، ثم ما يؤدى إليه الربا فى النهاية من استرقاق المدين، وهو ما يلقى بأيد مسحوقة لعمل غير مأجور، وكان لابد أن يسفر الأمر عن جفوة فعداء جهير، أدى بالنبى - صلى الله عليه وسلم - إلى وجهة أخرى مرحلية، على خطوات الطريق الاستراتيجى الطويل، تحول بموجبها نحو المستضعفين وهم دوما مادة الحروب لمصالح الطبقات المسيطرة ومادة الانتقال الثورى لمصالح طبقة غيرهم والمعدمين والعبيد، يدعوهم إلى النسب، وامتلاك كنوز كسرى وقيصر، التى تتضاءل أمامها كنوز الملأ، وإلى الشرف والكرامة، لتشكيل نواة أولى لأمة جديدة واحدة من دون الناس.

وتبع تلك الخطوة متتابعات سريعة، فتم تكثيف الهجوم المباشر على الأثرياء، وتوعدهم بسوء المآل، حتى أسفر الهجوم أحياناً عن ذم الثروة فى ذاتها، مع وعيد وإنذار بعذاب مقيم، لمن يمارسون قواعد تجارية يجب تجاوزها، ومن أجل سيولة ونضوج أفضل، يسمحان بإشراك المجتمع كله فى الحركة الاقتصادية، فكان الهجوم على آكلى أموال اليتامى والمساكين، وعلى احتكار مواد المعيشة الأساسية، واستغلال الأرستقراطية لحاجة الناس من أجل ربح أقصى، فسفّه أمر من جمع المال وعدّده متصوراً أن ماله أخلده، غير عالم أن خلوده سيكون بالنبذ فى الحطمة، نار الله الموقدة، مع النذير للمطففين الذين ما أغنى عنهم مالهم وما كسبوا.

وعلى الجانب الآخر، كانت البشرى للمستضعفين، بأنهم بانضوائهم فى الأمة الجديدة، سيحلون محل الملأ، وذلك باعتصامهم جميعاً بحبل الله، وهو ما سيجعل هناك فرقاً بيّناً بين تكوينهم المجتمعى، وتكوين الذين تفرقوا واختلفوا قبائل وعشائر شذراً مذراً بعد ما جاءتهم البينات،

وهو ما سيترتب عليه حتماً تنازع هؤلاء وفشلهم وذهاب ريحهم، ومن ثم كان إعلان الوحي بالنتيجة المحتمة، والخطط المعدة للدولة الواحدة، في قوله:

﴿ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين﴾ (٥/ القصص).

فالمستضعفون، هم من سيشكلون مادة الأمة الطالعة، وهم من سيكونون الأئمة والقادة، وهم من سيرثون سيادة الملأ وحكومته، والسبيل أمة جديدة، تقوم على مبدأ جديد، واحد لا يفرق يجمع أصحاب المصلحة في التغيير في مصهر واحد، عبرت عنه الآيات الكريمة بقولها:

﴿... أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه﴾ (١٣/ الشورى).

ومع ذلك المنحنى المرحلي - وإن كان أساساً جوهرياً في أسس الدولة - تفتحت الآمال أمام المستضعفين، فبدأوا يتذارفون فرادى إليها، دون قبائلهم وعشائرهم، مما جعل دخول كل منهم في المنظومة الجديدة، وتركه ولاءه القبلي، سهما يطلق على جسم النظام القبلي، وكان تحول العبد عن سيده إلى جماعة المسلمين، يعني شراءه من قبل المسلمين لصالح الجماعة وإعتاقه ومنحه حريته، وهي الصورة التي اجتذبت أفئدة العبيد إلى جماعة لا تفرق في تشكيلها بين سيد وعبد، ولا ابن قبيلة وأخرى، إلا بمدى طاعته لقواعد الجماعة، التي قررها الوحي، فكان الإضعاف الإسلامي في تلك المرحلة للقبيلة، بإحلاله الولاء لجماعة الإسلام محل أي ولاء آخر، وهو ما تم تدعيمه بالانتماء الفردي في علاقة المسلم بالنبي وبالله، وهو ما ساعد على مزيد من انهيار الولاء للقبيلة، ودعا إليه الوحي بقوله:

﴿ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولي قربى من بعد ما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم﴾ (١١٣/ التوبة).

وكان القرار بأن الدولة ستقوم على نظام اجتماعي جديد، يميزها كأمة أخرى تماماً دون بقية الأعراب، هو ما أفصحت عنه أبلغ إفصاح، الصحيفة التي عقدت بعد ذلك بسنوات، بعد الهجرة إلى يثرب، والتي قررت أول مبدأ للأمة الموحدة، معبرة عن التجمع الحضري الكيفي، المتجاوز للتجمع القبلي الكمي، في نص مضيء في مبتداها يقول:

هذا كتاب من محمد النبي، بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب، ومن تبعهم وجاهد معهم، أنهم أمة واحدة من دون الناس[٣١].

---

(٣١) السهيلي: السيرة النبوية بشرح السهيلي في كتاب (الروض الأنف...) سبق ذكره، مج ٢، ص ٢٤١.

يثرب قبل الهجرة

خرجت قريش إذن ـ بعدائها للدعوة ـ عن قواعدها التى سنها الملأ، وقعّدها الأسلاف منذ (قصىّ)، فى حرية الاعتقاد، التى كانت تكفل سيولة الحركة التجارية، وتضمن اكتظاظ الأسواق بالرواد على مختلف الملل، ومن ثم أفصحوا عن رفض مبرم للدعوة الجديدة ولصاحبها، واحتسبوها ـ عن غفلة ـ حلقة فى تكتيك البيت الهاشمى، لصالح إمساكه بعنان السلطة وإلغاء سلطة الملأ، مما أدى بصاحب الدعوة إلى يأس مطبق من إفهام تلك الرؤوس المكية الصلبة. ولم يبق سوى البحث عن مكان آخر بعيداً عن مكة.

ولما كانت الأرض قد مهدت سلفاً، ببرمجة هاشم فى تحالفه مع أهل الحرب والدم والحلقة فى (يثرب)، وزواجه من البيت الخزرجى، وما تبعه فيه عبد المطلب بن هاشم بزواج آخر يصادق على الحلف، فقد كانت الخئولة اليثربية، مدعاة للمراهنة على نواة أخرى للدولة المقبلة خارج مكة فى (يثرب)، المدينة المنافسة الحقيقية لمكة.

ومعلوم أن علاقة مكة بيثرب كانت علاقة تنافسية، لكن مع اختلاف عميق بين كليهما فى التشكيل الاقتصادى والاجتماعى، فبينما كانت التجارة هى عصب الاقتصاد المكى، فإن أعمدة الاقتصاد اليثربى قد أضافت إلى عماد التجارة، وزراعة الكروم والحبوب، وكانت حبوب يثرب غذاء استراتيجياً لأهل مكة، هذا مع نشوء الشكل الحرفى حيث تعاظمت صناعة السلاح إلى حد كبير، وحققت اكتفاءها الذاتى، مع فائض جيد للتصدير، من سيوف ودروع وجحف ورماح وسهام، ولباس حرب من خوذ للرأس لا تظهر غير عينى المحارب، ودروع ذات سمات رومانية تغطى الجسد كله.

أما الشكل المجتمعى، فرغم أنه كان أميل إلى الاستقرار كنتيجة مباشرة لحرفة الزراعة، فإنه كان أقرب إلى القبلية المضطربة، نتيجة التكوين الهجين لعناصر ذلك المجتمع، لوجود عنصر غير أصيل العروبة والاعتقاد، مثلته ثلاث قبائل يهودية كبرى، هى قينقاع والنضير وقريظة، بينما مثل العنصر العربى، قبائل نازحة من اليمن، هى قبائل الأوس والخزرج، الذين حلوا على يهود يثرب، ولم يجد اليهود فى وجودهم غضاضة، بل على العكس، وجدوا فيهم تنشيطاً للاقتصاد اليثربى، وكأى تاجر سلاح، كان لابد من دسائس، تؤدى إلى صراعات تورث الضغائن والثارات، بين الأوس والخزرج، لمزيد من التنشيط الاقتصادى.

وقد أدى ذلك الوضع بيثرب قبل الهجرة، إلى صراعات قبلية كادت تمزقها، مما جعلها

فراغاً من السلطة السياسية، مقارنة بالملأ المكى، وهو ما كان يزيد فى ترجيح كفة اليهود الأثرياء، أما العداء بين يثرب ومكة، وخاصة بين عرب يثرب وعرب مكة، قد تأصل بفعل غياب دور يثرب فى مصالح مكة، فرغم وقوع يثرب على طريق الإيلاف الشامى، فإن حكومة الملأ القرشى لم تسع إلى عقد أى لون من التحالف المصلحى، الذى يمكن أن يعود على عرب يثرب بفائدة، اعتماداً على التمزق الداخلى ليثرب، الذى كان كفيلاً بشغلها عن مكة وتجارتها، بل وساهمت حكومة الملأ القرشية فى إضرام جذوة النار بين الأوس والخزرج، فوقفت إلى جوار الأوس يومى معبس ومضرس[٣٢]، حتى أوشكت عرب يثرب على انهيار تام، بحيث أسقطتها قريش، وخاصة كبار تجارها الأمويين، من معادلتها التجارية، هذا ناهيك عن العداء على المستوى النفسى، والذى كان سببه حرفة الزراعة، التى كان المكى يعيبها ويحتقرها، ويعتبرها مطعناً فى الرجولة، والرد النفسى الطبيعى على ذلك، من كراهية يثربية، لتلك النزعة المتعالية من عرب مكة، وهو الحال الذى تصوره بليغاً، قولة (أبى الحكم عمرو بن هشام أبو جهل)، ولوعته وعظيم أسفه، عندما شارك اليثارية فى قتله، فى وقعة بدر الكبرى: «لو غير أكار قتلنى ؟!»[٣٣]. والأكار هو الزارع.

ومن هنا كان التحالف بالمصاهرة بين الخزرج والهاشميين، ثم استقبال الخزرج لابن أختهم الهاشمى وصحبه، رداً لجرح تؤججه ذكرى معبس ومضرس، واستشفاء نفسياً، واستجلاباً لوضع أهملته قريش، وأسقطته من حسابات الإيلاف، واستشرافاً لوعد نبوى، استقبله الوعى اليثربى النفاذ، بوحدة تلم الشمل، لتقف يثرب كمنافس له شأن أمام الملأ المكى، وربما كعاصمة لدولة كبرى مع مداولة الأيام.

ومن جانب آخر، أدت حرفة الزراعة إلى سمة ميزت يثرب، فقد كانت دوماً فى حالة حذر من القبائل الضارية حولها، خوفاً على المحصول من السلب، ومن هنا كان الإكثار من إقامة الحصون والآطام والصياصى فى كافة نواحيها، وما تبع ذلك بالضرورة من طبع أهل يثرب بالخبرة الحربية والجلد، وهو ما تمرس عليه أهلها لكثرة ما جرى بينهم من حروب داخلية، أو حروب مع جيرانهم، فكانوا بالمقارنة مع أهل مكة أفذاذ حرب وأهل عدة وسلاح، حتى عرفهم التاريخ بأهل الحرب والدم والحلقة، بينما كانت مكة قد استنامت إلى أمنها، واطمأنت بإيلافها، وترهلت بترفها، فى وقت أصبحت فيه يثرب دار سلاح ومنعة، مما جعل اليثارية رجال بأس

(٣٢) البلاذرى: أنساب.. سبق ذكره، ص ٧٠٦.

(٣٣) الحلبى: السيرة.. سبق ذكره، مج ٢، ص ٤١٩.

يعتدون بأنفسهم إلى حد عدم المبالاة التام بعداوة من يعاديهم، وأمسوا مرهوبى الجانب، ويكفى كى نعرف مدى اهتمام يثرب بالسلاح، أن نقرأ قائمة الأسلحة التى غنمها المسلمون بعد زمان من بنى قريظة، وهم بطن يثربية يهودية لم تكن أقوى البطون، فكانت مخلفاتهم ألفا وخمسمائة سيف من نوع سيوف داود المشهورة بقوتها وصرامتها، وألفى رمح من رماح يثرب التى رددت عنها أشعار العرب الكثير، وألف وخمسمائة ترس وجحفة، وثلاثمائة درع ملبّس، أما القسى والسهام فقل فى عددها ما تشاء[٣٤]، وإذا أضفنا إلى ذلك كله ما توفر ليثرب من ماء وغذاء إلى حد الاكتفاء الذاتى، أدركنا ما تملكه يثرب من ممكنات الصمود الحربى، وهى كلها اعتبارات لا شك كانت معلومة لصاحب الدعوة، أما قيمتها الكبرى فكانت تتمثل فى وقوعها على عصب طريق الإيلاف الشامى.

المستوى الفكرى

أما على المستوى الفكرى، فكان واضحاً أن يثرب فى اختلاف كبير عن مكة، حيث أدت عوامل عدة، إلى تكون الفكر اليثربى بألوان جد مخالفة للفكر المكى، فبينما كان الفكر المكى قد تجاوز مجموعة العقائد القديمة على مستوى جدية الاعتقاد وصدق الإيمان، وتحولت العقائد عنده إلى أداة يمكن تخديمها لصالح المكاسب التجارية، وتحولت قصص السالفين من أبطال وأنبياء، إلى أساطير الأولين، فإن وجود اليهود فى يثرب، مع كتابهم المقدس، وحكاياتهم عن قدامى أنبيائهم، وسلوكهم وفق شرائع محددة وضعها أولئك الأنبياء، وضع التاريخ الدينى، والنبوى منه تحديداً، موضع احترام بين عرب يثرب، ناهيك عن النبوءة التوراتية المتواترة، عن مجىء نبى آخر الزمان، ليقيم لليهود دولتهم الغابرة، التى سقطت وانتهى أمر يهودها بالشتات من فلسطين عام ٧٠م على يد الرومان، وهو ما وجد فيه اليثاربة العرب عند ظهور الدعوة الإسلامية إنباءً بالنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان مخبوءاً فى رحم التوراة القديم، لكن مع تحليل جديد، فى ضوء المعنى الأممى الذى خرج بالنبوة عن دائرة بنى إسرائيل الضيقة، وعن العنصرية اليهودية المتزمتة، إلى آفاق رحبة، تستوعب فكرة عدم عنصرة النبوة وتجنيسها، وخروجها عن اليهود إلى الأمم، فكان الرسول أمياً، من الأمم، غير يهودى، عربى، زعيماً

(٣٤) د. أحمد إبراهيم الشريف: مكة والمدينة فى الجاهلية وعهد الرسول، دار الفكر العربى، ط ٢، القاهرة، ص ٣٥٠.

للعرب، ومؤسساً لديانة عالمية، وليس حكراً على بنى إسرائيل، ودولتها الغابرة، أو المقبلة فى حلمها التوراتى.

ثم كان التوحيد التوراتى، مدعاة لاختلال عرب يثرب بالوثنية، مما هيأهم لقبول فكرة التوحيد، والإقبال عليها عندما جاءت عربية، يدعو إليها نبى عربى، يفاخرون به اليهود الذين طالما تفاخروا عليهم بتاريخهم النبوى، وكتابهم المقدس. هذا فضلاً عن تواضع النضوج الاقتصادى والاجتماعى فى يثرب، مقارناً بما حدث فى مكة، فبينما أصبحت الأفكار الدينية فى مكة وسيلة لمزيد من الارتزاق، فإن العكس كان عند عرب يثرب، حيث كانت الحرمات التى فرضها السلوك اليهودى، تمهيداً طيباً لقبول عقيدة إيمانية توحيدية، ليس فقط لتحقيق أهداف بعينها، بل بنفوس تأثرت بالتراث الدينى التوراتى حولها، مما جعلها أكثر قبولاً لتصديق الدعوة وتقديس الإيمان، هذا إضافة إلى الثراء الفكرى، الذى صاحب ذلك المناخ، وسببته متاخمة يثرب للمناطق الحضارية العريقة فى الشمال، على حدود الامبراطوريتين الفارسية والرومانية.

الهجـــرة

وإعمالاً لكل تلك الظروف، يمكننا أن نقرأ ببعض الوعى، لقاء العقبة الأول والثانى بين رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وبين نقباء يثرب، لنرى فيه وثيقة ميلاد الدولة وهى تدون فى التاريخ، باتفاق بين أخوال النبى اليثارية، وبين النبى الأمين، والتى ظهرت فى البدء كما لو كانت مجرد اتفاق دفاعى عن شخص النبى، حيث كان النبى فى مكة ممتنعاً ببيته الهاشمى ممن عاداه وخالفه، وكان معنى الاتفاق على الهجرة إلى الأخوال، هو الانتقال إلى حمى جديد، يرفع الضغط عن الأعمام، فى شكل يظهر كلون من الحماية، وكان للأحداث دلالتها الصادقة، التى تنطق بمدلولاتها فى ذهاب (العباس بن عبد المطلب) عم النبى، وهو بعد على دين قومه، مع ابن أخيه، للقاء اليثارية سراً فى العقبة الثانية، وهو لم يذهب ـ فيما يقول (الطبرى) ـ «إلا لأنه أحب أن يحضر أمر ابن أخيه ويستوثق له»، وكان هو أول المتكلمين، فى هذا الاجتماع التأسيسى، فقال:

> يا معشر الخزرج، إن محمداً منّا حيث قد علمتم وقد منعناه من قومنا، ممن هو على مثل رأينا فيه، فهو فى عزة فى قومه، ومنعة فى بلده، وقد أبى إلا الانحياز إليكم واللحوق بكم، فإن كنتم وافين له بما دعوتموه إليه،

ومانعيه ممن خالفه، فأنتم وما تحملتم ذلك، وإن كنتم مسلميه وخاذليه بعد خروجه إليكم، فمن الآن دعوه، فإنه فى عزة فى قومه، ومنعة فى بلده[٣٥].

لكن الواضح بما لا يقبل جدلاً، أن فكرة الحرب والنية عليها، كانت قائمة ومبيتة فى ذلك التحالف، وقد وعاها الأنصار جيداً، حتى قالوا:

بايعنا يا رسول الله، فنحن والله أهل الحرب والحلقة ورثناها كابراً عن كابر.

ولما اعترض (أبو التيهان الأوسى) الأمر بقوله:

يا رسول الله، إن بيننا وبين أقوام حبالاً وإنا لقاطعوها، فهل عسيت إن أظهرك لله أن ترجع إلى قومك وتدعنا.

فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ:

بل الدم الدم والهدم الهدم، أنا منكم وأنتم منى.. وبعد المبايعة قام الرجال لينصرفوا، بينما قال (عبادة بن الصامت) للنبى: إن شئت لنميلن غداً على أهل منى بأسيافنا...

فكان رد النبى، بتأجيل الإمالة بالسيف، وتحديد من سيميل عليهم السيف، إلى ما بعد الهجرة، بقوله:

لم نؤمر بعد[٣٦].

والواضح إذن أن اللقاء التأسيسى **كان حلفاً محارباً وليس حلفاً دفاعياً** عن النبى، وأن الحرب كانت هى القائمة، وكانت هى البند الأساسى، من أجل الهدف الأعظم، قيام الدولة الكبرى.

وبالفعل تمت الهجرة إلى يثرب، ولم يجد العنصر اليهودى فى يثرب أية مشكلة فى استضافة الخزرج لابن أختهم وصحبه، واحتضانهم لدعوتهم، تأسيساً على موقف عملى تكسّبى، أدى إليه نجاحهم السابق فى احتواء الهجرة اليمنية (الأوس والخزرج)، وتوظيفها لصالح مزيد من

---

(٣٥) الطبرى: تاريخ الرسل والملوك، دار المعارف، د. ت، القاهرة، ج ٢، ص ٣٦٥.

(٣٦) البيهقى: دلائل النبوة، تحقيق د. عبدالمعطى قلعجى، دار الكتب العلمية، ١٩٨٨، بيروت، السفر الثانى، ص ٤٤٧، ٤٤٨، ٤٥٤.

المكاسب، وترويجاً لصناعاتهم الحربية، وضعف المهاجرين الظاهر الذى لا يشكل أى خطر، وهى عوامل دعت للاطمئنان، وإمكان احتواء هذا الوافد الجديد، وهو الموقف الذى دفعت إليه وأذكته الآيات الكريمة التى سبقت الهجرة فى الوصول إلى يثرب، تتحدث عن مكان بنى إسرائيل فى التاريخ السياسى للمنطقة (مملكة داود وسليمان)، ومكانتهم فى التاريخ الدينى (مجموعة الأنبياء من نوح إلى إبراهيم وإسحق ويوسف وموسى... إلخ)، بصياغة تكريمية عظيمة، تقدم احتراماً واضحاً أيضاً للتوراة اليهودية، كما فى قولها:

- ﴿إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور﴾ (٤٤/ المائدة).

- ﴿... إنى رسول الله إليكم مصدقاً لما بين يدى من التوراة﴾ (٦/ الصف).

هذا مع الاحترام حتى للتفاصيل التوراتية الصغيرة، وأخذها بالاعتبار، والإشارة إليها فى الآيات، كتابوت الإله اليهودى (يهوه)، وكتابة الله لألواح موسى.. إلخ، ثم الموقف العملى للنبى عند وصوله يثرب، حيث استقبل قبلة اليهود فى الصلاة، بل وصام الغفران، ثم عقد الصحيفة مع اليهود، للتعاون والأمن والدفاع المشترك مع كفالة حرية الاعتقاد التامة، مع إعلان عن عدم التناقض الاعتقادى، وهو ما تنطق به آيات كثيرة منها:

- ﴿وهو الحق مصدقاً لما معهم﴾ (٩١/ البقرة).

- ﴿وهو ربنا وربكم ولنا أعمالنا ولكم أعمالكم﴾ (١٣٩/ البقرة).

وكان ذلك بالنسبة ليهود يثرب، لوناً من ممكنات مستقبلية، تحول مركز الجزيرة وقلبها عن مكة إلى يثرب، وما سيعود نتيجة ذلك من منافع عظيمة، ومكاسب مادية جمة.

لكن الغنى عن الذكر هنا، أن يهود يثرب وهم يهيئون أنفسهم للكسب، اكتشفوا - خاصة بعد بدر الكبرى - خطأ حساباتهم القاتل، حيث تحدد الموقف تماماً بعدما كسبه المسلمون فى بدر من قوة مادية ومعنوية، لم تجعلهم فى حاجة إلى مثل ذلك التحالف النفعى، حيث أثبت التجار المهاجرون حذقاً وحنكة بحكم الدربة والخبرة، مما جعلهم منافسين أقوياء ليهود يثرب، وقد دعم ذلك النجاح التجارى، ما لحق بأساليب المهاجرين التجارية من تهذيب قننه الإسلام، بحيث تناقضت مع طرائق اليهود الشبيهة بأساليب الملأ المكى، من احتكار للسلع، والمغالاة فى الكسب، مع الكسب الربوى الذى بات محرماً فى قوانين الدولة الجديدة.

وهنا تأتى المرحلة الثالثة من مراحل تكون الدولة الإسلامية، بعد المرحلتين: الأولى بظهور

السلطة النبوية فى مكة، والثانية المتمثلة فى بيعة العقبة الثانية، أما الثالثة فهى الواقعة بمجمل أحداثها ما بين الهجرة إلى المدينة وبين غزوة بدر الكبرى، كما ستبينها الأحداث التالية.

وفى بداية المرحلة الثالثة من مراحل تأسيس الدولة، وحتى يصبح ممكناً حل إشكاليات الفرقة القبلية بين الأوس والخزرج، قام النبى - عليه الصلاة والسلام - بتأمين الحد الأدنى من التآلف الداخلى، بمصالحة الأوس والخزرج، ثم مؤاخاة المهاجرين والأنصار، أما على المستوى الإيمانى فقد صارت الأخوة الإسلامية ضرباً للفرقة التى سببتها العصبية القبلية، بحيث صار خارجاً على جماعة المؤمنين من فضل أخيه فى القبيلة والعشيرة، على أخيه فى الإسلام، وهو ما نشهد له نماذج بالغة القوة، ربما كان أبلغها ما أضاء تحت غبار وقعة بدر الكبرى، فبينما كانت قريش تخشى إراقة دم أحد من أبناء العم أو الخال من المهاجرين، كان المسلمون يحاربون غير هيابين ولا مبالين فى هذا السبيل بأحد من الأقارب، وهو ما عبرت عنه الآيات الكريمة بقولها: ﴿لو أنفقت ما فى الأرض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم﴾ (٦٣/ الأنفال).

ويحكى ابن هشام فى سيرته «أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - حين أقبل بالأسارى من بدر، فرقهم بين أصحابه... وكان أبو عزيز بن عمير أخو مصعب بن عمير فى الأسارى، فقال أبو عزيز: مرَّ بى أخى مصعب بن عمير، ورجل من الأنصار يأسرنى، فقال شد يدك به، فإن أمه ذات متاع ولعلها تفتديه منك... فقال له أبو عزيز: يا أخى هذه وصاتك بى؟! فقال مصعب: إنه أخى دونك»[٣٧].

أما المدى الذى بلغه أمر تلك الأممية والأخوة الدينية، فيظهر واضحاً فى رد (أبى حذيفة بن عتبة) على النبى - صلى الله عليه وسلم - وهو يوصى قبل معركة بدر مباشرة: «من لقى منكم أحداً من بنى هاشم فلا يقتله... ومن لقى العباس بن عبد المطلب فلا يقتله»، فكان رد (أبى حذيفة) الذى لا يستثنى من الأممية أحداً «أنقتل آباءنا وإخواننا وعشائرنا ونترك العباس؟ والله لئن لقيته لألحمنه السيف»[٣٨].

والأمثلة كثير، سردها إطالة لا حاجة لها، لكن الدرس المأخوذ هنا، هو أنه بينما كانت مكة تتفكك قبلياً لصالح الشكل الطبقى، كانت يثرب تتوحد إيمانياً وطبقياً، وتذوب فى مستوى مادى متقارب، كناتج للتوزيع العادل للغنائم، لتشكل نواة الدولة المقبلة.

---

(٣٧) السهيلى: شرح السيرة.. سبق ذكره، مج ٣، ص ٥٤.

(٣٨) البيهقى: دلائل.. سبق ذكره، ج ٣، ص ١٤٠، ١٤١.

مكة والحصار

تمكن إذن النبى العربى - صلى الله عليه وسلم - من تسكين أوضاع يثرب الداخلية، خاصة بعد إعطائه مركز الزعامة لسعد بن معاذ زعيم الأوس، حتى لا تحتسب عليه مظنة موالاة أخواله من الخزرج، بعد أن تمكن من تحييد زعيم الخزرج (عبد الله بن أبى بن سلول)، مما ربط الأوس بالدعوة وصاحبها، إضافة للارتباط القرابى للخزرج به، وبعد تحييد اليهود بالصحيفة، ومؤاخاة المهاجرين مع الأنصار، بدأ العد التنازلى للإجراء المقبل، وهو ما جاء فى قصة ترويها كتب السير والأخبار، عن هبوط كبير الأنصار (سعد بن معاذ) إلى مكة، فى رحلة تقول كتب السير إنها كانت - فقط - لأداء العمرة، حيث نزل ضيفاً على صديقه (أمية بن خلف)، أحد أشراف قريش وسادتها.

> فنزل سعد على أمية بمكة، وقال سعد لأمية: انظر لى ساعة خلوة، لعلى أطوف بالبيت، فخرج به قريباً من نصف النهار، فلقيهما أبو جهل فقال: يا أبا صفوان؛ من هذا معك؟ قال: هذا سعد، قال له أبو جهل: ألا أراك تطوف بمكة آمناً، وقد آويتم الصباة، وزعمتم أنكم تنصرونهم وتعينونهم؟ والله لولا أنك مع أبى صفوان، ما رجعت إلى أهلك سالماً. فقال له سعد - ورفع صوته عليه -: **أما والله لئن منعتنى هذا، لأمنعك ما هو أشد عليك منه، طريقك على المدينة**[٣٩].

وهكذا كان الاختبار، وهكذا كان الرسوب، ورسب أحد كبار رجالات الملأ بجدارة، لأن تحريم أمن البيت وزواره، كان تأميناً لكل الملل والنحل، من أجل أمن التجارة وسيولتها وتدفقها مع زوار مكة، وكان تهديد أبى الحكم لسعد كبير عرب يثرب الجديد، إنما يعنى أن قريشاً قد بدأت تفقد أعصابها، ومع فقد الأعصاب تضيع المصالح، فقامت تهدد - بموقف أبى الحكم وتهديده لسعد - مصالحها التجارية بيدها.

أما الأمر الذى لا يفوت على لبيب، فهو الإنذار المتضمن فى رد سعد لملأ مكة بما هو آت، من حصار اقتصادى يقطع عليها الطريق إلى الشام، ولعل تلك العمرة التى أداها (سعد بن معاذ) - على الطريقة الوثنية، وطقوس الشرك، والتى لم يكن الإسلام قد أقرها بعد، ولم يكن قد طهرها

(٣٩) الحلبى: السيرة.. سبق ذكره، مج ١، ص ٣٧٨.

من أدران الجاهلية وأصنامها - لم تكن مجرد مصادفة، خاصة إذا ما تذكرنا أن قبلة المسلمين كانت آنذاك إلى بيت المقدس.

وهنا نستكشف الأساس الرابع من الأسس التى قامت عليها الدولة، بعد الأسس الثلاثة المتمثلة فى السلطة النبوية والسلطة السيادية الإلهية، وتكوين جماعة تضامنية أولى كنواة تأسسية للدولة، ويظهر الأساس الرابع للدولة فى تحول الجماعة الإسلامية إلى جيش متكامل، أى تجييش مادة الدولة، وتحولها من مستضعفين مهاجرين - إلى وحدة أو دولة عسكرية مقاتلة. والآن، لا يجب أن نفاجأ عندما نجد يثرب ترسل سراياها لقطع طريق الإيلاف، هذا ما يجب تذكره من أمرين كانا بداية الضغط على الملأ المكى، الأول هو منع يثرب قمحها عن مكة، أما الثانى فهو موادعة قبائل الساحل القديمة حول ميناء (الجار) على البحر الأحمر ليثرب، والذى كان يعرف أنه ميناء يثرب على البحر، ومنه تم منع شحنات القمح الوارد من مصر إلى مكة، ولم يبق سوى طريق الإيلاف الشامى خالصاً لمكة، ومن ثم دهمت دوريات المسلمين هذا الطريق دون كلل، تتصدى للقوافل القادمة إلى مكة أو الآيبة منها، وهى الدوريات التى بدأت - محددة أهدافها - مبكراً، وقبل مضى سبعة أشهر على الهجرة، حيث خرجت أولى تلك الدوريات النشطة فى سرية بقيادة (حمزة بن عبد المطلب)، لاعتراض عير لقريش، فى ثلاثين مهاجراً، لكن السرية فوجئت أن قريشاً كانت يقظة، فأردفت بقافلتها ثلاثمائة محارب بقيادة أبى الحكم نفسه، فتدخل (مجدى بن عمرو الجهنى) ليحجز بينهما وينهى الموقف، واكتفت حراسة القافلة بالانصراف إلى سبيلها، بعد أن أقنعت المهاجرين باقتدارها، وكثرة عددها وعدتها.

ولم يمض شهر على سرية (حمزة)، حتى خرجت سرية بقيادة (عبيدة بن الحارث بن المطلب) إلى (بطن رابغ) بمقاتلين من المهاجرين، فالتقوا بقافلة لقريش، يبدو أنها كانت بدورها فى حراسة جيدة، وهو ما يستنتج من عدم الاشتباك، واكتفاء السرية اليثربية برميها بالنبال عن بعد.

وبعدها بأيام خرجت سرية (سعد بن أبى وقاص) إلى الخرار، ليلحق بقافلة لقريش، ولم يتمكن من اللحوق بها، وكانت بدورها لا تحوى فى مقاتليها سوى رجال من المهاجرين.

ومن ثم خرج المصطفى - صلى الله عليه وسلم - بنفسه غازياً على طريق الإيلاف، بقصد تفكيك الإيلاف والولاء القبلى لقريش، وهناك تمكن من سلخ إيلاف بنى مدلج عن قريش، وأخذ عليهم عهود الموادعة بعهد مكتوب، ثم لم يلبث سوى عشر ليال حتى أغار النبى - صلى الله عليه وسلم - يريد (كرز بن جابر الفهرى)، لكنه لم يدركه، وهى الغزوة المعروفة بغزوة (بدر

الأولى)، لوقوعها على طريق وادى سفوان قرب بدر، وفى صفر، مع نهاية العام الأول للهجرة، خرج - صلى الله عليه وسلم - فى رجاله من المهاجرين إلى مواضع أخرى على طريق الإيلاف، ليفكك عقود بنى ضمرة بن بكر من كنانة عن قريش، ويعقد معهم عقود الموادعة والتحالف بعهد مكتوب(٤٠)، وفى ربيع أول أرسل (عبيدة بن الحارث) على رأس سرية من المهاجرين حتى بلغت (ماء إحياء) للاستيلاء على قافلة لقريش، لكن السرية عادت دون قتال، بعدما وجدته من حراسة مشددة مع القافلة، ومع بداية العام الثانى للهجرة لأيام خلت منه، غزا النبى - صلى الله عليه وسلم - يريد عيراً لقريش فيها ألفان وخمسمائة بعير، ولم يحدث هذه المرة أيضاً أى قتال وحتى الآن كان واضحاً أن الأنصار كانوا مجرد مضيفين، لا يخرجون إلى قتال أو قطع طريق(٤١).

ثم جاء أخطر إنذار تلقاه ملأ قريش، عندما قامت سرية من تلك السرايا، بضرب الإطار التحريمى للأشهر التجارية الحرام، وهى سرية (عبد الله بن جحش)، التى لقيت عيراً لقريش فى (نخلة)، فقتلت (عمرو بن الحضرمى) أحد رجال القافلة، وأسرت رجلين، واستولت على القافلة، وهو ما دفع قريشاً للجأر بالشكوى تصيح: إن محمداً وأصحابه قد استحلوا الأشهر الحرم وسفكوا فيها الدم وسلبوا الأموال وأسروا الرجال(٤٢).

وهنا جاء رد الآيات الكريمة المفحم، يحمل أكثر من دلالة، حول مفهوم الأشهر الحرام، وقيمة ذلك التحريم أساساً، ومدى قناعة القوة اليثربية الطالعة بتلك القيمة، وأخذها على مأخذ الجد من عدمه، خاصة بعد أن أكثر الناس الكلام عن استحلال أصحاب محمد للشهر الحرام، ثم أن الرد حمل أيضاً تحديداً واضحاً لمن أصبح بيده الأمر، وبإمكانه التحليل والتحريم، ناهيك عن قيمة قريش ذاتها كراعية للأشهر الحرام، وصاحبة لقب (أهل الله)، وقيمة ذلك اللقب ومدى مصداقيته، لأن الرد كان:

﴿يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه قل قتال فيه كبير﴾ (٢١٧/ البقرة).

ولم يكن هناك رد على استصراخ قريش العريان لحرمة الأشهر الحرام، أبلغ من ذلك الرد،

---

(٤٠) ابن حبيب: المحبر، تحقيق د. إيلزة شتيتر، دار الآفاق الجديدة، د. ت، بيروت، ص ١١٠.

(٤١) الطبرى: التاريخ.. سبق ذكره، ج ٢، ص ٤٠٢ : ٤٠٧.

(٤٢) نفسه: ص ٤١٠ : ٤١٣، انظر أيضاً: محمد أبو الفضل ومحمد البجاوى: أيام العرب فى الإسلام، دار إحياء الكتب العربية، ط ٤، ١٩٦٨، بيروت، ص ٨.

لتراجع موقفها، وتضع مصالحها وهيبتها ونظامها الاقتصادى والقانونى التحريمى فى الميزان، وهو الموقف الذى بدأت قريش تراجع حساباتها بشأنه، ويأتينا خبره بلسان (صفوان بن أمية) وهو يقول:

> إن محمداً وأصحابه قد عوروا علينا متجرنا، فما ندرى ماذا نصنع بأصحابه، وهم لا يبرحون الساحل، وأهل الساحل قد وادعوا محمداً ودخل عامتهم معه، فما ندرى أين نسكن؟ وإن أقمنا فى دارنا هذه أكلنا رؤوس أموالنا، فلم يكن لنا من بقاء، وإنما حياتنا بمكة على التجارة إلى الشام فى الصيف، وإلى اليمن فى الشتاء[٤٣].

لكن الحال ـ على أية حال ـ شهد تلاحقاً فى الأحداث، تجاوز تلك المراجعة، حيث طُير الخبر إلى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى يثرب، بخبر قافلة لقريش فى طريقها إلى الشام بقيادة (أبى سفيان)، قوامها ٢٥٠٠ بعير، فيها بضائع يربو ثمنها على ٥٠٠٠٠ دينار، بدنانير ذلك الزمان، والقيمة الشرائية لنقد ذلك الزمان، ساهم فيها البيت الأموى الثرى، المعادى لبيت النبى الهاشمى، بأربعة أخماس القافلة[٤٤].

وكان ذلك الخبر مدعاة لتداعيات أخرى متسارعة، فجّرت صراعاً عسكرياً، كان مبتداه وفيصله، غزوة بدر الكبرى.

---

(٤٣) ابكار السقاف: نحو آفاق أوسع، الأنجلو المصرية، القاهرة، ج ٢، ص ١٤٥٨.

(٤٤) د. جواد على: تاريخ العرب فى الإسلام، دار الحرية، ط ١، ١٩٨٣، بيروت، ص ٧٧، ٧٨.

الباب الأول

بـــدر الكبرى

قـــــراءة أخـــــرى

حـــروب دولـــة الرســـول

جـــزء أول

باب أول

طالــــوت ومحمـــــد

﴿وقـال لهم نبـيـهم إن الله قـد بعث لكم طالوت ملكاً قــالوا أنـى يكون لـه الملك علينا ونـحن أحق بـالملك منه ولـم يؤت سـعـة من المال قـال إن الله اصطفـاه عليكم وزاده بسطة فى العلم والجـسم والله يؤتى ملكه من يشاء﴾

[٢٤٧/ البقرة]

والمثل المضروب في الآيات هنا، عن أول ملك لبني إسرائيل، رفاق الحلف الدفاعي في جماعة يثرب التضامنية، وهو الملك المعروف في العهد القديم من الكتاب المقدس باسم (شاؤول)، والوارد في آيات القرآن الكريم باسم (طالوت)، وقد اختاره لهم في الآيات (نبيهم) غفلاً من أي تعريف، وهي المعرفة التي يمكن الحصول عليها بالرجوع إلى الكتاب المقدس، حيث يلتقي ذلك النبي تماماً ويتطابق، مع شخصية القاضي الكاهن (صموئيل)، وفي سفرين باسم (صموئيل) بالكتاب المقدس، يمكنك العثور على كثير من التفاصيل بهذا الشأن، حيث تعرض الإسرائيليون - تحت حكم نظام القضاة الكهنة، وهو نظام قبلي يجمع الحكم الدنيوي مع الديني - لعدد من الهزائم، أمام سكان الساحل الفلسطيني، وكان مرجع تلك الهزائم كما هو واضح بتلك الأسفار، نتيجة استمرار النظام القبلي، الذي شتت الولاء بين اثنتي عشرة قبيلة (الأسباط)، وأوقف تطور المجتمع القبلي الإسرائيلي نحو حكومة مركزية واحدة قوية، وجعل جيشها مجموعات غير منظمة ولا موحّدة، تعود بولائها إلى متفرقات القبائل، التي ربما تعود - أو لا تعود - إلى صلات قرابية بعيدة فيما بينها.

هذا بينما كان الفلسطينيون، سكان الساحل شعباً مستقراً، ورغم انقسامه بدوره إلى مجموعة دول مدن، فإن الولاء في الدولة المدينة كان للدولة المركزية، ومركزية الملك المنظم، ومن هنا انتهى بنو إسرائيل إلى نتيجة مفادها: أن هزيمتهم تعود بشكل مباشر إلى نظامهم الاجتماعي والسياسي، وبات مطلوباً صهر تلك القبائل تحت حكم ملك واحد، ومن ثم كانت مطالبتهم العاجلة والعنيفة، لكاهنهم وقاضيهم وحاكمهم القبلي (صموئيل)، باختيار ملك لهم جميعاً يوحدهم في دولة واحدة.

وخضع (صموئيل) لضرورات الظروف، واختار لهم (شاؤول) ملكاً، ليصهر القبائل جميعاً في وحدة واحدة، وشعب واحد، بقيادة حكومة واحدة، لها جيش واحد، وبالفعل - حسبما تخبرنا رواية التوراة - تمكن (شاؤول) ومن تبعه من ملوك مباشرين (داود وولده سليمان)، من صهر تلك القبائل المتفرقة في كونفدرالية واحدة، وتمت مركزة الحكم، التي انتهت بتفوقهم على أصحاب الأرض، وإقامة الدولة المركزية[1].

والمثل المضروب في الآيات القرآنية، يطلب من المسلمين استدعاء الدلالات لقراءة واقع مماثل لقبائل متفرقة تحت حكم بدائي، ممثل في حكومة الملأ المكية، التي لم تتمكن من مركزة الولاء، كنتيجة حتمية لتفرق التمثيل القبلي بين أعضاء الملأ، الذين كانوا أثرياء البطون القرشية،

(١) الكتاب المقدس: العهد القديم: انظر سفرى صموئيل الأول والثاني، وملوك الأول والثاني.

والذين لم يمثلوا الفئات الموزعة بين القبائل تمثيلاً صادقاً، والذين ـ وهنا المهم ـ رفضوا الدعوة التوحيدية الطالعة.

لكن الآيات وهى تستدعى واقع مكة، لتلحقه بالتاريخ الإسرائيلى فى المثال المضروب، ترحل بالتساؤل المكى القرشى من رجال الملأ، ليصبح تساؤلاً من بنى إسرائيل لصموئيل: «أنى يكون له الملك علينا؟»، وهو التساؤل الاستنكارى الذى يحمل معانى جديدة، ومواصفات جديدة، يجب أن يتصف بها السيد الزعيم، وهى المعانى والصفات التى حملتها رياح التغير الاقتصادى إلى مكة، مع الثراء الفاحش الذى أصاب البعض دون الآخر، وبدأ يفعل فعله فى تفجير الأطر القبلية القديمة، ولم تعد مواصفات الزعيم كما كانت فى الماضى العشائرى، من حكمة تؤهله كى يكون رأساً للقبيلة، أو حنكة، أو شجاعة أحياناً أخرى حسب ظروف القبيلة إن سلماً أو حرباً، بل تحول الأمر بعد تشكل الطبقة الأرستقراطية المتميزة، وتغير المعيار، وتبدل أساليب القياس، وهو ما عبر عنه استطراد الآيات «أنى يكون له الملك علينا ونحن أحق بالملك منه»، وهى الأحقية التى يأتى معيارها القياسى واضحاً فى الإلحاق التوضيحى «ولم يؤت سعة من المال».

نعم، ربما كان النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ قد حاز قدراً من المال، توفر له بعد زواجه من أم المؤمنين خديجة بنت خويلد رضى الله عنها، لكن ذلك القدر من المال ما كان ليسمح له ـ فى نظر الملأ ومعاييرهم ـ بما يدعو إليه، ولا يفى له بما يؤهله لدخول حكومة الملأ الأرستقراطية، فما بالنا وهم يتصورونه يسعى للإمساك بأعنة السلطة جميعاً بيديه؟ حيث المعيار لم يعد مجرد حصول فرد على بعض المال، حتى يذهب به الطموح ـ كما تصوروا ـ إلى الجموح، فالمؤهل المطلوب قد أصبح «سعة من المال».

ومن ثم؛ كانت قراءة الواقع تشير إلى سير التطور إلى نتائجه المحتمة والضرورية، والتى ستشكل فى المستقبل المنظور، منظومة سياسية مركزية موحدة، تحت قيادة زعيم أوحد، ولم يكن ثمة توضيح يمكن تقديمه لمفاهيم الأرستقراطية القرشية، ولا للمسلمين الأوائل وهم مادة الدولة الطالعة، سوى إلقاء الحالى فى مرآة الماضى، لكن الآيات هنا ـ وهى تطابق واقع جزيرة العرب ـ تختلف عن رواية التوراة، وهى تطابق واقع فلسطين القديم، فبينما التوراة تحكى عن مطالبة الشعب الإسرائيلى نفسه للكاهن (صموئيل) بملك يوحدهم ويقود جيوشهم، فإن الآيات الكريمة تؤكد أن ذلك الملك جاء باصطفاء إلهى، وهو ما يستدعى على الفور اصطفاء المصطفى ـ عليه الصلاة والسلام ـ لكن لتفرض ذلك الملك على بنى إسرائيل ـ فى الآيات القرآنية ـ فرضاً بقرار

---

(٤) ابن كثير: البداية والنهاية، دار الكتب العلمية، ط ٤، ١٩٨٨، بيروت، ج ٢، ص١٨٧.

إلهى، وهو الأمر الذى يطابق واقع الحال المكى مع الدعوة الإسلامية، ويخالف ما جاء فى التوراة عن حال التاريخ الإسرائيلى القديم، ومن هنا؛ يتم تعشيق الماضى مع الحاضر فى المثال المضروب بقرار علوى: ﴿إن الله اصطفاه عليكم وزاده بسطة فى العلم والجسم والله يؤتى ملكه من يشاء﴾.

ضرب طريق الإيلاف

وبينما كان قمح يثرب يقطع عن مكة، وبينما سرايا المسلمين تجوب طريق الإيلاف التجارى لقطعه على مكة، وبينما الخبر عن قافلة أبى سفيان المسافرة إلى الشام، يطير إلى النبى - صلى الله عليه وسلم - فى يثرب، كان الوحى يسترسل شارحاً لوضع الحاضر مقارناً بما حدث فى الماضى، ليحفّز همم المسلمين، فيحكى لهم عن (شاؤول - طالوت)، بعد أن استقر له أمر الملك، وبدأ حملاته على مدن الساحل الفلسطينى، ﴿فلما فصل طالوت بالجنود... قالوا لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده﴾، وجالوت هنا هو (جوليات) الزعيم الفلسطينى فى رواية التوراة، لكن رواية التوراة تختلف مرة أخرى، عن رواية القرآن الكريم حيث كان ائتلاف القبائل الإسرائيلية فى مملكة واحدة، تشكيلاً هائلاً وتجييشاً لعدد ضخم من المقاتلين، ومن ثم يكون تطابق الآيات ليس مع التاريخ التوراتى كما ترويه التوراة، لكن مع واقع المسلمين والمشركين، حيث المشركون هم الأكثرية، والمؤمنون هم الأقلية، لكن الحضور الإلهى إلى جانب الحق كان كفيلاً بحسم الموقف، فالآيات تستطرد ﴿قال الذين يظنون أنهم ملاقو الله كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين﴾ (٢٤٩/ البقرة).

وإعمالاً لذلك، وحتى تتطابق الروايتان، ويتطابق الواقعان، ونبوة الحاضر المنتصر بإذن الله، بملك الماضى، يحكى (أبو أيوب الأنصارى) عندما خرجوا إلى بدر «فإذا نحن ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً، فأخبرنا النبى - صلى الله عليه وسلم - بعدتنا، فسر بذلك وحمد الله، وقال: **عدة أصحاب طالوت**»[٢].

وتحكى كتب السيرة أن النبى - عليه الصلاة والسلام - خرج يريد عير قريش المسافرة إلى الشام، ولما بلغ الموقع الذى تمت حسابات الوصول إليه من يثرب، تقاطعاً مع الحسابات المتوقعة لزمن وصول قافلة أبى سفيان إليه من مكة، وهو (العشيرة)، اكتشف المسلمون خطأ الحسابات،

(٢) البيهقى: سبق ذكره، السفر الثالث، ص ٣٧.

فالحسابات كانت إنسانية صرف، تقبل خطأ الإنسان وصوابه، ووجدوا أبا سفيان قد سبقهم بعدة أيام، وعليه تحول الموقف إلى محاولة تعويض ما فات، بالعودة إلى يثرب، وتربص موعد عودة القافلة، قافلة من الشام(٣).

ولم يطل انتظار المترقبين، فيخبرنا (ابن هشام) أن أمر القافلة قد بلغ مسامع النبى - عليه الصلاة والسلام -، «ولما سمع النبى بأبى سفيان مقبلاً من الشام، ندب المسلمين إليه، وقال: **هذه عير قريش فيها أموالهم، فاخرجوا إليها لعل الله ينفلكموها**... فانتدب الناس، فخف بعضهم، وثقل بعضهم»(٤).

وكان الرد على تثاقل بعض المسلمين عن الخروج إلى أموال قريش، عودة أخرى للقديم، تذكيراً، وتنبيهاً، وتحفيزاً، بذات المثل الإسرائيلى:

﴿ألم تر إلى الملأ من بنى إسرائيل من بعد موسى
إذ قالوا لنبى لهم
ابعث لنا ملكاً نقاتل فى سبيل الله﴾
(٢٤٦/ البقرة).

وهنا جماعة إسرائيل لا تعترض على اختيار الملك لعدم سعته من المال، بل هى تطلبه، فتتطابق هنا الروايتان القرآنية والتوراتية، لكن الحكمة تنزع الماضى من سياقه لرسم صورة الحاضر، وإتمام صياغة الرسالة، المطلوب من المسلمين إدراكها، وفهم دلالاتها:

﴿قال هل عسيتم إن كتب عليكم القتال
ألا تقاتلوا
قالوا وما لنا ألا نقاتل فى سبيل الله﴾
(٢٤٦/ البقرة).

نعم، القتال فى سبيل الله، وهو قتال - فى التاريخ التوراتى القديم - لهزيمة سكان الساحل الفلسطينى، وهى الآيات التى تستدعى القديم لحاضر يثرب، تأجيجاً لنوازع نفسية فى المهاجرين تحديداً، فتقول:

---

(٣) الحلبى: السيرة، سبق ذكره، مج ٢، ص ٣٧٤.
(٤) السهيلى: (السيرة النبوية لابن هشام)، سبق ذكره، مج ٣، ص ٣٠.

﴿قالوا وما لنا ألا نقاتل فى سبيل الله

وقد أُخرجنا من ديارنا وأبنائنا﴾

(٢٤٦/ البقرة).

إن التوراة لا تقول بخروج بنى إسرائيل من ديارهم وأبنائهم حينذاك، بل كانوا ـ حسب روايتها ـ مهاجمين لا مدافعين، محتلين وغاصبين، وهذه روايتها، وإثمها مردود عليها فى المخالفة، لكن ما نعلمه يقيناً، أن الذين أخرجوا من ديارهم مهاجرين، وتركوا أبناءهم واللوعة من أهل مكة تعتمل فى نفوسهم، هم المسلمون المهاجرون إلى يثرب، وبالطبع كان لابد أن تفعل تلك الآيات فى نفوسهم فعلها وأثرها.

هيبة الملأ

يروى (الطبرى) خبر قافلة (أبى سفيان) فيقول:

> وكان أبو سفيان حين دنا من الحجاز يتحسس الأخبار... حتى أصاب خبراً عن بعض الركبان، أن محمداً قد استنفر أصحابه لك ولعيرك... فاستأجر ضمضم بن عمرو الغفارى فبعثه إلى مكة، وأمره أن يأتى قريشاً يستنفرهم إلى أموالهم، ويخبرهم أن محمداً قد عرض لها فى أصحابه، فخرج ضمضم بن عمرو سريعاً إلى مكة(٥).

وهكذا حقب الأمر، وبدأت بدايات أفول الأمن القرشي على طريق الإيلاف الشامى، فالقافلة الآمنة، المطمئنة بالإيلاف، تضطر ـ فى سابقة خطيرة ـ إلى استنفار أهل مكة، من أصحاب المال، وبينما كانت الأحوال فى مكة على وتيرتها الرتيبة وهدوئها، وقبل وصول ضمضم الغفارى، ألقت (عاتكة بنت عبد المطلب) عمة النبى، وسليلة البيت الهاشمى، بما حرك ذلك السكون الراكد المطمئن، برواية عن رؤيا رأتها، حملها أخوها (العباس بن عبد المطلب) إلى مجلس الملأ، تقول فيها:

> والله لقد رأيت الليلة رؤيا أفظعتني... رأيت راكباً أقبل على بعير له، حتى وقف بالأبطح، ثم صرخ بأعلى صوته: ألا انفروا يا آل غدر

---

(٥) الطبرى: تاريخ الرسل والملوك، سبق ذكره، ج ٢، ص ٤٥١.

لمصارعكم فى ثلاث، فأرى الناس اجتمعوا إليه، ثم دخل المسجد والناس يتبعونه، فبينما هم حوله، مثل به بعيره على ظهر الكعبة، ثم صرخ بمثلها: ألا انفروا يا آل غدر لمصارعكم فى ثلاث، ثم مثل به بعيره على رأس أبى قبيس فصرخ بمثلها. ثم أخذ صخرة فأرسلها فأقبلت تهوى، حتى إذا كانت بأسفل الجبل ارفضّت، فما بقى بيت من بيوت مكة ولا دار، إلا دخلتها منها فلقة.

وبلغت الرواية أبا الحكم بن هشام، وربما ذهب إلى تصور ترتيب بعينه بين عاتكة وابن أخيها فى يثرب، وذلك فى ضوء إيمان عرب زمانه بالرؤيا وذهابهم فى تفسيرها التنبؤى مذاهب وقراءات وعيافة وفألاً، ثم لا جدال أنه عندما تتحدث هاشمية عن قوم بأنهم (آل غدر)، فإنها تقصد لا شك البيت الأموى المعادى، فكان أن قام يخاطب (العباس) بشأن رؤيا شقيقته، قائلاً:

يا بنى عبد المطلب، متى حدثت فيكم هذه النبية؟... أما رضيتم أن يتنبأ رجالكم، حتى تتنبأ نساؤكم؟ـ أو أما رضيتم يا بنى هاشم بكذب الرجال، حتى جئتمونا بكذب النساء ـ قد زعمت عاتكة فى رؤياها أنه قال: انفروا فى ثلاث، فسنتربص بكم هذه الثلاث، فإن يك حقاً ما تقول فسيكون، وإن تمض الثلاث ولم يكن من ذلك شيء، نكتب عليكم كتاباً، أنكم أكذب أهل بيت فى العرب[٦].

وبينما لم تكن تموجات رواية عاتكة قد سكنت بعد، على سطح الاستكانة القرشية المترفة الآمنة، وصل (ضمضم الغفارى) بعد الأيام الثلاثة «وهو يصرخ ببطن الوادى، واقفاً على بعير له، وقد حول رحله، وشق قميصه، وهو يقول:

يا معشر قريش؛ اللطيمة، اللطيمة، أموالكم مع أبى سفيان قد عرض لها محمد فى أصحابه، لا أرى أن تدركوها؟ الغوث، الغوث»[٧].

وحدث بعدها ما جاء فى رواية البيهقى «فتجهز الناس سراعاً، وقالوا: أيظن محمد وأصحابه أن تكون كعير ابن الحضرمى، كلا والله ليعلمن غير ذلك»[٨].

(٦) السهيلى: سبق ذكره، مج ٣، ص ٣٠، انظر أيضاً: الحلبى: سبق ذكره، مج ٢، ص ٣٧٦.
(٧) ابن كثير: البداية والنهاية، سبق ذكره، ج ٣، ص ٢٥٧.
(٨) البيهقى: سبق ذكره، مج ٣، ص ٣٢.

ثم يفيدنا أن (أبا سفيان) تمكن من النجاة بالقافلة، بسلوك درب آخر بقوله: «وخفض أبو سفيان فلصق بساحل البحر، وخاف الرصد، وكتب إلى قريش حين خالف مسير رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ورأى أنه أحرز ما معه، وأمرهم أن يرجعوا»[٩]. أو بتفصيل (الطبرى): «إنكم إنما خرجتم لتمنعوا عيركم ورجالكم وأموالكم، فقد نجاها الله، فارجعوا»[١٠].

لكن (أبا الحكم - أبا جهل) الذى أدرك - كواحد من رجال الملأ المقدمين - أن تهديد طريق الإيلاف، إنما يعنى تهاوى الهيبة القرشية، مما قد يدفع القبائل الأخرى إلى ذات المحاولة، وتهون قريش بين العربان، وتضيع المصالح والمكاسب، ثم ما يستتبع ذلك من فقد قريش لثقة الامبراطوريتين الرومانية والفارسية، فى القيام على شأن المواد المطلوبة فى مواقيتها، فى زمن حرب حرج، يكون فيه أى تأخير عاملاً مؤثراً وفاعلاً فى الانتصارات والهزائم، وهو ما قد يدفع إحدى الامبراطوريتين إلى ركوب مغامرة تأمين الطريق باحتلاله، وربما احتلال مكة ذاتها، وهو ما يمكن أن ينقل الصراع الامبراطورى إلى باطن الجزيرة، فما كان من أبى الحكم إلا أن نادى بعدم عودة الرجال إلى مكة، ودعاهم إلى استعراض هيبتهم أمام القبائل، باحتفال كبير، اختار له أحد أسواق العرب الكبرى، فى موقع وادى بدر، حيث الماء والخضرة، لإبلاغ العرب بدلالات الاحتفال، وأن قريشاً لم تزل قادرة على تأمين طريقها، وأنه لم يحدث شىء يعكر صفو الأمان السائد، ومن هنا قام ينادى:

> والله لا نرجع حتى نَرِد بدراً... فنقيم عليه ثلاثاً، وننحر الجزور، ونطعم الطعام، ونسقى الخمور، وتعزف علينا القيان، وتسمع بنا العرب، فلا يزالوا يهابوننا بعدها أبداً[١١].

أو برواية أخرى:

> والله لا نرجع حتى نقدم بدراً، فنقيم بها، ونطعم من حضرنا من العرب، فإن لن يرانا أحد من العرب فيقاتلنا[١٢].

وهكذا عاد الركب موجهاً نحو بدر ليقيم سمره الاحتفالى لليال ثلاث، وكانوا خمسين

---

(٩) نفسه: ص ١٠٨.

(١٠) الطبرى: سبق ذكره، ج ٢، ص ٤٣٨.

(١١) الموضع نفسه.

(١٢) البيهقى: سبق ذكره، ص ١٠٨.

وتسعمائة، وقيل كانوا ألفاً، وقادوا مائة فرس.... معهم القيان... يضربن بالدفوف ويغنين»[١٣].

ضعف الهيبة

وهناك أحداث صغيرة لا تخطئها العين المدققة، لعبت ـ بعد ذلك ـ دوراً في حسم الأحداث، ربما كان أولاها بالملاحظة، هو قرار بني زهرة الرجوع جميعاً إلى مكة، بعد أن تأكد لديهم سلامة القافلة ومرافقيها، فلم يخرج إلى بدر زهريّ واحد[١٤]، ومعلوم أن بني زهرة هم أهل (آمنة بنت وهب) أخوال النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ.

والأمر الثاني، هو أن بني هاشم عشيرة النبي، تثاقلوا عن الخروج، وجرت بينهم وبين الأمويين مجادلة، أرادوا معها الرجوع إلى مكة، «فاشتد عليهم أبو جهل بن هشام وقال: والله لا تفارقنا هذه العصابة حتى نرجع»[١٥]، ومن ثم كان طبيعياً أن تلتفت إليهم الرؤوس الأموية لتقول محذرة:

يا بني هاشم؛

وإن خرجتم معنا، فإن هواكم مع محمد!![١٦].

ويضاف إلى ذلك أن بعض كبار الملأ، مثل (أمية بن خلف)، قرر القعود وعدم الخروج، وهو من تصفه كتب التراث الإسلامية بأنه «كان شيخاً جليلاً جسيماً وثقيلاً»[١٧]، الذي أراد تجنب المشقة وهو في هذا السن وذاك الجسم الثقيل، لولا أن أتاه (عقبة بن أبي معيط) «وهو جالس في المسجد بين ظهراني قومه، بمجمرة فيها نار ومجمر، حتى وضعها بين يديه ثم قال:

يا أبا علي استجمر، فإنما أنت من النساء، فقال: قبحك الله وقبح ما جئت به، ثم تجهز فخرج مع الناس»[١٨].

(١٣) الحلبي: سبق ذكره، مج ٢، ص ٣٧٩.
(١٤) الطبري: سبق ذكره، ج ٢، ص ٤٣٨.
(١٥) البيهقي: سبق ذكره، مج ٣، ص ١٠٨.
(١٦) الطبري: سبق ذكره، ج ٢، ص ٤٣٩.
(١٧) السهيلي: سبق ذكره، مج ٣، ص ٣١.
(١٨) ابن كثير: سبق ذكره، ج ٣، ص ٢٥٧.

ثم أمر آخر يضاف لتلك الأحداث التى تبدو صغيرة هينة، تظهر ضعف تلك الهيبة القرشية المزعومة، ومدى تردد قريش فى الخروج - لمجرد الاحتفال - خشية أن يغشاهم بعض بنى كنانة وهم لاهون، لما كان بينهم وبين بنى بكر (بيت كنانى) من ثأر، ولم يحسم ذلك التردد سوى مجيء (سراقة بن مالك) أحد أشراف كنانة للركب المكى قائلاً: «أنا لكم جار من أن تأتيكم كنانة من خلفكم بشيء تكرهونه»، لكن الرؤية الراوية لتراثنا الإسلامى، تنزع ذلك عن شخص (سراقة) وتقول: إنه إبليس قد تلبس هيئة سراقة[١٩]. ولمزيد من الاطمئنان، خرج معهم (سراقة) ضيفاً على حفلهم، مع وعد بمجيىء كنانة جميعاً إلى الحفل ضيوفاً وحلفاء، لكن ما حدث عند وقوع الوقعة، هو هرب (سراقة) من بين قريش عائداً إلى دياره، وهو ما لم يجد له أبو الحكم تفسيراً مقنعاً، سوى أنها كانت الحيلة والخديعة من بنى بكر، لاستدراج قريش إلى بدر، فى ضوء الخلاف الثأرى مع ذلك البيت الكنانى، وهو ما عبر عنه لسانه وهو يقول:

يا معشر الناس؛ لا يهولنكم خذلان سراقة بن مالك،

فإنه كان على ميعاد مع محمد[٢٠].

ومثل تلك الأحداث التى أوردتها كتب التراث على سرعة وعجالة، تفصح عن عدد قريش بعد انحزال بنى زهرة عنها بثلث الناس، وعن ذلك الاحتفال المهيب، الذى كان يحمل داخل مهابته ضعفاً وخوفاً، ثم عدم تجانس الفريق المكى، والذى سببه إصرار أبى الحكم على اصطحاب الهاشميين، ليتشفى فيهم لفشل ولدهم فى الاستيلاء على قافلة أبى سفيان، وربما لو علم بما غيبته له الأيام المقبلة، لتركهم بمكة غير آسف. هذا إضافة للتثاقل الواضح الذى ألم بالركب بأكمله، والذى كان لا يجد فى ذلك الخروج إلا عبئاً فى برد يناير وقارس شتائه، وهو ما يشير إليه عزم كبار الملأ على القعود، ثم الخوف القرشى من بيت كنانى واحد، لولا إجارة سراقة، أو إبليس، مما يرسم صورة واضحة للحال المتشرذم المتردد، غير المتجانس أو المؤتلف، للركب المكى.

ويبدو أن ثمة أخباراً غير قاطعة، قد وصلت الركب المكى، عن تحرك المسلمين نحو بدر، مما حول أملهم فى سمر طروب، إلى فزع بدد فرحهم، وكانت العودة مستحيلة، بل وكارثة لتلك الهيبة المزعومة، وعندما مر الركب على مضارب (غفار) أرسل لهم زعيم غفار ولده بجزائر أهداها لهم طعاماً، مع رسالة تقول: «إن أحببتم أن نمدكم بسلاح ورجال فعلنا، فأرسلوا إليه مع ابنه:

---

(١٩) السهيلى: سبق ذكره، مج ٣، ص ٣٢.

(٢٠) ابن كثير: سبق ذكره، ج ٣، ص ٢٨٣.

إن وصلتك رحم، قد قضيت الذى عليك، فلعمرى لئن كنا نقاتل الناس، فما بنا من ضعف عنهم، ولئن كنا نقاتل الله كما يزعم محمد، فما لأحد بالله من طاقة[٢١].

هذا بينما كان (جهيم بن الصلت) سليل عبد المطلب الهاشمى، يروى لهم وهم ينيخون بالجحفة رؤيا جديدة، فيقول: «إنى رأيت فيما يرى النائم... إذ نظرت إلى رجل أقبل على فرس، حتى وقف مع بعير له، ثم قال: قتل عتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، وأبو الحكم بن هشام، وأمية بن خلف، وفلان، وفلان»، فما كان من (أبى الحكم) إلا أن قام يخفف عن الناس الأثر النفسى للرواية، في وسط عربى ثقافى عادة ما كان يصدق الرؤيا، بقوله الساخر المتحدى:

وهذا نبى آخر من بنى عبد المطلب، سيعلم غداً

من المقتول إن نحن التقينا[٢٢].

وماكان تعبير أبى الحكم «إن نحن التقينا» إلا شكاً فى الأخبار التى وصلت عن النبى وأصحابه، وعدم يقين بوقوع الوقعة المرتقبة.

---

(٢١) السهيلى: سبق ذكره، مج ٣، ص ٣٦.

(٢٢) ابن سيد الناس: عيون الأثر فى فنون المغازى والشمائل والسير، تحقيق لجنة إحياء التراث العربى، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ١٩٨٠، ج١، ص ٣٠١.

باب أول

مشورة الأنصار

«اللهم إن تهلك هذه العصابة اليوم، لا تعبد بعد فى الأرض أبداً» .

[النبى محمد - صلى الله عليه وسلم -]

بقيادة النبى - عليه الصلاة والسلام - خرج المسلمون لضرب الأرستقراطية المكية اقتصادياً، بقطع طريق الإيلاف الشامى، على كبرى القوافل القافلة من الشام إلى مكة بقيادة أبى سفيان، والتى أسهم فيها البيت الأموى بما ينوف على الأربعة أخماس.

وحتى وصول المسلمين إلى (الصفراء)، لم يكن النبى قد علم بعد أياً من أخبار القافلة، سوى إجراء حسابات تنبؤية لموعد عودتها من الشام، قياساً على موعد مغادرتها مكة، لهذا، وبالتصرف البشرى والممكنات الإنسانية، أرسل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - (بسبس بن عمرو الجهنى) ومعه (عدى بن أبى الزغباء الجهنى)، يتحسسان له الأخبار ويتسقطان الأنباء عن قافلة أبى سفيان فأتاه الخبر أن أبا سفيان قد علم بدوره بخروج النبى وأصحابه إليه، وأنه أرسل إلى قريش يستنفرها أموالها[١].

وكان الموقف الجديد دقيقاً، يحتاج إلى حكمة فى المعالجة، فقد تحول الأمر، عن مواجهة ثلاثين فرداً يحرسون القافلة، إلى مواجهة عدد غفير من أهل مكة، خرجوا ليمنعوا أموالهم من النهب، وربما كان موقف المهاجرين محسوماً، بما يتأجج في صدورهم من ذكرى الهوان فى مكة، وخروجهم من ديارهم وأبنائهم إلى يثرب، إلا أن وضع الأنصار كان يقتصر حتى الآن على حسن الضيافة، وصدق الإيمان، بينما الموقف الجديد يحتاج - ليس فقط - إلى عدد كبير من الرجال، بل وإلى قدر كبير من الفدائية، بينما الأنصار - فيما يروى ابن هشام - «عندما بايعوه بالعقبة، قالوا: يا رسول الله: إنا براء من ذمامك حتى تصل إلى ديارنا، فإذا وصلت إلينا فأنت فى ذمامنا، نمنعك مما نمنع منه آباءنا ونساءنا، فكان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يتخوف ألا تكون الأنصار ترى عليها نصره، إلا ممن دهمه بالمدينة من عدوه، وأن ليس عليهم أن يسير بهم إلى عدو يبعد من بلادهم»[٢].

وهنا قال النبى عليه الصلاة والسلام:

«أشيروا علىَّ أيها الناس...»

فلما قال ذلك، قال له سعد بن معاذ: «والله لكأنك تريدنا يا رسول الله؟ قال: أجل، قال: لقد آمنا بك وصدقناك، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة، فامض يا رسول الله لما أردت، فنحن معك، فوالذى بعثك بالحق، لو استعرضت

---

(١) السهيلى: فى تفسير السيرة النبوية لابن هشام، سبق ذكره، مج ٢، ص ٣٣.

(٢) الموضع نفسه.

بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك... فسر رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بقول سعد، ونشطه ذلك، ثم قال:

سيروا وأبشروا، فإن الله وعدنى إحدى الطائفتين ـ إما العير وإما قريش ـ والله، لكأنى الآن أنظر إلى مصارع القوم[٣].

وهكذا، تحول اتفاق الأنصار مع النبى فى العقبة الثانية إلى غايته المضمرة، وأدرك الأنصار أنه قد آن أوان الإفصاح عن كامل بنود ذلك الحلف، التى وعوها مبكراً فى قولهم للنبى آنذاك: «إن شئت لنميلن غداً على أهل منى بأسيافنا»، فأجل النبى الإمالة بالسيف إلى فيما بعد، وقد جاء أوان الما بعد، الذى طور البنود المعلنة، من ميثاق دفاعى لتسفر عن البند المرجأ الذى يجعل الميثاق حلفاً هجومياً محارياً، فتحولت عناصر الجماعة الإسلامية كلها، مهاجرين وأنصار، إلى دولة محاربة هجومية، دولة عسكر ومغانم متكاملة مقاتلة، كالقبيلة تماماً، وبذات منطقها، لكن بعد أن تحول الولاء عن القبيلة وسلفها المعبود إلى الدولة ممثلة فى رجال الحرب والدم والحلقة، الذين تحولوا عن الإجارة إلى الإغارة.

وهنا نقطة التحول المادية الخطيرة، التى لعبت دوراً عظيماً فى جذب الأتباع من مستضعفى القبائل ومحاربيهم، بعد أن ظل النبى فى مكة ثلاثة عشر عاماً يدعو دون إجابة العدد الكافى من المستضعفين إلى دعوته، حيث كانت الدعوة تؤجل الوعد بالنعمة والرفاه إلى الآجل فى رغد جنة الخلد، وهو ما ظهر كما لو كان تأجيلا ميتافيزيقياً لحل قضيتهم، وإرجاء رفع الشقاء المادى عن حياتهم الآنية، فى مجتمع تجارى مادى بحت، ولهذا عندما تم الإعلان عن مغانم أحلها الله لرسوله والمؤمنين من أموال المشركين، أصبح الحل حقيقة مادية دنيوية ملموسة، ومكاسب عينية ماثلة أمام المستضعفين، تدعوهم إلى دخول جيش الدولة الجديدة، وهو الهدف الذى سيفصح عن نفسه عملياً فى المكاسب التى ستحققها الغزوة البدرية لجماعة المسلمين، لتحول حالهم الشظف إلى حال آخر، وفى تحالف القبائل المحيطة بالمدينة مع القوة الإسلامية.

خطة المعركة

مع التجوال المتأنى بين دفتى كتابات السير والأخبار الإسلامية، يجد القارىء، نفسه مع النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ إزاء قائد عسكرى يبدأ بضمان ولاء رجاله، ثم يخطط للمعركة، فيرسل

(٣) ابن كثير: البداية والنهاية، سبق ذكره، ج ٣، ص ٢٦١.

العيون لتأخذ له بالأخبار عن عدوه، فيعلم بتمكن القافلة من الهرب، وبخروج قريش إلى بدر لتحتفل بنجاة تجارتها، ونشر مهابتها بين العرب، وأن العير وإن ذهبت فقد جاءت قريش، وهى إحدى الطائفتين الموعودتين، فيخرج القائد برجاله من موضع إلى آخر مسرعاً، يختصر طرقاً ويضرب فى أخرى[٤]، عامداً إلى التخفى وستر أمر مسيره وعدم إفشاء خطوه، فيأمر بقطع الأجراس من أعناق الإبل[٥]، والسير الصامت.

ثم يقسم النبى - صلى الله عليه وسلم - رجاله إلى ألوية، لكل لواء رايته التى يعرفه بها أصحابه، فيحمل لواء المهاجرين (على بن أبى طالب)، ويحمل لواء الخزرج (الحباب بن المنذر)، بينما يحمل لواء الأوس (سعد بن معاذ)[٦]، ويجعل لرجاله شعارات شفرية يعرفون بها بعضهم بعضاً، وهم تحت الدروع والخوذ، فكان شعار الخزرج: يا بنى عبد الله، وشعار الأوس: يا بنى عبيد الله، وشعار المهاجرين: يا بنى عبد الرحمن، أما شعار الجميع فهو: يا منصور أمِت، أما الخيل جميعاً فكانت خيل الله[٧].

وعند التعبئة تقرر أن يحارب المسلمون بنظام الصفوف المتحركة، من (النبّالة) حملة النبال، و(السيّافة) حملة السيوف.. إلخ، وفى ذلك يقول ابن كثير: «وقد صف رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أصحابه، وعبأهم أحسن تعبئة... وعن أبى أيوب يقول: صفنا رسول الله يوم بدر، فبدرت منى بادرة أمام الصف، فنظر إليهم وقال: معى معى... وكان فى يده قدح يعدل به القوم، فمر بسواد بن غزية... وهو مستنتل (متقدم) من الصف، فطعن فى بطنه بالقدح وقال: استو يا سواد»[٨].

ولم يترك القائد شيئاً للصدفة، فأى خطأ - مع الفارق العددى - يمكن أن يؤدى إلى كارثة، ومن ثم، وقبل أن يصل بدراً، أمر رجاله فتوقفوا صامتين، ثم ركب ومعه أبو بكر ليتسقط بنفسه أخبار عدوه..

> حتى وقف على شيخ من العرب فسأله عن قريش، وعن محمد وأصحابه، ما بلغه عنهم. فقال الشيخ: لا أخبركما حتى تخبرانى

---

(٤) السهيلى: سبق ذكره، مج ٣، ص ٣٤.

(٥) الحلبى: السيرة، مج ٢، ص ٣٨٣.

(٦) نفسه: ص ٣٨٢.

(٧) البيهقى: دلائل النبوة، سبق ذكره، السفر الثالث، ص ٧٠.

(٨) ابن كثير: سبق ذكره، ج ٣، ص ٢٧٠.

ممن أنتما؟ فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ: إذا أخبرتنا أخبرناك، قال أذاك بذاك؟ قال: نعم، قال الشيخ: فإنه بلغني أن محمداً وأصحابه خرجوا يوم كذا وكذا، فإذا كان الذى أخبرنى صدقنى، فهم اليوم بمكان كذا وكذا، المكان الذى به رجال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وبلغنى أن قريشاً خرجوا يوم كذا وكذا، فإن كان الذى أخبرنى صدقنى، فهم اليوم بمكان كذا وكذا، للمكان الذى فيه قريش، فلما فرغ من خبره قال: ممن أنتما؟

فقال رسول الله ـ عليه الصلاة والسلام ـ: نحن من ماء.

وفى (الإمتاع) أنه قال «نحن من ماء وأشار بيده إلى العراق»، ثم يتفق رواة السيرة على رد الشيخ المندهش على نفسه ـ وهو يغمغم ـ «ما من ماء؟ أمن ماء العراق؟!»[9].

وينزعج (الحلبى) راوى السيرة من رد النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ولا يدرك الحذر المفترض فى قائد عسكرى مقبل على معركة، ولا يرى فى ذلك القائد سوى الجانب النبوى المتعالى، وأن للنبوة صفات تتناقض مع رد الرسول على الأعرابى، فيقول فى تساؤل استنكارى، أو فى استنكار متسائل:

وقد تقدم فى أوائل الهجرة، أنه لا ينبغى لنبى أن يكذب، ولو صورة، ومنه التورية.

ومن ثم يبحث الحلبى عما يطمئن قلبه، فيكشف أنه لا بأس من كذب النبى، ليس لضرورات يقتضيها الظرف الموضوعى، ولكن لأنه وجد فى كلام القاضى البيضاوى حديثاً عن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن النبى إبراهيم سبق وكذب ثلاث كذبات[10]، ويقصد الحلبى هنا الحديث: «كذب إبراهيم ثلاث كذبات كلها فى الله، قوله: إنى سقيم وقوله: فعله كبيرهم هذا، وقوله للرجل الذى عرض لسارة: إنها أختى»، وهنا يطمئن الحلبى ويكتفى بذلك تبريراً لنفسه وتطميناً لها، إزاء رد قول النبى للشيخ الأعرابى، ولم ير إطلاقاً فى ذلك الرد، غرضاً عسكرياً وحذراً مباحاً، يصرف البدوى عن معرفة قائد المسلمين، ويشككه فى معلوماته عن موقع الجيش الإسلامى، ويصرفه عن تقصى أمرهم، احتياطاً لسرية وأمان مسيره.

(٩) السهيلى: سبق ذكره، مج ٣، ص ٣٤، انظر أيضاً: ابن كثير: سبق ذكره، ج ٣، ص ٢٦٣، والحلبى: سبق ذكره م مج ٢، ص ٣٨٧.

(١٠) الحلبى: سبق ذكره، مج ٢، ص ٣٨٧.

ولمزيد من التقصى، وتدقيق المعلومات عن العدو، وأحواله، وعدد رجاله، وعدته، يعود القائد لإرسال على بن أبى طالب، والزبير بن العوام، وسعد بن أبى وقاص، مع نفر آخر من المسلمين يلتمسون له الخبر، بتعبير ابن كثير، فيصيبوا غلامين من عبيد قريش كانا قد تطرفا عن ركبها، ويبدأ الحوار بين النبى - عليه الصلاة والسلام - وبين الغلامين:

قال: أخبرانى عن قريش.

قالا: وراء هذا الكثيب الذى ترى بالعدوة القصوى.

قال: كم القوم؟ وما عدتهم؟

قالا: لا ندرى.

قال: كم ينحرون كل يوم؟.

قالا: يوماً تسعاً ويوماً عشراً.

قال: القوم ما بين التسعمائة إلى الألف، فمن فيهما من أشراف قريش؟

قالا: عتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، وأبو البخترى بن هشام، وحكيم ابن خزام، ونوفل بن خويلد، والحارث بن عامر بن نوفل، وطعيمة بن عدى، والنضر بن الحارث، وزمعة بن الأسود، وأبو جهل بن هشام، وأمية ابن خلف، ونبيه ومنبه ابنا الحجاج، وسهيل بن عمرو، وعمرو بن عبدود.

فأقبل الرسول - صلى الله عليه وسلم - على الناس فقال:

هذه مكة قد ألقت إليكم أفلاذ كبدها[١٢].

وهو التعبير الأمثل عن القوم الواردة أسماؤهم، فهم من قريش القلب والرؤوس والأشراف والسادة، وهم الملأ والأرستقراطية.

ويرتحل المسلمون إلى (عرق الظبية)، وهناك «لقوا رجلاً من الأعراب فسألوه عن الناس، فلم يجدوا عنده خبراً، فقال له الناس: سلم على رسول الله، قال:

- أوَ فيكم رسول الله؟!

قالوا: نعم.

(١١) ابن كثير: سبق ذكره، ج ٣، ص ٢٦٤.

(١٢) ابن سيد الناس: عيون الأثر، سبق ذكره، ج ١، ص ٢٩٩، ٣٠٠.

قال: لئن كنت رسول الله، فأخبرنى عما فى بطن ناقتى تلك؟

فقال له سلمة بن سلامة: لا تسأل رسول الله، وأقبل علىّ فأنا أخبرك عن ذلك، نزوت عليها ففى بطنها منك سخلة.

فقال رسول الله: مه، أفحشت على الرجل(١٣).

هكذا كان القائد الإنسان، يخطط كما يخطط البشر، ويتقصى الأخبار كما يتقصى البشر، ويرسل الجواسيس والعيون ليأخذ الأخبار عن عدوه، ثم وهو بسبيل ذلك يتعرض لسخرية بدوى أحمق يؤذيه بقارص الكلم، فلا يرد عليه الإيذاء بإيذاء، إنما يلوم صاحبه على فحش قوله للرجل، تحوطاً لخبر قد يحمله البدوى المرتحل لأعدائه، أما السماء، فكانت أمراً أكثر منها خبراً، حيث كان الوحى يتحول بالأمر من الصبر الجميل، والدفاع الهادىء، إلى الهجوم والقتال بعد أن أتى الله بأمره:

﴿يا أيها النبى حرض المؤمنين على القتال إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين وإن يكن منكم مائة يغلبوا ألفاً من الذين كفروا بأنهم قوم لا يفقهون﴾ (٦٥/ الأنفال) ... عن عبد الله بن عباس قال: لما نزلت هذه الآية اشتد على المسلمين، وأعظموا أن يقاتل عشرون مائتين، ومائة ألفاً، فخفف الله عليهم، فنسخها بالآية الأخرى: ﴿الآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفاً فإن يكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين وإن يكن منكم ألف يغلبوا ألفين بإذن الله والله مع الصابرين﴾ (٦٦/ الأنفال)(١٤).

ولو أخذنا الأمر بظاهره، لكان المعنى أن الله جل وعلا لم يكن يعلم بضعف المسلمين، ثم علمه متأخراً (الآن... علم أن فيكم ضعفاً)، وحاشا لله أن يقصر علمه عما يليق بكماله، ومن ثم لا يكون هناك معنى لنسخ الآية الأولى بالثانية، سوى تفاعل الوحى الكريم مع ظرف الواقع، حيث تتناسب الآية الأولى مع خبر أول بعدد أفراد قريش، وهو ما كان يعادل عشرة إلى واحد بالنسبة إلى عدد المسلمين، بينما تتناسب الآية الثانية مع الخبر التالى الذى جاء يحمل نسبة أخرى هى اثنين إلى واحد، وهو ما يطابق العدد المقبول لقريش بالنسبة لعدد المسلمين، بعد انحزال بنو زهرة عنها بثلث الناس، وكذب سراقة بن مالك أو إبليس بشأن مجيء كنانة مع

---

(١٣) ابن كثير: سبق ذكره، ج ٣، ص ٢٦٠.

(١٤) السهيلى: سبق ذكره، مج ٣، ص ٧٧.

قريش، فكان النسخ، وجاء صدق الوحى مطابقاً للواقع، وإعلاماً للمسلمين المحاربين بعدد عدوهم النهائى.

وإعمالاً لكل ما تم الحصول عليه من معلومات استخبارية، تقرر أن يسبق المسلمون قريشاً إلى بدر، فيروى ابن كثير:

> فخرج رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يبادرهم إلى الماء، حتى جاء أدنى ماء من بدر فنزل به... فذكروا أن الحباب بن المنذر بن الجموح ـ محارب أنصارى ـ قال: يا رسول الله؛ أرأيت هذا المنزل؛ أمنزل أنزلكه الله ليس لنا أن نتقدمه ولا نتأخر عنه؟ أم هو الرأى والحرب والمكيدة؟ قال: بل هو الرأى والحرب والمكيدة، قال يا رسول الله، فإن هذا ليس بمنزل، فامض حتى نأتى أدنى ماء من القوم فننزله، ثم نغور ما وراءه من القلب، ثم نبنى عليه حوضاً ونملؤه ماء ثم نقاتل القوم، فنشرب ولا يشربون، فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ: لقد أشرت بالرأى(١٥).

وهنا يأتى خبر السماء مصدِّقاً على الخطة البشرية ومشورة الأنصار، ورجلهم المقاتل (الحباب) المشهود له بالدربة والحنكة والخبرة القتالية، فيأتى جبريل إلى أخيه المصطفى ـ عليهما السلام ـ ليقول:

> يا محمد؛
>
> ربك يقرأ عليك السلام، ويقول لك:
>
> إن الرأى ما أشار به الحباب(١٦).

والرواية هنا بحاجة إلى بعض التدبر، فإذا كان المسلمون سيبنون حوضاً، حتى يتوفر لهم ماء الشرب، ويغورون بقية الآبار حتى لا تشرب قريش، فلا جدال هنا أن الآبار التى غورت، هى تلك ـ المفترض أن تكون واقعة ـ على مسافة متناثرة بين المسلمين وبين الجهة التى ستصل إليها قريش، ويكون تعبير (أدنى ماء) هنا بحاجة إلى إعادة فهم، فالإشارة الأولى عن نزول النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ستعنى بذلك أدنى أى أقرب بئر إلى مدخل الوادى حيث ستصل قريش، وبقية الآبار تكون خلف المسلمين، أما (أدنى ماء من القوم) فى مشورة الحباب، فهى آخر بئر إلى

---

(١٥) ابن كثير: سبق ذكره، ج ٣، ص ٢٦٦.

(١٦) الموضع نفسه.

الخلف، بعيداً عن موقع قريش المفترض، مع تغوير بقية الآبار التى ستقع بين المسلمين وبين قريش، ولا شك أن التباس (أدنى ماء) فى المرتين اللتين وردتا بالرواية، هو ما دعا (الحلبى) كثير التساؤل ليقف محاولاً الفهم متسائلاً:

> إن ذلك القليب إذا كان وراء ظهورهم وسائر القلب خلفه (وهو ما يفهم من: أدنى ماء) فما المعنى فى تغويرها؟ إنها إذا لم تغور يشربون ويشرب القوم - قريش -»[17]،

وهو التساؤل المشروع عقلاً، والذى يجب أن يكون كما انتهينا إليه، إلى فهم مؤداه أنهم بنصيحة (الحباب) نزلوا أبعد بئر عن القوم، وغوروا ما هو فى الطريق بين الجيشين، وبذلك يتم المقصود، فتصل قريش عطشى ولا تجد ماء، إلا ما هو وراء المسلمين وفى حراستهم، أو فى حوضهم الذى منه يشربون وحدهم.

موقع الفريقين

وحتى نتمكن من وضع تصور لخريطة المواقع فى بدر، وموقع كل من الطرفين فيها، نقف مع القائد وموقعه بين أتباعه المسلمين، وهو ما أوضحه قول سعد بن معاذ له:

> يا نبى الله؛ ألا نبنى لك عريشاً تكون فيه، ونعد عنك ركائبك، حتى نلقى عدونا، فإن أعزنا الله وأظهرنا على عدونا، كان ذلك ما أحببنا، وإن كانت الأخرى، جلست على ركائبك، فلحقت بمن وراءنا من قومنا... فأثنى عليه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - خيراً، ودعا له بخير، ثم بنى للرسول عريشاً كان فيه[18].

وتتفق كل كتب السير على موقع ذلك العريش، بأنه كان «فوق تل مشرف على المعركة»[19]، وبعد بناء العريش، دخل إليه النبى ومعه أبو بكر، واتفق على أن تحيطه حراسة من الأنصار بقيادة سعد بن معاذ.

---

(١٧) الحلبى: سبق ذكره، مج ٢، ص ٣٩٤.

(١٨) ابن كثير: سبق ذكره، ج ٣، ص ٢٦٦.

(١٩) الحلبى: سبق ذكره، مج ٢، ص ٣٩٤.

خوفاً عليه من أن يدهمه العدو من المشركين، والجنائب النجائب مهيأة لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إن احتاج ركبها ورجع إلى المدينة[٢٠].

ومرة أخرى وليست أخيرة، نجد الإعداد الجيد، والتخطيط البشرى، والحرص على حماية صاحب الدعوة والحفاظ على حياته، بإيقاف الحراس عليه فى تل بعيد عن متناول المشركين، تحت حراسة مسلحة من رجال الحرب اليثارية، وركائبه معدة للعودة السريعة إلى يثرب إن حدثت الهزيمة، هذا رغم حراسة السماء، لحبيبها ورغم الوعد الإلهى بالمدد العلوى من مقاتلى الملائكة المقدمين.

وقد جاء الوعد بالملائكة، دافعاً لمزيد من الطمأنينة لصحابة الرسول الأمين، ومدعاة لهدوئهم النفسي والعصبى، وإخلادهم للنوم فى ظل تلك الحراسة السماوية، لأخذ قسط مناسب من الراحة، انتظاراً لوصول قريش فى الغد عطشى مجهدة متعبة، وهو ما وعته كتب الأخبار والسير، وساقته على عجالة تقول:

ويشرهم النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ بنزول الملائكة، فحصل لهم الطمأنينة والسكون، وقد حصل لهم النعاس الذى هو دليل الطمأنينة[٢١].

وفى ذلك المناخ الشتوى، زخت السماء المنطقة بمطرها، وهو ما جاء فى قولة الإمام على ـ رضى الله عنه ـ: «أصابنا فى الليل طس من مطر، فانطلقنا تحت الشجر والحجف، نستظل تحتها من المطر»[٢٢]، فى اللحظة التى كانت قريش فيها بالعدوة القصوى من الوادى، بينما كان المسلمون «فى العدوة الدنيا من بطن التل»[٢٣]، وهو ما يحدد لنا المواقع بدقة، فالمسلمون يعسكرون فوق التل، انتظاراً لمقدم قريش من مدخل الوادى فى الأسافل، وهو ما يدعمه قول (البيهقى) عن ذلك المطر الليلى:

وأرسل الله السماء، وكان الوادى دهساً فأصاب رسول الله وأصحابه، ما لبد لهم الأرض ولم يمنعهم من السير، وأصاب قريشاً منها ما لم يقدروا أن يرتحلوا معه[٢٤].

(٢٠) ابن كثير: سبق ذكره، ج ٣، ص ٢٧١.
(٢١) الحلبى: السيرة، مج ٢، ص ٣٩٢.
(٢٢) الموضع نفسه.
(٢٣) البيهقى: سبق ذكره، ج ٣، ص ٣٤، ٣٥.
(٢٤) نفسه: ص ٣٥.

وهكذا كان نزول المطر مساعداً على حركة المسلمين فوق التل، عسر المسير ومشقته فى الوادى الموحل، وهو ما يتفق مع حال نزول المطر فى منطقة بها مرتفع يليه واد، حيث لا يثبت الماء على المرتفع، إنما ينزلق إلى المنحدرات، فيترك التلال رطبة يابسة متماسكة، ويحول الوادى إلى مستنقعات موحلة، لذلك أكد (مجاهد) أن فى أعلى التل «أنزل عليهم المطر، فأطفأ به الغبار، وتلبدت الأرض، وطابت به أنفسهم، وثبتت به أقدامهم»[٢٥]، أما الفيصل فى هذا الأمر، فهو تقرير الوحى الصادق لخريطة المعركة زماناً ومكاناً، فى قول الآيات:

﴿إذ أنتم بالعدوة الدنيا وهم بالعدوة القصوى والركب أسفل منكم ولو تواعدتم لاختلفتم فى الميعاد﴾ (٤٢/ الأنفال).

ومن ثم فلا مجال هنا لمجادل، يكابر فى أن موقع المسلمين فى الأعالى، وهبوطهم مع بدء المعركة على من هم فى الأسافل، كان عاملاً هاماً من عوامل حسم المعركة، وتحديد نتائجها.

وعند الصباح، عدل رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ صفوف رجاله، وألويتهم، ثم دخل عريشه يناجى ربه:

اللهم إن تَهلِك هذه العصابة اليوم، لا تعبد بعد فى الأرض أبداً[٢٦].

ثم عاد فخرج إلى رجاله يحرضهم على القتال منادياً:

والذى نفس محمد بيده، لا يقاتلهم اليوم رجل، فيقتل صابراً محتسباً إلا دخل الجنة..

فقال عوف بن الحارث: يا رسول الله؛ ما يضحك الرب من عبده، قال: غمسة يده فى العدو حاسراً[٢٧].

أما الجزاء الدنيوى لمن سيبقى حياً، فهو ما جاء فى نداء آخر، يمنح المقاتلين ما يحصلون عليه من غنائم، ومن فداء أسراهم:

من قتل قتيلاً فله سلبه، ومن أسر أسيراً فهو له[٢٨].

---

(٢٥) ابن كثير: سبق ذكره، ج ٣، ص ٢٦٦.

(٢٦) نفسه: ص ٢٧٤.

(٢٧) السهيلى: سبق ذكره، مج ٣، ص ٣٩.

(٢٨) الحلبى: سبق ذكره، مج ٢، ص ٤١٣.

وفى تلك الهنيهات الفاصلة فى تاريخ الحجاز، بل وفى تاريخ الدنيا، كانت طلائع قريش تهل منحدرة من كثيب العقنقل نحو الوادى، ومن موقعه فوق التل وقف النبى يطالع ذرافاتهم وطبولهم تهبط الوادى من بعيد، وهو يقول:

اللهم هذه قريش، قد أقبلت بخيلائها وفخرها تحادّك وتكذب رسولك،
اللهم فنصرك الذى وعدتنى..(٢٩)

وهكذا، جاء الملأ إلى موعدهم، وأفلاذ كبد مكة إلى قدرهم.

(٢٩) السهيلى: سبق ذكره، مج ٣، ص ٣٦.

باب أول

أحــداث فى بدر الكبرى

«بئـس ما أبـدأ به إسلامى، أن أخـون أمانتى»

[أبو العاص بن الربيع]

بينما كان المسلمون على تل مطل على وادى بدر يترقبون، أقبلت قريش من كثيب العقنقل نحو الوادى، لتحتفل بنجاة أموالها، وتنشر مهابتها، حفاظاً على أمن طريق الإيلاف، وإرهاباً لمن يحاول قطعه من عربان، ويحكى الحلبى فى سيرته عن الأمين المأمون إنسان العيون ـ صلى الله عليه وسلم ـ لحظة وصول قريش إلى الوادى يفترشونه، وأمامهم القيان تغنى وتضرب الدفوف، ،ولما اطمأن القوم بعثوا عمير بن وهب الجمحى فقالوا: احزر لنا أصحاب محمد... فذهب فى الوادى حتى أبعد فلم ير شيئاً، ثم رجع إليهم وقال: ما رأيت شيئاً.

واطمأن القوم، وركنوا إلى تكذيب ما وصلهم من خبر عن أصحاب محمد، واستعدوا لسمرهم الاحتفالى، بينما كان المسلمون خلف سواتر التل، ولمزيد من الاطمئنان عاد الجمحى واستجال بفرسه مرة أخرى، فلمح الرجال تحت الخوذ خلف السواتر فرجع يصرخ:

> رأيت يا معشر قريش، البلايا تحمل المنايا، نواضح يثرب تحمل الموت الناقع، ألا ترونهم خرساً لا يتكلمون؟ يتلمظون تلمظ الأفاعى، لا يريدون أن ينقلبوا إلى أهلهم؟ زرق العيون كأنهم الحصا تحت الجحف، والله ما أرى أن نقتل رجلاً منهم حتى يقتل رجلاً منكم، فإذا أصابوا منكم أعدادهم، فما خير العيش بعد ذلك؟[1].

إنه إذن الكمين، وصدق الخبر، وإنها لوقعة، وإنها لمصرعة، لقد كان محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ يريد عيرهم وتجارتهم، لحصار مكة اقتصادياً، وضرب إيلافها، فإذا به يريدهم هم أصحاب المال ورؤوس الأشراف والسادة، بعد أن وصلوا بدراً عطشى متعبين، دون قيادة موحدة، ومن غير تجانس، فجاءوا معهم بالهاشميين إلى جانب الأمويين، ليجدوا الآبار قد غورت، مما كان مدعاة أخرى لطلب حكمة غير حكمة أبى الحكم، التى طوحت بهم إلى ذلك الشرك، بينما نداء الجمحى يشير إلى قوم يتربصون الثأر من السادة، بعد اضطهاد وهجرة، يتلمظون تحت الخوذ كالأفاعى، لا تظهر منهم غير العيون والألسنة اللاهثة، المتلهفة على الانقضاض.

الحكمة والتهور

ومن ثم؛ كان إعمال العقل والتروى، والبحث عن رأى سديد، للخروج من الفخ بأقل قدر من الخسارة، فكانت حكمة (حكيم بن حزام) الذى جاء (عتبة بن ربيعة) أحد كبار أشراف مكة وسادة

---

(١) الحلبى: السيرة، سبق ذكره، مج ٢، ص ٣٩٥

الملأ المقدمين، وكان عتبة رجلاً جليلاً عجوزاً ثقيلاً، ليقول له:

يا أبا الوليد؛ إنك كبير قريش وسيدها، والمطاع فيها، هل لك إلى أن لا تزال تذكر فيها بخير إلى آخر الدهر... هل لك أن تذهب بشرف هذا اليوم ما بقيت؟ قال: وما ذاك يا حكيم؟ قال: ترجع بالناس(٢).

وهكذا سجلت عبارة حكيم لقريش مرة أخرى حبها للسلم، وسعيها للأمن، ذلك الحب والسعى الذى فرضه عليها تكوينها النفسى، وفرضه على نفسها تكوينها الاقتصادى والاجتماعى، وحرصها على مصالحها، ومن ثم كان من يسعى إلى الحفاظ على تلك المكاسب، بتحقيق السلم، يظل مذكوراً فى شرعها بالحكمة والسداد والشرف إلى آخر الدهر، ومن هنا قام (عتبة بن ربيعة) عاملاً بحكمة (حكيم بن حزام)، يخطب فى أصحابه:

يا معشر قريش، إنكم والله ما تصنعون بأن تلقوا محمداً وأصحابه شيئاً، والله لئن أصبتموهم لا يزال الرجل ينظر فى وجه رجل يكره النظر إليه، قتل ابن عمه أو ابن خاله أو رجلاً من عشيرته، فارجعوا، وخلوا بين محمد وبين سائر العرب، فإن أصابوه فذاك الذى أردتم، وإن كان غير ذلك ألفاكم ولم تعرضوا منه ما يريد(٣).

هكذا كان حال قريش، وتلك كانت دعوتها وحكمة حكمائها، بينما على الجانب الآخر وراء السواتر وفوق التل، كان صوت المصطفى ـ صلى الله عليه وسلم ـ يجلجل فى أصحابه، حتى لا يتركوا فرصة قد لا يجود بها الزمان مرة أخرى للقضاء على رؤوس الشرك:

ـ والذى نفس محمد بيده، لا يقاتلهم اليوم رجل فيقتل صابراً محتسباً، إلا أدخله الله الجنة.

ـ وهذه مكة قد ألقت إليكم أفلاذ كبدها.

ـ وأن ما يضحك الرب من عبده غمسة يده فى العدو حاسراً.

ـ ومن قتل قتيلاً فله سلبه.

ـ ومن أسر أسيراً فهو له.

ـ ويا منصور أمت.

---

(٢) ابن كثير: البداية والنهاية، سبق ذكره، ١٩٨٨، ج ٣، ص ٢٧٠.

(٣) السهيلى: (فى تفسير السيرة النبوية لابن هشام)، سبق ذكره، مج ٣، ص ٣٧.

وفى الوادى، ذهب (حكيم) بنداء (عتبة) إلى (أبى الحكم)، فكان رده غير الحكيم:

انتفخ والله سحره حين رأى محمداً وأصحابه، كلا والله لا نرجع حتى يحكم الله بيننا وبين محمد، وما بعتبة ما قال، لكنه رأى أن محمداً وأصحابه أكلة جزور، وفيهم ابنه، فتخوفكم عليه[٤].

وكان أبو الحكم يقصد (أبا حذيفة بن عتبة)، وهو مهاجر مع أصحاب النبى - صلى الله عليه وسلم - بعد أن فرقت الأممية الجديدة بين الأب وابنه، والأخ وأخيه، فى ولاء جديد، وإيمان جديد، ويكفى مثالاً لذلك أن نعلم أن (أم أبان بنت عتبة بن ربيعة)، كان لها أربعة إخوة وعمّان، كل منهم حضر بدراً، اثنان من إخوتها مسلمان، واثنان مشركان، وواحد من عميها مسلم، والآخر كافر[٥].

وفى شروح السيرة، نعلم أن عبارة (أبى الحكم) بشأن (عتبة): انتفخ واللهِ سحره، تقال للجبان[٦]، وكان الرد الطبيعى من الشيخ الجليل على من اتهمه بالجبن «سيعلم مصفّر إسته من انتفخ سحره، أنا أم هو»[٧]، ومصفّر إسته هو من يصبغ مؤخرته بالحناء، طلباً للرجال، وقد «قصد المبالغة فى الذم»[٨]، ومن ثم «رماه بالأبنة، بأنه كان يزعفر إسته»[٩].

وقبل الرجل الحكيم أن يُرمى بالجبن حقناً للدماء، وحرصاً على المصالح القرشية، واستمر ينادى:

يا قوم؛ إنى أرى أقواماً مستميتين لا تصلون إليهم وفيكم خير، يا قوم اعصبوها برأسى وقولوا: جبن عتبة، وقد تعلمون أنى لست بأجبنكم»[١٠].

فكان أن قام أبو الحكم يقول: «والله لو غيرك قال هذا لأعضضته»[١١]، وهو تعبير مخفف، تحاشى فيه (أبو الحكم) الفحش فى القول، لرجل فى سن (عتبة)، وهو ما تفسره كتبنا الإخبارية

---

(٤) ابن كثير: سبق ذكره، ج ٣، ص ٢٦٩، ٢٧٠.
(٥) الحلبى: السيرة، مج ٢، ص ٣٩٨.
(٦) نفسه: ص ٩٧.
(٧) ابن كثير: سبق ذكره، ج ٣، ص ٢٧٠.
(٨) الحلبى: السيرة، مج ٢، ص ٣٩٨.
(٩) البيهقى: دلائل النبوة، سبق ذكره، السفر الثالث، ص ٦٣.
(١٠) الموضع نفسه.
(١١) الموضع نفسه.

بأن معناه الصريح «أُعضض على بظر أمك»[١٢]، أو هو عض فى موضع آخر «أُعضض بإير أبيك»[١٣].

والحوار أعلاه يكشف بصورة واضحة حال الملأ القرشي من سادة الأشراف، وخلافاتهم الخطيرة حول مصير نظامهم، بل مصيرهم هم، واتهام بعضهم لبعض بالجبن، وتبخيس بعضهم بعضاً بفاحش القول، وتفرق كلمتهم بين بطون وولاءات متعددة لسادة متنافرين، هذا بينما تابع (أبو الحكم) الإفصاح عما بصدره، وعن رأيه فى الدعوة التى فرقت الأرحام والعشيرة، فى قوله: «اللهم أَقْطَعَنا الرحم، وآتانا بما لا نعرف، فاحنه الغداة»[١٤]. هذا مع تصوره غير الحكيم، وغير الصادق مع الظروف والمتغيرات الجديدة، محتسباً أنه وقومه على الحق وعلى الإيمان الصحيح بالله، وهو ما يبدو ظاهراً فى ندائه السماء:

> اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك، فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم[١٥].
>
> اللهم انصر أفضل الدينين عندك، وأرضاهما لك.
>
> اللهم انصر أعلى الجندين، وأهدى الفئتين، وأكرم الحزبين، وأفضل الدينين[١٦].

وهو الدعاء الذى يعبر عنده، عن كون قريش هم أهل الله، كما نعتهم العرب، لأنهم حماة بيته ورعاة حرماته، وهو الاعتقاد الذى دفع قريشاً وهى فى طريقها إلى بدر أن تأتى فى رحلها بأكثر الرايات قدسية؛ أستار الكعبة!!.

الوقعة

ولما أخذ العطش بالحلوق، خرج (الأسود بن عبد الأسد المخزومى) يركض مصعداً نحو حوض المسلمين لا يلوى على شىء، مقسماً «أعاهد الله لأشربن من حوضهم أو لأهدمنه، أو لأموت دونه، فخرج له حمزة بن عبد المطلب، فلما التقيا ضربه حمزة فأطن قدمه بنصف ساقه

---

(١٢) الحلبى: سبق ذكره، مج ٢، ص ٣٩٧.
(١٣) البيهقى: سبق ذكره، ج ٣، ص ٦٣.
(١٤) السهيلى: سبق ذكره، مج ٣، ص ٩٣.
(١٥) البيهقى: سبق ذكره، ج ٣، ص ٧٥.
(١٦) الحلبى: سبق ذكره، مج ٢، ص ٤١٨.

وهو دون الحوض، ووقع على ظهره تشخب رجله دماً... ثم حبا إلى الحوض حتى اقتحم فيه، واتبعه حمزة فضربه حتى قتله في الحوض»[17].

وذاهلة وقفت قريش، التى تحول حفلها من دفوف وقيان وخمر وسمر، إلى حرب ودم، فأراد (عتبة) بذات الحكمة، أن يسلك سلوك العرب، فيدعو إلى مبارزة تنهى الأمر عند حد، وتوقف نهر الدم الموشك على التدفق، بهزيمة أحد الطرفين فى مبارزة عادلة، تنتهى بانسحاب المهزوم واعترافه بالهزيمة، فيروى ابن هشام «خرج عتبة بن ربيعة، بين أخيه شيبة بن ربيعة، وابنه الوليد بن شيبة، حتى إذا فصل من الصف دعا إلى المبارزة، فخرج إليه فتية من الأنصار ثلاثة، وهم عوف ومعوذ ابنا الحارث... وعبد الله بن رواحة، فقالوا: من أنتم؟ فقالوا: رهط من الأنصار، قالوا: ما لنا بكم من حاجة، ثم نادى مناديهم؛ يا محمد أخرج إلينا أكفاءنا من قومنا».

وبهذا النداء كانت قريشاً لا تزال تحسب العواقب وتتحاشى مخاطرها، لأن مبارزة بعض أهلهم، أمر يمكن بعد ذلك علاجه بين الأهل وبعضهم، أما مبارزة الأنصار، فهى ثأر باقٍ بين مدينتين، لا يعلم إلا الله منتهاه، وهو ما قد يقضى تماماً على طريق الإيلاف المار قرب يثرب، واستجاب النبى الكريم لرغبة قريش فقال: «قم يا عبيدة بن الحارث، وقم يا حمزة، وقم يا على، فلما قاموا دنوا منهم، قالوا: من أنتم؟ قال عبيدة: عبيدة، وقال حمزة: حمزة، وقال على: على، قالوا: نعم أكفاء كرام، فبارز عبيدة وكان أسن القوم عتبة بن ربيعة، وبارز حمزة شيبة بن ربيعة، وبارز على الوليد بن عتبة، فأما حمزة فلم يمهل شيبة أن قتله، وأما على فلم يمهل الوليد أن قتله»[18].

وعقب ابن اسحق وابن كثير على التساؤل القرشى «من أنتم؟»، بأنه «دليل على أنهم كانوا ملبسين لا يعرفون من السلاح»[19]، بالخوذ الحديدية، التى تخفى بداخلها الرؤوس، والدروع التى تغطى الأجساد.

أما الشيخ ثقيل الجسم كبير السن (عتبة بن ربيعة) فقد صمد لعبيدة، وأصاب كل منهما الآخر بضربة أثبتته، فما كان من (حمزة) و(على) إلا أن كسرا قواعد المبارزة وشروطها، ونزلا على الشيخ العجوز بالأسياف فأجهزا عليه، ثم احتملا زميلهما (عبيدة) بسرعة، إلى صفوف أصحابهم.

وهكذا قتل المسلمون صناديد قريش، أما كسر قواعد المبارزة فقد حكى عنه بعد ذلك (على بن

---

(١٧) الطبرى: سبق ذكره، ج ٢، ص ٤٥٥.

(١٨) السهيلى: سبق ذكره، مج ٣، ص ٣٨.

(١٩) ابن كثير: سبق ذكره، ج ٣، ص ٢٧٢.

أبى طالب) كرم الله وجهه، لرفع صفة المعابة عنه، حيث تغيرت القواعد بتغير المعيار، وبقيت قاعدة واحدة هى معيار كل المعايير، وهى الفيصل والفصل، معلقة برأى النبى الخاتم صلى الله عليه وسلم، فقال (على): «أعنت أنا وحمزة عبيدة بن الحارث على أبى الوليد، فلم يعب النبى علينا ذلك»[٢٠].

وقبل أن تفيق قريش من ذهولها أمام قتل صناديدها، ومن حميتها إزاء كسر قواعد المبارزة، ومقتل شيخها عتبة بسيوف ثلاثة تكاثرت عليه، أخذ النبى حفنة من الحصباء استقبل بها قريشاً، ونفحها بها قائلاً: شاهت الوجوه، ثم هتف بأصحابه: شدوا[٢١]، بينما ثنى نحو صفوف النبالة التى ثبتت وراء نواتىء التلول لتِحمى المسلمين السيافة المنقضين على قريش، يقول: «إن دنا القوم منكم فانضحوهم بالنبل واستبِقوا نبلكم... ولا تسلوا السيوف حتى يغشوكم»[٢٢].

وهكذا بدأت وقعة بدر الكبرى، وهكذا كان التخطيط الجيد والإعداد الدقيق، الذى تفاعلت فيه خطة القائد وعزمه، مع خبرة أركان حربه من رجال الدم والحرب والحلقة، صفوف صفوف، منها من يشد على الأعادى ومنها من يحمى بسهامه المتقدمين، فلم يترك شيئاً للصدفة، ولا أمراً للهوى، وهو ما كانت نتيجته المحتمة، ما سجلته كتب السير والأخبار:

> فكانت الهزيمة، فقتل الله من قتل من صناديد قريش، وأسر منهم من أسر[٢٣].

هذا بينما استكان القائد إلى عريشه مع أبى بكر، وعلى رأس التل وقف سعد بن معاذ يتأمل ما يحدث تحته فى الوادى، ورأى النبى فى وجهه شيئاً فقال له: «لكأنك يا سعد تكره ما يصنع الناس!!»[٢٤].

وكان حصاد المعركة ما جاء فى تقرير (الطبرى) «فقتل منهم سبعون رجلاً وأسر منهم سبعون رجلاً»[٢٥]، بينما كان شهداء المسلمين فى تقرير (البيهقى) «من قريش ـ المهاجرين ـ ستة نفر، ومن الأنصار ثمانية نفر»[٢٦].

---

(٢٠) الحلبى: سبق ذكره، مج ٢، ص ٤٠١.
(٢١) السهيلى: سبق ذكره، مج ٣، ص ٣٩.
(٢٢) الحلبى: سبق ذكره، مج ٢، ص ٤٠٣.
(٢٣) البيهقى: سبق ذكره، ج ٣، ص ١٢٢.
(٢٤) الطبرى: سبق ذكره، ص ٤٤٩.
(٢٥) نفسه: ص ٢٩٧.
(٢٦) البيهقى: سبق ذكره، ص ١٢٢.

وبفرار أهل مكة فراراً بلا كرامة، وسقوط بعضهم قتلى أو أسرى، هبط النبى ليأمر بإلقاء الجثث فى القليب، ليعتمل فى النفس ما كان يجيش بها، وينطق اللسان النبوى منادياً:

> يا أهل القليب؛ بئس عشيرة النبى كنتم لنبيكم، كذبتمونى وصدقنى الناس، وأخرجتمونى وآوانى الناس، وقاتلتمونى ونصرنى الناس، هل وجدتم ما وعدكم ربكم حقاً؟ فإنى وجدت ما وعدنى ربى حقاً(٢٧).

وبينما المسلمون يسحبون قتلى المشركين إلى القليب، وقف (أبو حذيفة بن عتبة) يتطلع إلى أبيه وهم يجرجرونه، وهو من سبق واحتج قبل الوقعة على أمر النبى بعدم قتل بنى هاشم، حيث قال:

> أنقتل آباءنا وإخواننا وعشيرتنا ونترك العباس؟ والله لئن لقيته لألحمنه السيف، فبلغت مقالته رسول الله ـ عليه الصلاة والسلام ـ فقال لعمر بن الخطاب: يا أبا حفص، أيضرب وجه عم رسول الله بالسيف؟ فقال عمر: يا رسول الله ائذن لى فأضرب عنقه، فوالله لقد نافق، فكان أبو حذيفة يقول: والله ما أنا بآمن من تلك الكلمة التى قلت(٢٨).

ويروى ابن هشام مستكملاً المشهد:

> وأخذ عتبة بن ربيعة فسُحب إلى القليب، فنظر رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى وجه أبى حذيفة بن عتبة، فإذا هو كئيب قد تغير، فقال: يا أبا حذيفة، لعلك قد دخلك فى شأن أبيك شىء؟ فقال: لا والله يا رسول الله، ما شككت فى أبى ولا فى مصرعه، ولكننى كنت أعرف من أبى رأياً وحلماً وفضلاً، فكنت أرجو أن يهديه ذلك إلى الإسلام(٢٩).

وهكذا جاءت قريش إلى بدر لتنشر هيبتها، فنثرتها، وجاء الملأ ليعلنوا للعرب أنهم حماة بيت الله، وأنهم قادرون على حماية تجارتهم وأمنها، برعاية رب البيت، لأنهم كما أسماهم العرب (أهل الله)، فما عاد الملأ إلى مكة، وذهبوا تحت رمال القليب، وبدلاً من رسالة أرادوها مبلغة للامبراطوريتين، بلغت رسالة أخرى تبرق بخبر آخر، عبرت عنها أشعار تنسبها كتبنا التراثية إلى الجن، وهى تقول:

---

(٢٧) السهيلى: سبق ذكره، ص ٥١.

(٢٨) ابن سيد الناس: عيون الأثر، سبق ذكره، ج ١، ص ٣١٠.

(٢٩) السهيلى: سبق ذكره، ص ٥١، ٥٢.

أزار الحنيفيـــون بـــدراً وقيعـــة | سينقض منها ركن كسرى وقيصرا
أبـادت رجـالاً من لـؤى وأبرزت | خرائـد يضـربـن الترائـب حسّـرا
فياويـح من أمسـى عـدو محمـد | لقد قار عن قصد الهوى وتحيرا[٣٠].

وانتهى أمر الملأ، وهى النهاية التى جاء أمرها جلياً فى طريق عودة الركب المنتصر، حيث جاء الناس يهنئون النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالنصر، فما كان من (سلمة بن سلامة) ذرب اللسان المفصح العجول، إلا أن برز برأسه من بين الناس ليقول:

ما الذى تهنئوننا به؟ فوالله ما لقينا إلا عجائز صُلعاً كالبدن المعقلة، فنحرناها، فتبسم رسول الله ثم قال: لكن يا ابن أخى، أولئك هم الملأ[٣١].

وهو ذات الإفصاح الذى أفصح عنه لسان (المغيرة بن الحارث) على الجانب القرشى، عندما عاد المهزومون فراراً إلى مكة، فالتقاهم (أبو لهب) ينادى (المغيرة): «هلم إلىّ فعندك لعمرى الخبر اليقين»، فأجابه (المغيرة) بخبره اليقين، موجزاً قصة المفاجأة فى بدر بقوله:

والله ما هو إلا أن لقينا القوم، فمنحناهم أكتافنا، يقتلوننا كيف شاءوا، ويأسروننا كيف شاءوا[٣٢].

وهكذا سقطت الرؤوس الأرستقراطية الصلبة، وتحقق الوعد الإلهى بإحدى الطائفتين العير أو قريش، فكانت الثانية: قريشاً.

فداء الأسرى

وكان الأسرى خير عوض عن عير (أبى سفيان)، بما دفعه أهل مكة فيهم لفك أسرهم، حتى (العباس) عم النبى، ورغم حب النبى له ولآل البيت الهاشمى، فقد دفع (العباس) فديته، وكان حب النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ لبيته الهاشمى مرحمة ملكت عليه فؤاده الرءوف، فهو لم ينس أنهم كانوا حماته ودرع دعوته الواقى بمكة، ثم عيوناً له على المكيين بعد هجرته إلى يثرب،

(٣٠) البيهقى: سبق ذكره، ص ٣٠٩.
(٣١) محمد أبو الفضل ومحمد البجاوى: أيام العرب فى الإسلام، دار الحداثة، بيروت، ط ١، ١٩٨٣، ص ٢٥.
(٣٢) ابن كثير: سبق ذكره، ص ٣٠٩.

رغم عدم اتباعهم لدعوته، فكانت منعتهم له عصبية قبلية ووفاء عشائرياً، مع دافع آخر هام يتمثل فى صراعهم مع الأمويين بنى عبد شمس، وهو موقف وإن تعارض مع الدعوة الأممية الطالعة، التى تنزع الولاء عن القبيلة وتضعه بيد العقيدة ودولتها الواحدة، فإن تلك النزعة العشائرية كانت ذات أثر ودور عظيم، فى حماية صاحب الدعوة، ومن ثم دعوته، حتى وصل إلى حمى أخواله اليثاربة، الذين زادوا على الأزرة القرابية، الإيمان بدعوته، ومن ثم كان الوفاء النبوى واضحاً فى كتب السيرة، وهى تروى بلسان ابن عباس:

> لما أمسى رسول الله يوم بدر، والأسارى محبوسون بالوثاق، بات الرسول ساهراً أول الليل، فقال له أصحابه: يا رسول الله مالك لا تنام؟؟ - وقد أسر العباس رجل من الأنصار - فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: سمعت أنين عمى العباس فى وثاقه، فأطلقوه، فسكت، فنام رسول الله.

لكن مثل ذلك الوفاء والحنين، كان ممكناً أن يثير تساؤلات مشروعة فى نفوس أتباع هجروا العشائرية، ومنحوا الولاء كله لدعوة ترفض الأطر القبلية بل تحطمها، ومن ثم كان يمكن لذلك الوفاء النبوى أن يثير اعتراضات، سبق أن رأينا لها مثيلاً فى موقف (أبى حذيفة بن عتبة)، ومن هنا كان التوازن، الذى يظهر فى رواية ابن اسحق «وكان أكثر الأسارى يوم بدر فداء، العباس بن عبد المطلب، وذلك لأنه كان رجلاً موسراً، فافتدى نفسه بمائة أوقية ذهب»[٣٣]. ويقول (ابن كثير) إن ذلك الفداء الضخم «كان عن نفسه، وعن ابنى أخويه عقيل ونوفل، وعن حليفة عتبة ابن عمرو»[٣٤].

ويروى (البيهقى) أن رجالاً ممن أسروا ببدر قالوا للنبى: «إنّا كنا مسلمين، وإنما أُخرجنا كرهاً، فعلام يؤخذ منا الفداء؟! فأنزل الله عز وجل: ﴿يا أيها النبى قل لمن فى أيديكم من الأسرى إن يعلم الله فى قلوبكم خيراً يؤتكم خيراً مما أخذ منكم ويغفر لكم والله غفور رحيم﴾ (٧٠/ الأنفال)[٣٥]. ويذهب (ابن كثير) إلى أن تلك الرواية كانت خاصة بالعباس بن عبد المطلب ونفر معه:

> حين ادعى أنه كان قد أسلم[٣٦].

(٣٣) البيهقى: سبق ذكره، ص ١٤١.
(٣٤) ابن كثير: سبق ذكره، ص ٣٠٠.
(٣٥) البيهقى: سبق ذكره، ص ١١٩.
(٣٦) ابن كثير: سبق ذكره، ص ٣٠٠.

فأصر النبى على دفعه الفدية، فتقدم آسروه من الأنصار يجاملون النبى برغبتهم فى تركه دون فداء، فكان رد النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ:

لا والله لا تذرون منه درهماً واحداً.

ورغم إعلان العباس إسلامه، فقد ظل إصرار النبى على دفعه الفداء، وهو أمر يمكن فهمه فى ضوء ما يحقق من أغراض، فهو التوازن الذى يحفظ المحتوى للدعوة، أو ما يحفظ المحتوى العشائرى داخل النسق الأممى عند صاحب الدعوة، أمام أشخاص مثل (أبى حذيفة)، فى مرحلة لم تزل فيها القلاقل قائمة أمام استقرار أمر الدولة الطالعة واستقامته، ونزولاً بمستوى العباس الطبقى إلى مستوى يقترب فيه مع بقية المسلمين، فى ضوء زعمه الإسلام، وهم من تقاربت أوضاعهم الاقتصادية وذابت بينهم الفوارق فى تلك المرحلة، بتوزيع الأنفال البدرية بينهم بالتساوى.

ولكن عندما تغيرت الأحوال بعد ذلك، بعد قيام الدولة وصلابة عودها ومنعتها، تم تعويض العباس خيراً مما أخذ منه فى فداء أسره من بدر، وصدق الله وعده فى الآيات، وهو ما جاء فى رواية أنس:

إن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ أُتى بمال من البحرين، فقال: انثروه فى المسجد، فكان أكثر مال أتى به رسول الله، إذ جاءه العباس فقال: يا رسول الله اعطنى، فإنى فاديت نفسى وفاديت عقيلاً، فقال: خذ، فحثا ثوبه ثم ذهب يقله فلم يستطع، فقال مر بعضهم برفعه إلىّ، قال: لا، قال: فارفعه أنت علىّ قال: لا، فنثر منه، ثم احتمله على كاهله فانطلق[٣٧].

ويتضح لنا ذلك الصراع بين الأممية والقبلية، فى لحظة العودة من بدر، ومعهم الأسرى وفيهم العباس وبعض بنى هاشم، فاستشار النبى أصحابه بشأنهم، والرواية هنا تبرز بوضوح موقف من بدّل ولاءه تماماً نحو الأممية الجديدة، وهو الموقف المتناقض مع موقف آخر لا زال يستبطن القبلية وحميتها، ثم موقف ثالث هو موقف النبى ـ عليه الصلاة والسلام ـ واصطراع الأمرين داخل نفسه البشرية، فهذا (عمر بن الخطاب) يتجاوز كل ألوان الولاء القبلى بأممية صارمة صادقة، إعمالاً لمبادىء الدعوة وتصديقاً لها، فيقول:

يا رسول الله؛ كذبوك، وأخرجوك، وقاتلوك، أرى أن تمكننى من فلان

---

(٣٧) الموضع نفسه.

فأضرب عنقه (وهو قريب له)، وتمكن عليا من أخيه عقيل فيضرب عنقه، وتمكن حمزة من العباس أخيه فيضرب عنقه، حتى يعلم أنه ليست فى قلوبنا مودة للمشركين.

أما ابن رواحة فكان رأيه أشد صرامة، وأكثر رغبة فى التشفى، فقال:

انظروا وادياً كثير الحطب، فأضرمه عليهم ناراً، فقال العباس - وهو يسمع - ثكلتك رحمك[38].

هذا بينما كان أبو بكر فى أقصى اليمين يقول بالأخرى:

يا رسول الله؛ نرى أن تعفو عنهم، وأن تقبل منهم الفداء، فذهب عن وجه رسول الله ما كان فيه من الغم[39].

أو برواية أخرى:

يا رسول الله؛ أهلك وقومك.. هؤلاء بنو العم والعشيرة والإخوان، قد أعطاك الله الظفر، ونصرك عليهم، أرى أن تستبقيهم وتأخذ منهم الفداء، فيكون ما أخذنا منهم قوة لنا على الكفار[40].

القبلية والأممية

وكان أبلغ المواقف على استبطان النبى - عليه الصلاة والسلام - للرحم، والعلاقة العشائرية والأسرية، رغم المتغير المطلوب، ورغم أممية الدعوة واستبدالها العلاقات القديمة بعلاقات جديدة وبالولاء القديم ولاء جديداً، بعلاقات إيمانية تحطم القبلية، كان أبلغ هذه المواقف ما جاء فى قصة فداء (أبى العاص بن الربيع)، زوج (زينب) بنت النبى الكريم - عليه الصلاة والسلام -.

يروى الطبرى:

كان الإسلام قد فرق بين زينب بنت رسول الله حين أسلمت، وبين

(38) الحلبى: سبق ذكره، ص ٤٤٧.
(39) ابن كثير: سبق ذكره، ص ٢٧٩.
(40) الحلبى: سبق ذكره، ص ٤٤٦.

أبى العاص بن الربيع، إلا أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - كان لا يقدر على أن يفرق بينهما، فأقامت معه على إسلامها، وهو على شركه، .... فأصيب فى الأسارى يوم بدر[٤١].

ويكمل ابن كثير:

عن عائشة قالت: لما بعث أهل مكة فى فداء أسراهم، بعثت زينب بنت رسول الله فى فداء أبى العاص بمال، وبعثت فيه بقلادة لها، كانت خديجة قد أدخلتها بها على أبى العاص حين بنى عليها، فلما رآها رسول الله - صلى الله عليه وسلم - رقّ لها رقة شديدة وقال: إن رأيتم أن تطلقوا لها أسيرها، وتردوا عليها الذى لها[٤٢].

ويتابع ابن هشام فيقول: إن النبى - صلى الله عليه وسلم - أخذ على أبى العاص أن يخلى سبيل زينب، ويرسلها إلى حيث سينتظرها أتباع من يثرب على حدود مكة، وعن عبد الله بن أبى بكر قال: «حدثت عن زينب أنها قالت: بينما أنا أتجهز بمكة للحوق بأبى، لقيت هنداً بنت عتبة، فقالت: يا بنت محمد، ألم يبلغنى أنك تريدين اللحوق بأبيك؟ فقالت: ما أردت ذلك... فلما فرغت بنت رسول الله من جهازها، قدم لها حموها كنانة بن الربيع أخو زوجها بعيراً فركبته، وأخذ قوسه وكنانته وخرج بها يقودها نهاراً وهى فى هودج لها، وتحدث بذلك رجال من قريش فخرجوا فى طلبها، حتى أدركوها بذى طوى... وبرك حموها كنانة ونثر كنانته ثم قال: والله لا يدنو منى رجل إلا وضعت فيه سهماً، فتكركر الناس عنه، وأتى أبو سفيان فى جلة من قريش فقال: أيها الرجل كف عنا نبلك حتى نكلمك، فكف، فأقبل أبو سفيان حتى وقف عليه، فقال: إنك لم تصب إذ خرجت بابنته علانية على رؤوس الناس من بين أظهرنا، إن ذلك عن ذل أصابنا عن مصيبتنا التى كانت، وإن ذلك منا ضعف ووهن، ولعمرى ما لنا بها عن أبيها من حاجة، وما لنا فى ذلك من ثورة، ولكن ارجع بالمرأة حتى إذا هدأت الأصوات، وتحدثت الناس أننا قد رددناها، فسلّها سراً والحقها بأبيها، ففعل».

وفى الروايات، أن الذين طاردوا زينباً، كانا هبار بن الأسود، ونافع بن عبد القيس، فروعاها، فأفرغت بطنها وكانت حاملاً، ولما رجع الرجلان إلى مكة، قابلتهما هند تذمهما وتقول:

(٤١) الطبرى: سبق ذكره، ص ٤٦٨.

(٤٢) ابن كثير: سبق ذكره، ص ٣١٢.

أفي السلم أعيار جفاء وغلظة وفي الحرب أشباه النساء العوارك[٤٣].

(والنساء العوارك هن الغوانج)، أما النبى فكان له موقف آخر من الرجلين، إذ أمر ببعث سرية، أمر رجالها أن يظفروا بهبار ونافع، وأن يحرقوهما بالنار جزاء ما قدمت يداهما فى حق ابنته، لكنه عاد فأرسل لهم قبل خروجهم:

إنى كنت أمرتكم بتحريق هذين الرجلين، إن أخذتموهما، ثم رأيت أنه لا ينبغى لأحد أن يعذب بالنار إلا الله، فإن ظفرتم بهما فاقتلوهما.

ويتابع ابن اسحق راوى السيرة فيقول: «وأقام أبو العاص بمكة، وأقامت زينب عند رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالمدينة، حين فرق الإسلام بينهما، حتى إذا كان قبيل الفتح، خرج أبو العاص تاجراً إلى الشام ـ وكان رجلاً مأموناً ـ بماله وأموال رجال لقريش أبضعوها معه، فلما فرغ من تجارته وأقبل قافلاً، لقيته سرية لرسول الله، فأصابوا ما معه، وأعجزهم هارباً، فلما قدمت السرية بما أصابوا من مال، أقبل أبو العاص تحت الليل، حتى دخل على زينب بنت رسول الله، فلما خرج رسول الله إلى الصبح... كبر وكبر الناس معه، صرخت زينب من صفة النساء: أيها الناس إنى قد أجرت أبا العاص بن الربيع، فلما سلم رسول الله من الصلاة أقبل على الناس فقال: أيها الناس هل سمعتم ما سمعت؟ قالوا: نعم، قال أما والذى نفس محمد بيده ما علمت بشىء من ذلك حتى سمعتم ما سمعتم، إنه يجير على المسلمين أدناهم.

ثم انصرف فدخل على ابنته فقال: أى بنية أكرمى مثواه، ولا يخلصن إليك فإنك لا تحلين له... ثم بعث إلى السرية الذين أصابوا مال أبى العاص فقال: إن هذا الرجل منا حيث قد علمتم، وقد أصبتم له مالاً، فإن تحسنوا تردوا عليه الذى له، فإنا نحب ذلك، وإن أبيتم فهو فىء الله الذى أفاء عليكم، فأنتم أحق به، فقالوا: يا رسول الله بل نرده عليه، فردوه عليه... ثم احتمله إلى مكة فأدى إلى كل ذى مال ماله من قريش»، وعاد بعد ذلك إلى يثرب مسلماً، ويروى ابن عباس أن النبى قد رد عليه زينب على النكاح الأول، وفى رواية لأبى عبيدة «أن أبا العاص لما قدم من الشام ومعه أموال المشركين:

ـ قيل له: هل لك أن تُسلم وتأخذ هذه الأموال، فإنها أموال المشركين.

ـ فقال: بئس ما أبدأ به إسلامى، أن أخون أمانتى»[٤٤].

---

(٤٣) نفسه: ص ٣٣١.

(٤٤) السهيلى: سبق ذكره، ص ٥٨ : ٦٠.

وموقف (أبى العاص) هنا يتفق تماماً ويتطابق مع الإفراز الحتمى للظرف التاريخى والاقتصادى، فأمانة الرجل التى فرضت عليه عدم الاستيلاء على أموال قريش، هى ناتج طبيعى لظرف مكة التجارى، الذى أفرز ثقة متبادلة بين أصحاب المال، وبين القائم على الرحلة المسافرة، باعتباره أيضاً عضواً ضمن الطبقة، ومن ثم فرض ظرف مكة الجغرافى، وعدم إمكان خروج كل المسهمين مع القافلة، ثقة وأمانة على درجة عالية، للحفاظ على سيولة التجارة واستمرارها، لأن أى خلاف أو اختلاس أو فقد للثقة، كان كفيلاً بدمار مصلحة الجميع، وهى الأمانة التى لم تكن فى منطقهم تتعارض أبداً مع سلوكيات أخرى، كالربا والاحتكار، فهى ألوان من الكسب المشروع، ولون من التجارة والربح مباح، وقد أشار النبى - عليه الصلاة والسلام - إلى الأمانة القرشية، مع ضيق أفق الرؤوس المكية وقصورها، عن إدراك دور الرأسمالية القرشية فى مشروع الوحدة الكبرى، بقوله لأبى قتادة الأنصارى بعد غزوة أحد، عندما أراد أبو قتادة التمثيل بجثث القرشيين كما مثلوا بحمزة بن عبد المطلب:

> يا أبا قتادة، إن قريشاً أهل أمانة، من بغاهم أكبه الله تعالى إلى فيه،
> وعسى إن طالت بك مدة أن تحقر عملك مع أعمالهم، وفعالك مع فعالهم،
> ولولا أن تبطر قريش لأخبرتها بما لها عند الله(٤٥).

والقول الشريف هنا يفصح عن خبيئة نفس المصطفى - عليه الصلاة والسلام - لأهله وبلده، وعن التناقض الآتى الذى سيفصح عن نفسه فى أواخر الحياة النبوية المشرفة، فى فتح مكة وتوزيع المكاسب فى هبات وإقطاعات وأعطيات لأهل قريش من الطلقاء والمؤلفة قلوبهم، ثم ما أفصح عنه اجتماع سقيفة بنى ساعدة، وانتهى بصب الأمر فى النهاية بيد قريش، أما الآن وفى ظرف بدر الراهن، فإن قطع المسلمين للطريق التجارى، والاستيلاء على قوافل مكة، وقتل رجال حكومة الملأ الصناديد والرؤوس والأشراف، كان حلقة - فرضها الظرف، وعدم وعى المكيين - فى حلقات التطور الحتمى الآتى، ودفعاً للموقف عبر مسيرته الضرورية، وإبلاغاً للروم والعجم، أن الأمر قد صار إلى مدينة أخرى، وإلى يد أخرى، ونظام آخر.

---

(٤٥) الحلبى: سبق ذكره، ص ٥٢٥.

باب أول

المزايدات فى قصة بدر

«أما لكم فى اللبن من حاجة ؟!»

[نداء قرشى فى وقعة بدر]

حروب دولة الرسول

جزء أول

عن (على بن أبى طالب) كرم الله وجهه - فى وقعة بدر - قال: «حملنى الرسول على فرسة فجمزت بى، فوقعت على عقبى، فدعوت الله، فأمسكت، فلما استويت عليها، طعنت بيدى هذه فى القوم حتى اختضب هذا، وأشار إلى إبطه»[1]. محققا لنفسه بذلك ضحك الله من عبد يغمس يده فى العدو.

وهو الأمر الذى يدعو إلى التساؤل حول رواية كتب السير والأخبار، عن كراهة (سعد بن معاذ) لرؤية ما يصنع المسلمون بالمشركين، وعن كون تلك الكراهة ناتجة عن أخذ المكيين أسرى، بدلاً من قتلهم، والتساؤل مع اختضاب إبط (على) بالدم: هل كان المتفشى فى بدر هو القتل أم الأسر؟ وأيهما كان غرض المعركة الأساسى؟.

إن تعادل عدد القتلى والأسرى ربما يغنى عن طرح السؤال، لكن فى واقع ما حدث تحت غبار وقعة بدر، ما يشير إلى رغبة متأججة فى الثأر من صناديد الملأ القرشى، الذين سبق أن أخرجوا المسلمين من ديارهم وأبنائهم، فهناك وقائع لها نفس دلالات قول الإمام على كرم الله وجهه، أعطاها مشروعيتها دعوة الآيات:

﴿فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان﴾ (١٢/الأنفال).

والأمر على الترتيب فى الوحى هو:

﴿فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب حتى إذا أثخنتموهم فشدوا الوثاق فإما مناً بعد وإما فداء﴾ (٤/محمد).

فأولاً: ضرب الأعناق، وفصل الرقاب، وكل بنان، ثم بعد ذلك: شد الوثاق طلباً للفداء، دعماً مادياً للمسلمين، أو المن على البعض الآخر، رغم شركهم وعدم إيمانهم، كما سنرى له أمثلة الآن.

وقد أفاضت كتب السيرة بشأن مقتلة عدد من الرؤوس القرشية، منهم (أبو البخترى بن هشام)، وكان مفترضاً عدم قتله بأمر من الرسول - عليه الصلاة والسلام - رغم عدم إيمانه بدعوته الدينية، فلم يعقد أمره حول الإيمان من عدمه، إنما لأسباب أخرى تقول:

> نهى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عن قتل أبى البخترى، لأنه كان أكف القوم عن رسول الله وهو بمكة، وكان لا يؤذيه، ولا يبلغه عنه شىء يكرهه، وكان ممن قام فى نقض الصحيفة، التى كتبت قريش على بنى هاشم وبنى عبد المطلب[2].

---

(١) البيهقى: دلائل النبوة، سبق ذكره، السفر الثالث، ص ٥٥.

(٢) السهيلى: (فى شرح السيرة النبوية لابن هشام)، سبق ذكره، مج ٣، ص ٣٩، ٤٠.

كذلك كان النبى بوفاء رحمي، قد نهى أيضاً عن قتل عمه (العباس بن عبد المطلب)، ومن تواجد من بني هاشم في بدر، رغم عدم إيمانهم بدعوته الدينية.

وقرب انتهاء وقعة بدر، بينما الناس يهربون أو يتخفون، لقى (المجذر بن زياد البلوى) أبا البختري، ومع (أبى البخترى) صديق له خرج معه من مكة، هو (جنادة بن مليحة)، فقال له (المجذر)، ورد عليه (أبو البخترى)، في حوار له أهمية:

المجذر: إن رسول الله قد نهانا عن قتلك.

أبو البخترى: وزميلى؟

المجذر: لا والله، ما نحن بتاركي زميلك، ما أمرنا رسول الله إلا بك وحدك.

أبو البخترى: لا والله إذن، لأموتن أنا وهو جميعاً، ولا تتحدث عنى نساء مكة، أني تركت زميلي.

فقتله المجذر... ثم أتى رسول الله فقال: والذى بعثك بالحق، لقد جهدت عليه أن يستأسر فآتيك به، فأبى إلا أن يقاتلنى، فقتلته»[٣].

والشاهد هنا، أن الرجل المسلم طلب من (أبى البخترى) الاستسلام للأسر، فأبى (أبو البخترى)، إن كان فى ذلك إنقاذ حياته، وترك زميله يقتل، بإباء عربى يثير الإعجاب وفيه إجابة أولى عن السؤال المطروح.

أما الشاهد الثانى ففي رواية (عبد الرحمن بن عوف) عن مقتل (أمية بن خلف)، حيث قال (عبد الرحمن): «كان أمية صديقاً لي بمكة، وكان اسمي عبد عمرو فتسميت حين أسلمت عبدالرحمن ونحن بمكة، فكان يلقاني إذ نحن بمكة فيقول: يا عبد عمرو، أرغبت عن اسم سماكه أبواك؟ فأقول: نعم، فيقول: فإني لا أعرف الرحمن، فاجعل بيني وبينك شيئاً أدعوك به، أما أنت فلا تجيبني باسمك الأول، وأما أنا فلا أدعوك بما لا أعرف، قال: فكان إذا دعاني؛ يا عبد عمرو لم أجبه، قال: فقلت له: يا أبا علي اجعل ما شئت، قال: فأنت عبد الإله، فقلت: نعم، فكنت إذا مررت به قال: يا عبد الإله، فأجيبه وأتحدث معه، حتى إذا كان يوم بدر مررت به، وهو واقف مع ابنه عليّ بن أمية، آخذ بيده، ومعى أدراع قد استلبتها فأنا أحملها، فلما رآني قال لي: يا عبد

---

(٣) الحلبي: السيرة، سبق ذكره، ص ٤١٤.

عمرو، فلم أجبه، فقال: يا عبد الإله، قلت: نعم، قال: هل لك فيَّ فأنا خير لك من هذه الأدراع التي معك، قلت: نعم، ها لله ذا، فطرحت الأدراع من يدى، وأخذت بيده ويد ابنه وهو يقول:

ما رأيت كاليوم قط، أما لكم فى اللبن من حاجة؟

ثم خرجت أمشى بهما، قال ابن هشام: يريد باللبن،

أنه من أسرنى افتديت منه بإبل كثيرة اللبن.

فوالله إنى لأقودهما، إذ رآه بلال معى، وكان هو الذى يعذب بلالاً بمكة ليترك الإسلام... فلما رآه قال:

رأس الكفر أمية بن خلف، لا نجوت إن نجا

ثم صرخ بأعلى صوته:

يا أنصار الله، رأس الكفر أمية بن خلف، لا نجوت إن نجا،

فأحاطوا بنا حتى جعلونا فى مثل المسكة، وأنا أذب عنه»[٤].

فهنا رجل تأبى عليه عزته الهرب مع من هرب، فيقف فى الميدان مستمداً الشجاعة والدفء من الإمساك بيد ولده على، حتى إذا لقى صديقه المسلم ناداه طالباً منه أسره مع ولده، ليضمن معاملة أفضل وهو فى الأسر، كما يضمن لصديقه أقصى انتفاع متى حان وقت الفداء، ثم هو يبدى دهشته لكثرة القتل، بينما بالعقلية التجارية يكون الأسر أكثر نفعاً لعائديته بإبل ولبن ومال وذهب، واختتم ابن كثير مقتلة أمية وولده علىّ، برواية عبد الرحمن بن عوف: «فلما خشيت أن يلحقونا، خلفت لهم ابنه لأشغلهم، فقتلوه، ثم أتوا حتى تبعونا، وكان رجلاً ثقيلاً، فلما أدركونا قلت له: ابرك، فبرك فألقيت نفسى عليه لأمنعه، فتخللوه بالسيوف من تحتى»[٥]، أو بتعبير ابن هشام:

هبروه بأسيافهم، من الهبرة، وهى القطعة العظيمة من اللحم، أى قطّعوه[٦].

وعن مقتلة (أبى جهل)، تروى كتب السير «وكان أول من لقى أبا جهل، (معاذ بن عمرو بن

---

(٤) السهيلى: سبق ذكره، مج ٣، ص ٤٠.

(٥) ابن كثير: البداية والنهاية، سبق ذكره، ج ٣، ص ٢٨٧.

(٦) السهيلى: سبق ذكره، مج ٣، ص ٤٨.

الجموح) ... قال: سمعت القوم وأبو جهل فى مثل الحرجة (الشجر الملتف) وهم يقولون: أبو الحكم لا يخلص إليه... فصمدت نحوه، فلما أمكننى حملت عليه فضربته ضربة أطنت قدمه بنصف ساقه،... وضربنى ابنه عكرمة على عاتقى فطرحت يدى، فتعلقت بجلدة من جنبى، وأجهضنى القتال عنه، فلقد قاتلت عامة يومى، وإنى لأسحبها خلفى، فلما آذتنى وضعت عليها قدمى ثم تمطيت حتى طرحتها،[7].

وهكذا كانت الإصابة الأولى لأبى الحكم بن هشام، فقطع (معاذ بن عمرو بن الجموح) ساقه، وتركه عقيراً بين الأحراش بعد أن قام ابنه (عكرمة) يذب عنه، وظل على حاله بينما انشغل (عكرمة) فى القتال، ثم فى الهرب، حتى مر به (معوذ بن عفراء) فناوشه وهو يدافع عن نفسه، حتى ناله (معوذ) بضربة أخرى أثبتته عن الحركة[8]، حتى مر عليه (عبد الله بن مسعود)، الذى يروى فيقول: ،وجدته بآخر رمق، فعرفته، فوضعت رجلى على عنقه... فقال لى أبو جهل:

لقد ارتقيت يا رويعى الغنم مرتقى صعباً[9].

أما (ابن مسعود) فيسوق لنا تدقيقه فى الرواية، حتى ما مر بذاكرته من ذكرى طافت به وهو يقف على رأس عدوه، إذ يقول:

وقد كان ضبث بى مرة بمكة، فآذانى ولكزنى[10].

ثم يسوق ذكرى أخرى فى روايته بدلائل البيهقى:

وانتهيت إلى أبى جهل وهو صريع، ومعه سيف جيد ومعى سيف رث، فجعلت أنقف رأسه بسيفى، وأذكر نقفاً كان ينقف رأسى بمكة، حتى ضعفت يدى[11].

ويستمر (ابن مسعود) لينقل عنه (الحلبى) فى سيرته، قوله:

فبصق فى وجهى وقال: خذ سيفى واحتز به رأسى من عرشه، ليكون

---

(٧) نفسه: ص ٤٢.

(٨) الموضع نفسه.

(٩) ابن سيد الناس: عيون الأثر، سبق ذكره، ج ١، ص ٣١٤.

(١٠) الطبرى: تاريخ الرسل والملوك، ج ٢، ص ٤٥٥.

(١١) البيهقى: سبق ذكره، ج ٣، ص ٨٨.

أنهى للرقبة ... ففعلت ذلك ثم جئت به إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقلت هذا رأس عدو الله أبى جهل، فقال رسول الله: ألله الذى لا إله غيره، ورددها ثلاثاً.

وروى الطبرانى: ألله قتلت أبا جهل؟ قلت: نعم، والله الذى لا إله غيره، ثم ألقيت رأسه بين يدى رسول الله، فحمد الله تعالى، ويقال أنه سجد خمس سجدات شكراً[١٢].

أما (نوفل بن خويلد) الذى كان يصيح فى بداية الوقعة «يا معشر قريش؛ إن هذا اليوم يوم العلا والرفعة»، فقد انتهى إلى نداء آخر مرتعش ينادى المسلمين:

ما حاجتكم إلى دمائنا؟ أما ترون ما تقتلون؟

أما لكم فى اللبن من حاجة؟

«فأسره جبار بن صخر، فهو يسوقه أمامه، فجعل نوفل يقول لجبار ـ وقد رأى علياً مقبلاً نحوه ـ يا أخا الأنصار؛ من هذا ؟ واللات والعزى إنى لأرى الرجل يريدنى؟ قال: هذا على بن أبى طالب، قال: ما رأيت كاليوم رجلاً أسرع فى قومه منه، فيصمد له علىّ، فيضربه، فنشب سيفه فى جحفته ساعة، ثم نزعه، فضرب ساقيه ودرعه مشمرة، فقطعها، ثم أجهز عليه فقتله»[١٣]. ومهما بحث عن سر وراء قتل ذلك الأسير ـ غير عدم إيمانه بالدعوة ـ فلن تجد سوى أنه كان أحد رؤوس قريش.

الأسـرى

وكان فى الأسرى (النضر بن الحارث) ربيب مدرسة جند يسابور، الذى تعلم هناك علوم الحضارات، بما فيها أخبار الأقدمين، فى بعث أثرياء مكة أبناءهم لمدارس الحضارات، وكان يقعد مع زميله (عقبة بن أبى معيط) للنبى بمكة مقعد رصد، ليتوجهوا له باستفسارات كثيرة بقصد الإحراج والإيذاء، وعادة ما كانوا يعقبون بقولهم للناس: تعالوا، نقول لكم أفضل مما قال، وللصدفة العجيبة أن يقع مع (النضر) فى الأسر، رفيقه المثقف (عقبة بن أبى معيط)، ليسيرا فى ركاب الركب المنتصر مقيّدين.

---

(١٢) الحلبى: سبق ذكره، مج ٢، ص ٤٢٠.

(١٣) البيهقى: سبق ذكره، ج ٣، ص ٩٤.

وقد وقع (النضر) أسيراً بيد (المقداد)، وتم ربطه مع بقية الأسرى الذين أخذوا يمرون أمام رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ومن ثم «نظر إلى النضر وهو أسير، فقال النضر للأسير الذى بجانبه: محمد والله قاتلى، فإنه نظر إلى بعينين فيهما الموت، فقال له: والله ما هذا منك إلا رعب، وقال النضر لمصعب بن عمير: يا مصعب أنت أقرب من هذا إلىّ رحماً، فكلم صاحبك أن يجعلنى كرجل من أصحابى ـ يعنى المأسورين ـ هو والله قاتلى، فقال مصعب: إنك كنت تقول فى كتاب الله كذا وكذا، وتقول فى نبيه كذا وكذا...»[14]. وفى أسباب النزول للسيوطى كان المقداد آسر النضر، وما أن أناخ الركب المنتصر بالصفراء، حتى أمر النبى بقتل النضر، فقال المقداد: يا رسول الله أسيرى، فقال له رسول الله: إنه كان يقول فى كتاب الله ما يقول[15].

وبعد ذلك بزمن، يوم فتح المسلمين لمكة، أنشدت شقيقته النبى شعراً يقول:

أمحمد لأنت ضنء نجيبة	فِى قومها، والفحل فحل معرق
ما كان ضرك لو مننت وربما	مَنَّ الفتى وهو المغيظ المحنق

وهنا عقب النبى بحنوه «لو بلغنى هذا الشعر قبل قتله لمننت عليه»[16]، أى لأطلقه، رغم ما قال فى كتاب الله وما فعل برسول الله، ومع عدم الإيمان بدعوة الإسلام(؟!).

وبعد مرحلة من الطريق، أناخ الركب بعرق الظبية، وأمر النبى (عاصم بن ثابت) بقتل رفيق (النضر) وزميل تلمذته (عقبة بن أبى معيط)، ولما أقبل إليه (عاصم بن ثابت)، دارت بينهما المحاورة التالية:

عقبة: يا معشر قريش، علام أقتل من بين من هنا؟

عاصم: على عداوتك لله ورسوله..

عقبة: أتقتلنى يا محمد من بين قريش؟

النبى: نعم، أتدرون ما صنع بى هذا؟ جاء وأنا ساجد خلف المقام، فوضع رجله على عنقى وغمزها، فما رفعها حتى ظننت أن عينى ستندارن، وجاء مرة أخرى بسلا شاة فألقاها على رأسى وأنا ساجد، فجاءت فاطمة فغسلته عن رأسى[17].

---

(١٤) الحلبى: سبق ذكره، مج ٢، ص ٤٤١.

(١٥) الموضع نفسه.

(١٦) الموضع نفسه.

(١٧) ابن كثير: سبق ذكره، ج ٣، ص ٣٠٦.

وهكذا أدرك (عقبة) مصيره جزاء ما قدمت يداه، حتى لو كان أسيراً، بعد أن كان بمكة سيداً مِترفاً، فكان أن تهاوت الكرامة والعزة، وتنازل عن كبريائه وصرخ مسترحماً فى استغاثة أخيرة يذكّر النبى بما لديه من أطفال منادياً:

فمن للصبية يا محمد؟ .

فجاءه رد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وهو فى دمائه يتخبط - : النار[١٨].

ووصل المسلمون ببقية الأسرى إلى يثرب، بينما كانت (سودة بنت زمعة) زوج النبى عند آل عفراء، تشاركهم مصابهم فى مناحتهم على ولديهم (عوذ) و(معوذ) اللذين استشهدا ببدر، حيث روت (سودة) - رضى الله عنها - : «والله إنى لعندهم إذ أتينا، فقيل: هؤلاء الأسارى قد أُتى بهم، فرجعت إلى بيتى ورسول الله فيه، وإذا أبو يزيد بن سهيل بن عمرو فى ناحية الحجرة، مجموعة يداه إلى عنقه بحبل، فلا والله ما ملكت نفسى حين رأيت أبا يزيد كذلك، أن قلت:

أى أبا يزيد؛ أعطيتم بأيديكم، ألا مُتمّ كراماً؟

فوالله ما نبّهنى إلا قول رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من البيت:

يا سودة؛ أعلى الله ورسوله تحرضين؟

قلت: يا رسول الله؛ والذى بعثك بالحق، ما ملكت نفسى حين رأيت أبا يزيد مجموعة يداه إلى عنقه، إلا أن قلت ما قلت»[١٩].

وتروى السير «وجاء مطعم بن مطعم وهو كافر إلى المدينة، يسأل النبى فى أسارى بدر، فقال له النبى - صلى الله عليه وسلم -: لو كان شيخك - أو لو كان الشيخ أبوك - حياً، فأتانا فيهم، لشفعناه، وفى رواية: لو كان مطعم حياً وكلمنى فى هؤلاء النفر، وفى رواية: فى هؤلاء النتنى، لتركتهم له».

أما تبرير ممكنات إطلاق مشركين لم يؤمنوا، بشفاعة المطعم، والاستجابة لإجارته، فلأن «المطعم كان قد أجار النبى لما قدم الطائف وكان ممن سعى فى نقض الصحيفة[٢٠]».

وفى السيرة أن (أبا عزة بن عبد الله) كان فى الأسر، فقام يتزلف النبى بمديحه شعراً، ثم

(١٨) السهيلى: سبق ذكره، مج ٣، ص ٥٣.

(١٩) نفسه: ص ٥٤.

(٢٠) الحلبى: مج ٢، ص ٤٥١.

طلب منه أن يمن عليه ويطلقه، لأنه صاحب حاجة وذو بنات، فأفرج عنه، فلما ذهب إلى مكة قال: سحرت محمداً وعاد يهجوه، حتى وقع بعد ذلك أسيراً يوم أحد، وكان الأسير الوحيد فى تلك الوقعة، فعاد للمديح وطلب العفو والمن، فأجابه النبى «لا أدعك تمسح عارضيك وتقول: خدعت محمداً مرتين، ثم أمر به فضربت عنقه، ويقال أن فيه قال رسول الله: لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين»(٢١).

مزايـدات

وعليه، يمكن بالقراءة الموضوعية، أن يستكشف المتابع ظروفاً أدت إلى وقعة بدر، وصاغت دقائق أحداثها، وحتّمت نتائجها، وأن يقرأ دور الجهد البشرى فى توجيه مجموعة العناصر المكونة للمقدمات والنتائج، ودورها الجدلى مع قواعد التطور الاقتصادى ومن ثم المجتمعى، كما يمكنه ببساطة وإنصاف، أن يقرأ دور التنظيم والتخطيط الواعى من قبل البشر لدفع ذلك التطور نحو غايته، والوقعة البدرية نحو نتائجها، وأثناء ذلك سيلمح لوناً من المزايدة التى ترقى بالحدث الموضوعى من مستوى الواقع إلى فضاء الأسطورة، أو هى على الأصح تهبط بالأسطورة لتغطية أرض الواقع، أو هى على التدقيق تفلت بحدث الواقع خارج دائرة الفعل الطبيعى والقدرات البشرية، وهى المزايدات التى ربما كانت إسهاماً أسهم به الرواة زمن الحدث، كل حسب ممكناته، وربما كانت إسهامات إضافية أضيفت زمن تدوين كتب السير والأخبار، وربما كانت مزايدات من أقوام كالمؤلفة قلوبهم والطلقاء لإثبات خلوص الإيمان، وقد كان الوعد بنزول الملائكة من وراء الكون المنظور إلى بقعة بدر لنصرة المسلمين، أحد أهم العوامل التى ساعدت على إعطاء الخيال الإنسانى مساحة واسعة للمزايدة، فإن هبطت الملائكة، فلا بأس إذن من حدوث أى خارق آخر.

لقد بدأت الروايات ملتصقة بالمقبول، وبواقع الحدث كما حدث، وهو ما يمكنك تلمسه فى تلك الروايات مع بداية قصها للواقعة البدرية، فهذا ـ مثلاً ـ أول شهيد مسلم مهاجر فى بدر (عبيدة بن الحارث)، الذى بارز (عتبة بن ربيعة)، فحمله رفيقاه (حمزة) و (على) إلى رسول الله «واحتملا صاحبهما عبيدة، فجاءا به إلى أصحابه، وقد قطعت رجله فمخّها يسيل، فلما أتوا بعبيدة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ألست شهيداً،... قال: بلى، فقال عبيدة: لو كان أبو طالب حياً لعلم أنى أحق منه حيث يقول:

(٢١) ابن كثير: سبق ذكره، ج ٣، ص ٣١٣.

ونسلم حتى نصرع حوله   ونذهل عن أبنائنا والحلائل»(٢٢).

وأسلم الرجل روحه شهيداً، ورأسه على فخذ رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ والقصة كما هو واضح، تسير سيراً طبيعياً، يذكر فيها (عبيدة) النبي بأهله الهاشميين ـ الذين منعوه من الأمويين ـ على رأسهم (أبو طالب) عم النبي، عندما حقب الأمر مع الأمويين وكاد يفضي إلى حرب بين أبناء العمومة، فأرسل (أبو طالب) شعره يؤكد لهم أنهم لن ينالوا من ولده (محمد)، حتى يفنى ويصرع حوله بنو هاشم وهم يدافعون عنه، بعصبية القبيلة ورحم العشيرة، ويتميز هنا (عبيدة) فى قوله: إنه أحق من أبى طالب بذلك الشعر، أنه مات بالفعل دفاعاً عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ودفاعاً عن دعوته، بل ومؤمناً بهذه الدعوة، وأن أعضاء الجماعة الإسلامية، الذين هجروا القبيلة إلى الأممية، هم الأحق بالشهادة، وأحق بالقول من (أبى طالب).

ثم نرحل إلى القصة التالية، وهى عن (معاذ بن عمرو بن الجموح)، الذى ضرب ساق (أبى الحكم)، فنال منه (عكرمة بن أبى الحكم) بضربة أطاحت ذراعه «وضربنى ابنه عكرمة بن أبى الحكم على عاتقى، فطرح يدى، فتعلقت بجلدة من جنبى... وإنى لأسحبها خلفى، فلما آذتنى وضعت عليها قدمى ثم تمطيت حتى طرحتها»(٢٣)، ومن ثم بدت الرواية قادرة على الإبهار، لمدى الصلابة والجلد عند ذلك البطل اليثربى، ولكن الأمر يبدأ هنا بالانتقال إلى فضاء الأسطورة، بمزايدات لحظنا أنها تبدأ عادة غير محددة المصدر، بالقول: «وفى رواية»، وهى بذلك رواية مجهولة السند، وهو ما بدأت به المزايدة فى قصة البطل (معاذ)، فى القول: «وفى رواية:

أنه جاء بها إلى الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ فبصق عليها، ولصقها، فلصقت»؟!(٢٤).

وهو ما نجد له شبيهاً فى روايات صيغت حول (أبى جهل ـ أبى الحكم)، الذى كان له شأن أجل من أن يمر بمقتله فى بدر ببساطة وينتهى الأمر، رغم ميتته البائسة التى سقاه إياها ثلاثة من المسلمين على التوالى، لأنه كان عدو رسول الله الألد، ومن ثم كانت مقتلته غير شافية للنفوس، فيصل الأمر إلى حد قول (الشعبى)، دون سند واضح لروايته عن قائل بعينه محدد الاسم، فيقول:

---

(٢٢) الطبرى: سبق ذكره، ج ٢، ص ٢٤٥، ٢٤٦.
(٢٣) السهيلى: سبق ذكره، مج ٣، ص ٤٢.
(٢٤) الحلبى: سبق ذكره، مج ٢، ص ٤١٩.

إن رجلاً قال للنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ: إنى مررت ببدر فرأيت رجلاً يخرج من الأرض، فيضربه رجل بمقمعة معه حتى يغيب فى باطن الأرض، ثم يخرج، فيفعل به مثل ذلك، قال ذلك مراراً، فقال رسول الله: ذاك أبو جهل بن هشام، يضرب إلى يوم القيامة[٢٥].

أما النبى الذى أجمعت الروايات الصادقة على أنه كان بعريشه فوق التل طول المعركة، يدعو ربه ويصلى طالباً الأزر والنصرة، فإن روايات أخرى تضعه فى مقدمة الصفوف محارباً، فيما نسب إلى (حارثة بن مضرب) وهو يقول:

لما كان يوم بدر، اتقينا المشركين برسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وكان أشد الناس بأساً.

وهو ما أخرجه (الإمام أحمد) فى مسنده (١/ ٢١٦)، «وحدثنا إسرائيل بنحوه، وزاد:

ما كان أحد أقرب إلى المشركين منه»[٢٦].

وعن (قتادة بن النعمان) يروى «أنه أصيبت عينه يوم بدر، فسالت حدقته على وجنته، فأرادوا أن يقطعوها، فسألوا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال: لا، فدعاه، فغمز حدقته براحته، فكان لا يدرى أى عينيه أصيب، وفى رواية: فكانت أحسن عينيه... وعن رافع بن مالك: رميت يوم بدر بسهم، ففقئت عينى، فبصق فيها رسول الله ودعا لى، فما آذانى منها شىء»[٢٧].

ويروى أن (خبيب بن عدى) ضُرب يوم بدر «فمال شقه، فتفل عليه رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ولأمه، ورده، فانطبق»، ثم يتقدم صاحب (دلائل النبوة) بمجموعة من الروايات يراها من تلك الدلائل، ومنها «وعكاشة بن محصن قاتل بسيفه يوم بدر حتى انقطع فى يده، فأتى رسول الله فأعطاه جذلاً من حطب وقال: قاتل بها يا عكاشة، فلما أخذه من يد رسول الله هزه فعاد سيفاً، طويل القامة، شديد المتن، أبيض الحديدة، فقاتل به حتى فتح الله تعالى على رسول الله، ثم لم يزل عنده يشهد به المشاهد... وكان ذلك السيف يسمى القوى... وانكسر سيف سلمة ابن أسلم بن حريش يوم بدر، فبقى أعزل لا سلاح معه، فأعطاه رسول الله قضيباً كان فى يده،

---

(٢٥) البيهقى: سبق ذكره، ج ٣، ص ٨٩، ٩٠.
(٢٦) نفسه: ص ٦٩، ٧٠.
(٢٧) ابن كثير: سبق ذكره، ج ٣، ص ٢٩١، ٢٩٢.

من عراجين بن طاب، فقال: اضرب به، فإذا هو سيف جيد، فلم يزل عنده حتى قتل يوم جسر أبى عبيدة»(٢٨).

وهكذا احتشدت كتب السير والأخبار بالمزايدات، والروايات التى تنزع نحو الأسطورة، بمجرد أن فتح لها الباب، وبات بالإمكان سلخ أى حدث عن واقعه، ونقله إلى مستوى آخر، يكسر الواقع ويدعم الأسطورة بالشهادات، وهو ما تمثل فى قصة حدثت عند بدء وقعة بدر، عندما أمسك النبى عليه الصلاة والسلام بحفنة من الحصباء، ورمى بها قريشاً ثم قال: شدُّوا.

ولأن إلقاء الحصباء على العدو لا يحمل أية دلالة عسكرية بعينها، ولأن ذلك التصرف النبوى لابد له معنى محدد يؤدى دوره فى المعركة، فقد انتقلت المزايدة بإلقاء الحصباء إلى المستوى السحرى، لتؤدى دوراً عسكرياً كاملاً، وكثيراً ما وردت تلك المزايدات على لسان مشركين أسلموا متأخرين، ومنهم الطلقاء الذين أرادوا التحبب للإسلام والمسلمين ونبى الإسلام، ببعض المجاملات والملاطفات، ومنهم المؤلفة قلوبهم بالطبع الذين أرادوا أن يردوا التحية بأحسن منها، ومن تلك المزايدات رواية تقول: «سمعت نوفل بن معاوية الديلى يقول: انهزمنا يوم بدر، ونحن نسمع صوتاً كوقع الحصى فى الطاس فى أفئدتنا، ومن خلفنا، فكان ذلك من أشد الرعب علينا»(٢٩).

ومثله قول (حكيم بن حزام): «التقينا فاقتتلنا، فسمعت صوتاً وقع من السماء إلى الأرض، مثل وقع الحصى فى الطست، وقبض النبى القبضة فرمى بها، فانهزمنا،... وسمعنا صوتاً من السماء وقع إلى الأرض كأنه صوت حصاة فى طست، فرمى رسول الله تلك الحصاة يوم بدر، فما بقى منا أحد»(٣٠).

الحصوات هنا لم تعد قبضة من حصى تل بدر، إنما حصوات سماوية تقوم بفعل عسكرى، لكنه إعجازى، ما أن رمى بها النبى المشركين حتى قتلهم جميعاً، أما دور تلك الحصى كإحدى أدوات الجيش الإسلامى، بل وأكثر الأدوات فاعلية، فهو ما توضحه رواية لا تخرج عن الاعتقاد فى الأثر السحرى للفعل النبوى، فتقول: «لم يبق من المشركين رجل إلا ملأت عينيه»(٣١).

وإذا كان يوم بدر، هو يوم هبوط الملأ الأعلى من الملائكة على خيولها، تحمل سيوفها، فلا بأس على مؤمن إن زاد فقال: «ويقال: إنه كان مع المسلمين يوم بدر من مؤمنى الجن سبعون»،

(٢٨) البيهقى: سبق ذكره، ج ٣، ص ٩٨، ٩٩.
(٢٩) ابن كثير: سبق ذكره، ج ٣، ص ٢٨٣.
(٣٠) البيهقى: سبق ذكره، ج ٣، ص ٨٠.
(٣١) الحلبى: مج ٢، ص ٤١٢.

وحتى يحبك الراوى روايته التى تفرد بها يستدرك قائلاً: «لكن لم يثبت أنهم قاتلوا، فكانوا مجرد مدد»[٣٢] .

ملائكة بدر

فى أول مشهد تقدمه كتب السير لمقدمِ الملأ السماوى إلى بدر، يروى ابن إسحق:

> وقد خفق رسول الله خفقة وهو فى العريش، ثم انتبه فقال: أبشر يا أبا بكر، أتاك نصر الله، هذا جبريل آخذ بعنان فرسه يقوده على ثناياه النقع[٣٣] .

وفى رواية أخرى، قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ:

> أبشر يا أبا بكر، هذا جبريل معتجر بعمامة صفراء، آخذ بعنان فرسه بين السماء والأرض، فلما نزل إلى الأرض تغيب عنى ساعة، ثم طلع على ثناياه النقع يقول: أتاك نصر الله إذ دعوته[٣٤] .

ثم تتوالى الروايات، عن بعض رجال من بنى مازن لا نعرف من هم تحديداً، عن أبى داود المازنى، أنه قال:

> إنى لأتبع رجلاً من المشركين يوم بدر لأضربه، إذ وقع رأسه قبل أن يصل إليه سيفى، فعرفت أنه قد قتله غيرى[٣٥] .

فهذا رجل يقتل فى المعمعة، وسط سيوف عديدة متشابكة ورماح تطير ونبال تئز وغبار وسنابك خيول، ورؤوس تغطيها الخوذ، وأجساد مدرعة بالدروع، ويقول المازنى أن غيره قد قتل القتيل، لكن هذا الغير (القاتل) بمجهوليته فى المعمعة يتم التقاطه ليصبح أحد الملائكة، ليؤكده قول أبى إمامة لولده:

> يا بنىّ لقد رأيتنا يوم بدر، وإن أحدنا يشير بسيفه إلى المشرك، فيقع رأسه

(٣٢) نفسه: ص ٤١٠ .

(٣٣) السهيلى: سبق ذكره، مج ٣، ص ٣٨ .

(٣٤) البيهقى: سبق ذكره، ج ٣، ص ٥٤ .

(٣٥) الطبرى: سبق ذكره، ج ٢، ص ٤٥٣ .

عن جسده قبل أن يصل إليه السيف[٣٦].

وتتتالى الروايات التى عادة ما يشار إلى روايتها بالقول: قال رجل كذا وكذا، أو عن رجل من بنى كذا، ومثلها قول ابن عباس:

بينما رجل من المسلمين يومئذ، يشتد فى إثر رجل من المشركين أمامه، إذ سمع ضربة بالسوط فوقه، وصوت الفارس يقول: أقدم حيزوم (وحيزوم هو فرس الملاك جبريل)، إذ نظر المشرك أمامه فخر مستلقياً، فنظرنا إليه فإذا هو خطم من أنفه، وشق وجهه كضربة السوط، فاخضر ذلك جميعاً، فجاء الأنصارى فحدث ذلك رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال: صدقت، ذلك مدد من السماء الثالثة[٣٧].

ويروى بعض بنى ساعدة، عن (أسيد مالك بن ربيعة)، بعد أن ذهب بصره، «لو كنت اليوم معى ببدر ومعى بصرى، لأريتكم الشعب الذى خرجت منه الملائكة، لا أشك فيه ولا أتمارى»[٣٨]. وهكذا، فالرجل الوحيد الذى رأى الملائكة رؤى العين، ورأى الشعب الذى انسلت منه صفوفهم إلى جبال بدر وواديه، قد ذهب بصره، حتى لا يتمكن من تحديد المكان، ويظل القص هلامياً، وقفاً على رواية عن بعض بنى ساعدة.

ومثل تلك الروايات، روايات أخرى، منها رواية (أبى بردة بن نيار) حيث قال: «جئت يوم بدر بثلاثة رؤوس، فوضعتها بين يدى النبى صلى الله عليه وسلم، فقلت: يا رسول الله: أما رأسان فقتلتهما، أما الثالث فإنى رأيت رجلاً أبيضَ طويلاً ضربه، فأخذت رأسه، فقال رسول الله: ذاك فلان من الملائكة»[٣٩]. أما عن أبى جهل الذى بات معلوماً عدد من اشتركوا فى قتله بالاسم، فإن هناك من روى عن النبى قوله: «قتله ابنا عفراء والملائكة، وابن مسعود قد شرك فى قتله»[٤٠].

هذا ناهيك عن روايات أخرى مجهولة المصدر، مثل رواية ابن عباس إذ قال:

حدثنى رجل من بنى غفار، قال: أقبلت أنا وابن عم لى حتى أصعدنا

---

(٣٦) نفسه: ص ٤٥٤.
(٣٧) البيهقى: سبق ذكره، ج ٣، ص ٥١، ٥٢.
(٣٨) السهيلى: سبق ذكره، مج ٣، ص ٤١.
(٣٩) البيهقى: سبق ذكره، ج ٣، ص ٥٨.
(٤٠) نفسه: ص ٨٧.

> فى جبل يشرف على بدر، ونحن مشركان ننتظر الوقعة على من تكون الدبرة، فننهب مع من ينتهب، قال: فبينا نحن فى الجبل إذ دنت منا سحابة، فسمعنا فيها حمحمة الخيل، فسمعت قائلاً يقول: أقدم حيزوم، قال: فأما ابن عمى فانقشع قناع قلبه فمات مكانه، وأما أنا فكدت أهلك ثم تماسكت(٤١).

أما المشركون (والرواة أسلموا بعد ذلك عند الفتح)، فوجد بعضهم - فيما يبدو - فى هبوط الملائكة، تبريراً لهزيمتهم المخجلة أمام المسلمين، فحاك بعضهم على ذات النول، فهذا (المغيرة ابن الحارث) يذكر أنه كان قال زمن بدر، لأبى لهب «وأيم الله ما لمت الناس، لقينا رجالاً بيضاً على خيل بلق، بين السماء والأرض، والله ما تليق شيئاً، ولا يقوم لها شيء»(٤٢).

وهكذا تقدم الطلقاء بدلائهم إلى مائدة المزايدات، ومنها رواية (ابن حجر) فى الإصابة (٢/ ٩)، عن (السائب بن أبى حبيش) الذى أسلم يوم الفتح الإسلامى لمكة، ونال من الرسول نصيبه من الأعطيات، ثلاثين وسقاً فى خيبر، فكان يحدث الناس زمن (عمر بن الخطاب) عندما قرر عمر قطع أنصبة المؤلفة قلوبهم عنهم، بقوله:

> والله ما أسرنى أحد من الناس، فيقال: فمن؟ فيقول: لما انهزمت قريش انهزمت معها، فأدركنى رجل طويل على فرس أبيض بين السماء والأرض، فأوثقنى رباطاً، وجاء عبد الرحمن بن عوف فوجدنى مربوطاً، وكان عبدالرحمن ينادى فى العسكر: من أسر هذا؟ فليس أحد يزعم أنه أسرنى، حتى انتهى بى إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقال رسول الله: ياابن أبى حبيش، من أسرك؟ فقلت: لا أعرفه، وكرهت أن أخبره بالذى رأيت، فقال رسول الله: أسرك ملك من الملائكة، اذهب يا ابن عوف بأسيرك فذهب بى عبدالرحمن بن عوف، فقال السائب: مازلت تلك الكلمات أحفظها، وتأخر إسلامى، حتى كان من أمرى ما كان.

أما البيهقى، فيعقب على رواية السائب بقوله الكاشف:

> ولا أعلمه روى عن النبى - صلى الله عليه وسلم - شيئاً(٤٣).

---

(٤١) ابن سيد الناس: سبق ذكره، ج ١، ص ٣١٢.
(٤٢) ابن كثير: سبق ذكره، ج ٣، ص ٣٠٩.
(٤٣) البيهقى: سبق ذكره، ج ٣، ص ٦٠.

ثم يجد المطالع لسيرة ابن هشام، كشفاً رصده (ابن هشام) راوى السيرة عبر عدد من الصفحات على استطالتها، بأسماء قتلى قريش فى بدر، وأسماء الذين قتلوهم من المسلمين، كل قتيل، وكل قاتل، دون إسقاط لاسم مقتول أو لاسم قاتل من الطرفين(٤٤).

وربما كانت مثل تلك المزايدات التى أوردناها، مدعاة لتهكم رجل ملحد مثل ابن الراوندى وهو يتساءل:

من هؤلاء الملائكة الذين أنزلهم الله يوم بدر لنصرة نبيه؟ إنهم كانوا مفلولى الشوكة قليلى البطش، فإنهم على كثرتهم واجتماع أيديهم وأيدى المسلمين معهم، لم يقتلوا أكثر من سبعين رجلاً؟! وأين كانت الملائكة يوم أحد حين توارى النبى بين القتلى ولم ينصره أحد؟(٤٥).

وإذا كنا نورد كلام ذلك الملحد، فلكى نرى إلى أى حد يمكن أن تبلبل تلك الروايات الفؤاد، ولا شك أن موقفه كملحد مرفوض بالقطع من جانبنا، لكنا ربما تساءلنا تساؤلاً مشروعاً من مسلم يريد الاطمئنان لطوية فؤاده، حرصاً على صيانة إيمانه ونقائه، مع تساؤل من سأل (أبى الحسن السبكى)، وهو يقول:

سئلت عن الحكمة فى قتال الملائكة مع النبى ببدر، مع أن جبريل قادر على أن يدفع الكفار بريشة من جناحه، فأجبت: وقع ذلك لإرادة أن يكون الفعل للنبى وأصحابه... وكان يكفى ملك واحد، فقد أهلكت مدائن قوم لوط بريشة من جناح جبريل، وبلاد ثمود وقوم صالح بصيحة(٤٦).

أما الأهم برأينا فى خبر الملائكة، فهو أن إعلام النبى للمسلمين قبل القتال بالمدد السماوى، كان كفيلاً بتقوية روحهم المعنوية، وإنزال السكينة على قلوبهم، وهو ما أدى بالفعل إلى نومهم ليلة القتال نوماً أخذوا به راحتهم، استعداداً لاستقبال قريش فى الصباح، كما كان وجود الملائكة - فى حالة أخرى - حلاً مثالياً لمشكلة توزيع الأنفال، عندما اختلف المسلمون حول أنصبتهم فى أنفال بدر، فنزعت من أيديهم ووضعت بيد رسول الله - عليه الصلاة والسلام - ليقرر ما يراه لشأنها، باعتبار الله وملائكته هم أصحاب ذلك النصر، وهو ما قالت بشأنه الآيات:

﴿يسألونك عن الأنفال قل الأنفال لله والرسول فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم﴾ (١/ الأنفال).

---

(٤٤) السهيلى: سبق ذكره، مج ٣، ص ١٠٢ :١٠٦.

(٤٥) إبراهيم بيومى: فى الفلسفة الإسلامية، ص ٨٣.

(٤٦) البيهقى: سبق ذكره، ج ٣، ص ٥٨.

وهى الآيات التى كان سببها مايرويه أبو إمامة الباهلى:

> سألت عبادة بن الصامت عن الأنفال فقال: فينا أصحاب بدر نزلت، حين اختلفنا فى النفل وساءت فيه أخلاقنا، فنزعه الله من أيدينا فجعله إلى رسوله، فقسمه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بين المسلمين عن بواء، أى على السواء(٤٧).

والعجيب بشأن ما روى عن الملائكة البدريين، قصصاً أخرى، كان واضحاً أن أصحابها لم يجدوا أية دلائل ظاهرة يمكن تأويلها ونسبتها إلى الملائكة، فالتقطت نمل الوادى الذى ربما سال من جحوره بفعل المعركة، وما سكب من ماء القلب المغورة، لترى فى ذلك النمل ملائكة السماء، وهو ما جاء فى قول جبير بن مطعم، «رأيت قبل هزيمة القوم والناس يقتتلون، مثل البجاد الأسود أقبل من السماء مثل النمل الأسود، فلم أشك أنها الملائكة، فلم يكن إلا هزيمة القوم... وعن حكيم ابن حزام قال: لقد رأيتنا يوم بدر وقد وقع بوادى خلص بجاد من السماء قد سد الأفق، وإذا الوادى يسيل نملاً، فوقع فى نفسى أن هذا شىء من السماء أُيّد به محمد - عليه الصلاة والسلام - فما كانت إلا الهزيمة، وهى الملائكة»(٤٨). لكن الملاحظ هنا أن الرواية خرجت بنمل الوادى إلى فضاء الأسطورة، لتضع جملة تقول: إنه نمل سماوى، سقط من السماء على الأرض.

والحاسم فى أمر تلك الروايات جميعاً، والذى يضع أمر الملائكة فى موضعه الصحيح، ولا يسمح بسلب الرواة للعقلانية المعهودة عن دين الإسلام، فهو ما جاء بين الروايات هادئاً رصيناً يقول:

> لولا أن الله تعالى حال بيننا وبين الملائكة التى نزلت يوم بدر، لمات أهل الأرض خوفاً من شدة صعقاتهم وارتفاع أصواتهم(٤٩).

أما القاطع فى المسألة فهو:

> أن الملائكة كانت تأتى الرجل فى صورة الرجل يعرفه... وكان الملك يتصور فى صورة من يعرفون(٥٠).

---

(٤٧) السهيلى: سبق ذكره، مج ٣، ص ٥٢، ابن كثير: سبق ذكره، ج ٣، ص ٣٠٢.

(٤٨) البيهقى: سبق ذكره، ج ٣، ص ٦١.

(٤٩) الحلبى: سبق ذكره، مج ٢، ص ٤٠٧.

(٥٠) ابن كثير: سبق ذكره، ج ٣، ص ٢٨٠.

باب أول

قـــراءة أخــــرى

﴿قل اللهم مـــالك الملك تؤتى الملك من تشـــاء وتنزع الملك ممن تشـــاء وتعـــز من تشاء وتذل من تشاء﴾

[٢٦/ آل عمران]

«واللات والعزى لا نرجع، حتى نقرن محمداً وأصحابه فى الحبال، فلا تقتلوهم وخذوهم أخذاً»[1]، كان هذا نداء أبى جهل (أبو الحكم بن هشام) أحد رجالات الملأ القرشى، لما أقبلت قريش إلى بدر تحتفل بنجاة تجارتها، ثم تيقنت أن النبى وأصحابه قد سبقوهم إلى هناك.

والنداء يعكس مدى ثقة (أبى الحكم) فى قوة قريش، كما يعكس الرغبة فى تأديب الخارجين على الملأ، بأسرهم ثم أخذهم إلى مكة لمحاسبتهم، ليكونوا عبرة لمن تساوره أطماعه من الأعراب، بتهديد الطريق التجارى المكى، طريق الإيلاف، وهو- لا شك- النداء الذى حاول المشركون تنفيذه، بتحاشى القتل طمعاً فى الأسر، فكان نصر الله لجنده، مما عكس توقعات (أبى الحكم)، الذى أثبتت وقعة بدر أن حكمته قد تخلت عنه فى قرارات عدة، ساعدت على الهزيمة، فاستحق لقب (أبى جهل) عن جدارة واستحقاق.

وإعمالاً للمادة التى رصدتها كتب السير والأخبار الإسلامية عن موقعة بدر الكبرى، يمكن إعادة قراءة واقع الأحداث قراءة موضوعية، تضع كل حدث فى موضعه الصحيح، لمعرفة دور كل عنصر، فى إفراز النتائج التى انتهت إليها الوقعة البدرية، التى شاءت لها الظروف أن تكون ذات دور بارز فى تحديد مسار التاريخ الإنسانى بعدها.

وضع المكيين

بداية يمكننا الوقوف مع ما نبه إليه (أحمد إبراهيم الشريف)، عن وضع المكيين فى مكة قبل الخروج إلى بدر، وكيف كان الهاشميون، آل بيت العشيرة النبوية، عيوناً له على أهل مكة، يرسلون له بأدق التفاصيل، ويحيطونه علماً بأخبار الملأ، وبالأحوال الاقتصادية والاجتماعية كلما جد جديد، وأية تحركات مهما صغر شأنها، مع ما كانوا يذيعونه بين أهل مكة فيما نعرفه بالحرب النفسية، لإضعاف الروح المعنوية لرجال البيت الأموى وأشراف الملأ[2]، وهو ما رأيناه من جهتنا، فى أمثلة سبق ورصدناها فى موقعها من السياق، كرؤيا (عاتكة بنت عبد المطلب)، ورؤيا (جهيم ابن الصلت بن عبد المطلب)، مع التهديد الواضح والمباشر، الذى حمله (سعد بن معاذ) من يثرب إلى مكة، فى عمرة أعلن أثناءها إمكان يثرب قطع طريق الإيلاف الشامى، وذلك قبل وقعة بدر بقليل.

(١) البيهقى: دلائل النبوة، سبق ذكره، السفر الثالث، ص ٥٣.

(٢) د. أحمد إبراهيم الشريف: مكة والمدينة فى الجاهلية وعهد الرسول، سبق ذكره، ص ٤٢٠.

ثم كان ما كان من تفرق القرار المكى، وفقده الإجماع واتفاق الكلمة، حول الخروج أو القعود، ثم ما كان من شأن بنى هاشم، ويقين الأمويين أن هوى بنى هاشم مع محمد، وما كان من خروجهم مع الخارجين مكرهين، بإصرار غير حكيم من (أبى الحكم)، مما جعل الجبهة المكية من البداية، متفرقة وغير متماسكة، تستبطن فى داخلها صفاً معادياً لها.

أما الشعور بالتأثم لدى المكيين، فكان واضحاً فى كثير من المواقف، نتيجة خروج أصحابهم وإخوانهم وبنيهم وبنى عمومتهم فى هجرة لاجئة إلى يثرب، وهذا الشعور بالذنب والإثم، كان عاملاً آخر يضاف إلى عوامل ضعف الجبهة المكية فى وقعة بدر، وذلك فيما يؤكده (الدكتور الشريف)[٣].

ونستعيد مشهد خروج أهل مكة من البداية، فهم يخرجون استجابة لاستغاثة (أبى سفيان)، لنجدة تجارتهم القادمة من الشام والتى عرض لها المسلمون، ليتغير الأمر فجأة، بعد أن خرج المكيون فى طريقهم لإنقاذ القافلة، فتأتيهم رسالة ثانية من (أبى سفيان) «إنما خرجتم لتمنعوا عيركم ورجالكم وأموالكم، فقد نجاها الله فارجعوا»[٤]. فيزمعون العودة إلى مكة بعد أن هدأ ما بالنفس من حرور واستنفار، بنجاة أموالهم، ورجالهم من حراس القافلة السفيانية، لكن ليهتف (أبو الحكم بن هشام): «والله لا نرجع حتى نقدم بدراً فنقيم بها، ونطعم من حضرنا من العرب، فإن لن يرانا أحد من العرب فيقاتلنا»[٥]، فيعود الركب مرة أخرى موجهاً وجهه نحو بدر، ليستعيد تثبيت الهيبة القرشية، بحفل يسمع به جميع العرب، فيهابون قريشاً بعدها أبداً، وتتأرجح أحوال القرشيين النفسية، مع كل موقف جديد، ليجدّ جديد آخر، وقد وجّهوا وجهتهم نحو بدر، فتنحزل عنهم بنو زهرة، أخوال النبى عليه الصلاة والسلام المباشرون، وأهل (آمنة بنت وهب)، التى تركته طفلاً يتيماً، وهم من يمثلون ثلث عدد الخارجين، ويعودون إلى مكة مكتفين من المغنم بنجاة تجارتهم ورجالهم، راغبين عن الحفل السامر الذى دعا إليه (أبو الحكم)، والذى تحول مع الأخبار القادمة مع المتجسسين والعيون، إلى أرق وترقب لما ينتظرهم ببدر، وهنا تأتيهم ضربة أخرى بانحزال آخر، كان سببه ثقتهم السريعة فى الشيطان (سراقة بن مالك) الزعيم الكنانى، الذى طمأنهم من ناحية بنى بكر بن كنانة، وأن كنانة البكريين لن يأتوهم بشىء يكرهونه رغم ما كان بينهم وبين قريش من ثأر، بل ويخرج معهم (سراقة) إلى حفلهم البدرى، تأكيداً لمقدم كنانة

(٣) نفسه: ص ٤٣٠.

(٤) الطبرى: التاريخ، سبق ذكره، ج ٢، ص ٤٣٨.

(٥) الحلبى: سبق ذكره، مج ٢، ص ٣٧٩.

جميعاً خلفه لدعم قريش، ثم يفلت مع الوصول إلى بدر عائداً، ليردد لسان (أبى الحكم) الذى حاز لقب (أبى جهل)، محاولاً تخفيف الأثر النفسى لانحزال سراقة عنهم بقوله: «يا معشر الناسِ: لا يهولنكم خذلان سراقة بن مالك، فإنه كان على ميعاد مع محمد»[٦]. وهنا لا يغيب على فطنٍ، أن بنى بكر بن كنانة، كان لهم قبل بدر موادعة مع النبى عليه الصلاة والسلام، بعد أن جرَّد عليهم غزوته فى صفر، من آخر أيام العام الهجرى الأول.

وما بدأت المعركة فعلياً، إلا وكانت قريش محطمة معنوياً بالتمام، بعدما رأت ثلاثة من أشرافها وشيوخها ورجال الملأ المقدمين، يتضرجون فى دمائهم فى مبارزة سريعة، فقتل الشيخ الجليل - بتعبير كتب السير الإسلامية - (عتبة بن ربيعة)، وأخوه (شيبة بن ربيعة)، وابنه (الوليد بن عتبة)، فى لحظات، لتبدأ المعركة الساخنة، مع نداء النبى لرجاله: شدوا.

ويبدو أن الكثرة العددية للقرشيين، مقارنة بعدد المسلمين، كانت مدعاة فى نظر البعض، لعدم البحث عن أى ظرف آخر لهزيمة قريش، فهى المعجزة، ولا جدال عندنا أنها معجزة انتهت بانتصار الفئة القليلة على الفئة الكثيرة بإذن الله، لكن مع الأخذ فى الحسبان أن تلك الكثرة القرشية، كانت تحتوى على تناقض صارخ فى الأعمار مع القلة الإسلامية، حيث كان الجمع القرشى يحوى الأشراف والأجلة من شيوخ قريش، مقابل جيش إسلامى يضم فى معظمه شباباً كله فتوة، مع رجال يثرب المتمرسين بالحرب المتترسين بالحلقة.

وهذا بالطبع ما يمكن إضافته جميعاً إلى عدم ثقة قريش فى عدالة موقفها، من حيث قياسه على محك العرب فى العدل، وإن اتفق مع مقاييس المصالح، وتثبيت الهيبة كأغراض أساسية، وهو الأمر الذى كان غير موافق لرغبة جميع القرشيين، فانقسموا حوله فى الرأى بعد نجاة تجارتهم، هذا ناهيك عن الخوف القرشى من إصابة أحد من العشيرة، أو سفك دم أحد من بنى العمومة أو الإخوة.

ولا نزاع فى أن وصول قريش إلى بدر متأخرة عن المسلمين بيوم كامل، لم يعطها فرصة اتخاذ المواقع الملائمة فى الحرب، خاصة أنها ما أن دخلت وادى بدر حتى بدأت المعركة، مع الجهد والعطش الذى أخذ بها وهى تحث الخطى أملاً فى مياه بدر التى وصلتها وقد عوِّرت، مع تضارب رأى الرؤوس منها نتيجة غياب القائد الواحد، حيث كان (أبو سفيان/ صخر بن حرب) صاحب اللواء متغيباً مع قافلته، مما كان سبباً فى خلف عظيم بين الملأ فى كل شأن منذ خرجوا من مكة، فحاربوا بدون قائد ولا ترتيب ولا حتى نفوس مهيأة للمعركة.

---

(٦) ابن كثير: البداية والنهاية، سبق ذكره، ج ٣، ص ٢٨٣.

و ضع المسلمين

ويمقارنة حال المكيين بحال المسلمين، نجد أن رصيداً موضوعياً آخر لانتصار المسلمين فى بدر على أهل الشرك، لعل أهمه هو ثقة شباب الجيش الإسلامى فى عدل قضيته، وأن الله يعطى نصره للمظلوم الذى أخرجه الظالمون من أهل بيته وبنيه، إضافة بالطبع إلى الأنصار رجال المجالدة المتمرسين، من حازوا صفة أهل الدم والحرب والحلقة التى ورثوها كابراً عن كابر، وهو ما أجج معنويات المسلمين وأعلاها، لتطلب ثأرها أو موتاً بعده جنات خالدة، كنتائج ليقين أنهم يحاربون ومعهم رسول الله، ثم كان أعظم دعم لتلك المعنويات العالية، الوعد بالإمداد السماوى المحارب، هذا بالطبع مع تحول الولاء عن القبيلة إلى الأخوة الإسلامية، عن العشيرة إلى الله ورسوله، وعن البطون والأفخاذ إلى الأممية، مما جعلهم يحاربون دون أن يبالوا من يصيبون من العشيرة أو الأهل، وما إن سقط فى المعركة أخ أو ابن أو عم أو ابن عم، أما الدافع المادى المباشر للمغانم، فكان لا شك صاحب دور عظيم.

ومن ثم؛ حارب المسلمون وهم تحت قيادة موحدة منظمة، لقائد أعلى وهيئة أركان حرب يثربية. قسمهم إلى ألوية ذات علامات مميزة، وصفوف لكل منها دوره فى الرماحة أو المسايفة أو النبالة، مع سمات الصوف التى علقوها بخوذهم ونواصى خيولهم، بعد أن ناداهم النبى «سوّموا فإن الملائكة قد سوّموا» لمزيد من معرفة بعضهم بعضاً فى المعركة، ثم الشعارات الشفرية ونداءات يعرفون بها بعضهم بعضاً، ويميزون بها أنفسهم مع اختفاء الرؤوس والأجساد تحت الخوذ والدروع الحديدية، وهو لا شك لون عظيم من الاستعداد، لا شك أدى على الجانب الآخر إلى قتل القرشيين بعضهم بعضاً، مع سلامة تامة من هذا الأمر على الجانب الإسلامى. كما كان خبر الملائكة مدعاة للاطمئنان النفسى، جعلهم يأخذون ليلة المعركة قسطاً طيباً من الراحة والنوم.

وكان التبكير فى الوصول إلى بدر، ميزة أخرى مكنت المسلمين من اختيار الأماكن المناسبة، سواء للنبالة فى الأعالى، أو للرمّاحة خلف السواتر الصخرية، أو لبعض من هؤلاء وأولئك فى صفوف خلفية، لحماية هجوم السيّافة، مع حيازة الماء فى الحوض، ثم كان اختيار وجهة القتال ذاتها، وهو ما أشار إليه الواقدى فى قوله:

> ... ووقف رسول الله صلى الله عليه وسلم ينظر إلى الصفوف، فاستقبل المغرب وجعل الشمس خلفه، وأقبل المشركون فاستقبلوا الشمس،

فنزل رسول الله بالعدوة الشامية، ونزلوا بالعدوة اليمانية(٧).

وهو ما إن حققناه جغرافياً فإنه يعنى أن المعركة بدأت فى الصباح، والمسلمون وجهتهم الجنوب الغربى والشمس خلفهم، بينما كانت وجهة المشركين الشمال الشرقى والشمس فى أعينهم.
أما أهل علم النفس فيقولون:

> وفى جميع الأحوال، فإن لذلك النوع من الانتصار - وهو كثير جداً فى التاريخ، ونبه إلى نظرائه القرآن الكريم - تفسيراً يرد تحت اسم الاستجابة الحرجة Reaction Critique حيث تبدى القلة استماتة فى الدفاع والهجوم، تؤدى إلى النجاح، ثم أن تلك الظاهرة معروفة فى بعض سلوكيات الطفل أمام خصم أكبر منه، وفى عالم الحيوان عند الدفاع مثلاً عن مجاله الحيوى...(٨)

هذا بينما نجد قراءة موضوعية واعية للكاتب والمؤرخ الإسلامى (أحمد شلبى)، تطلعنا على النبى عليه الصلاة والسلام كقائد عسكرى ناجح، يأخذ بأسباب الظرف الواقعى فى كل خطوة، فهو - فيما يقول (الدكتور شلبى) - «إذا أراد خوض معركة، كتم سر اتجاهه الذى يسعى إليه، حتى عن أقرب الناس إليه، ليفاجىء الأعداء بهجومه... وقد روى عن كعب بن مالك أن النبى عليه الصلاة والسلام إذا أراد أن يغزو غزوة ورى بغيرها، وعن أنس أن رسول الله قبيل غزوة بدر هتف بأصحابه قائلا: إن لنا هدفاً، فمن كان ظهره حاضراً فليركب معنا، وكان إذا عقد اللواء فى سرية من السرايا لأحد أصحابه، يركز اللواء فى فناء المسجد ويختار بعض الأبطال، ولا يحدد المكان لأمير السرية إلا عند التحرك، وأحياناً كان يكتب له كتاباً ويطويه، ويأمر بالاتجاه نحو الشمال أو نحو الجنوب مثلاً، وألا يفتح الكتاب إلا فى مكان يحدده، وكل ذلك حتى لا يتسرب الخبر للعدو، فيبادر بالهجوم وتفشل الخطة.

ومما عنى به الرسول أنه قبل المعركة، كان يبذل كل الجهد ليتعرف على أخبار العدو، حتى يأخذ للأمر عدته... وكان جواسيس بمكة يأتونه بالأخبار... واهتم الرسول اهتماماً بالغاً بتنظيم الجيش تنظيماً شمل مسيرة الجيش، وترتيبه، فهو يسير بجيشه وتكون مسيرته هو فى آخر الركب... وهو يلبس للحرب لباسه وعدته، ويحمل الجيش الألوية وتنشد الأناشيد للتشجيع والحماسة... ويتخذ للجيش كلمة سر... وكان يضع كل فرد مع أفراد قبيلته،... وقد تأثر القادة

---

(٧) الواقدى: المغازى، تحقيق م. جونز، ج ١، ص ٥٦.
(٨) د. على زيعور: قطاع البطولة والنرجسية فى الذات العربية، دار الطليعة، بيروت، ط ١، ١٩٨٢، ص ٥٩.

المسلمون بأقوال الرسول وفعله تأثراً كبيراً... حتى ليروى أن على بن أبى طالب فى غزوة بدر... التقى نوفل بن خويلد... فصاح نوفل بعلى: أسألك بالله والرحم أن تكف عنى، أنا أخو خديجة وخال فاطمة (وهى رواية سترد فى غزوة أحد فى الرواية الأرجح، حيث كف عنه على فأمره النبى بقتله، والإشارة هنا مضافة من عندنا إلى كلام الدكتور شلبى)، فقال على: لا قرابة بين مشرك ومسلم... وقتل أبو عبيدة بن الجراح أباه... وقال له وهو يطعنه: خذها فى سبيل الله»[٩].

نتائج بدر الكبرى

يقول (البيهقى) معقباً على غزوة بدر، وما أدت إليه من نتائج:

> وأذل الله بوقعة بدر رقاب المشركين، والمنافقين، فلم يبق فى المدينة منافق ولا يهودى، إلا وهو خاضع عنقه لوقعة بدر[١٠].

وهكذا؛ وعلى الترتيب ترتيب نتائج غزوة بدر الكبرى، فأذل الله رقاب المشركين، ولم يكن ذلهم إلا بهزيمة ماحقة، قضت على الرؤوس القرشية، رجال الملأ القرشى، الأمر الذى كان عسير التصديق عند رجال عرب ذلك الزمان، حتى أن النبى عندما بعث رجاله يسبقونه ببشرى النصر إلى يثرب، ولإلقاء الرعب فى قلوب المتظاهرين بالطاعة، وفى أفئدة اليهود، بهتاف ينادى «قتل فلان وفلان، وأسر فلان وفلان، من أشراف قريش»، كان الرد المتسرع من (كعب ابن الأشرف) وهو غير مصدق للخبر:

> إن كان محمد قد قتل هؤلاء القوم، فبطن الأرض خير من ظاهرها[١١].

ولعل مبلغ ذلك الانتصار البدرى، يظهر واضحاً فى المدى الذى وصلت إليه قوة المسلمين، وتضاءلت بجانبه قوى يثرب جميعاً، ثم يتضح فى مقتل (كعب بن الأشرف) بعد ذلك، لما ذلف به لسانه، أما مكة فحالها يتضح فى خروج (كنانة بن الربيع) يصحب (زينب) بنت رسول الله رضى الله عنها، نهاراً جهاراً أمام أعين قريش، وما دار من حوار بينه وبين (أبى سفيان)، يبرز

(٩) د. أحمد شلبى: السيرة النبوية العطرة، دار النهضة المصرية، القاهرة، ط ١٢، ١٩٨٧، ج ١، ص ٣٧٥، ٣٧٧.

(١٠) البيهقى: سبق ذكره، ج ٣، ص ١١٧.

(١١) الحلبى: سبق ذكره، مج ٢، ص ٤٣٥.

مدى هوان قريش وانحطاط هيبتها، ويروى (ابن هشام) أن قريشاً قامت تنوح على قتلاها، «ثم قالوا: لا تفعلوا فيبلغ محمداً وأصحابه فيشمتوا بكم، ولا تبعثوا فى أسراكم حتى تستأنوا بهم، لا يأرب عليكم محمد وأصحابه فى الفداء»، وكان الأسود بن عبد المطلب قد أصيب له ثلاثة من ولده: زمعة بن الأسود، وعقيل بن الأسود، والحارث بن زمعة، وكان يحب أن يبكى على بنيه، فبينما هو كذلك إذ سمع نائحة من الليل، فقال لغلام له وقد ذهب بصره: انظر هل أحل النحب؟ هل بكت قريش على قتلاها؟ لعلى أبكى على أبى حكيمة - يعنى زمعة - فإن جوفى قد احترق، قال: فلما رجع الغلام إليه قال: إنما هى امرأة تبكى على بعير لها أضلته، فذاك حين يقول الأسود:

أتبكى أن يضل لها بعير	ويمنعها من النوم السهود
فلا تبكى على بكر ولكن	على بدر تقاصرت الجدود
على بدر سراة بنى هصيص	ومخزوم ورهط أبى الوليد
وبكى إن بكيت على عقيل	وبكى حارثاً أسد الأسود
وبكيهم ولا تسمى جميعاً	وما لأبى حكيمة من نديد
ألا قد ساد بعدهم رجال	ولولا يوم بدر لم يسودوا[١٢]

وهكذا ذهب سراة الناس وجدودهم فى بدر، وألقيت أجساد رجال الملأ فى القليب، وبقية من كبر وفخر كاذب تمنع قريشاً من النواح على كبارها وأشرافها، بينما لم تجد امرأة أضلت بعيرها الوحيد حرجاً فى العويل والندب، فالفقر له أحكام غير أحكام الغنى والثراء، ومن ثم ومع اللوعة، أخذت قريش تدمر بيدها هيكلها الإنتاجى، المتمثل أهم جوانبه فى أمن كلّ من دخل مكة، فتضرب فى غضبها أمن كسبها، فى رواية (ابن كثير) عن خروج (سعد بن النعمان) الأنصارى معتمراً إلى مكة، لنرى تلك العمرة ذات غرض واضح للجس والاختبار، ومعرفة مدى ما وصلت إليه أعصاب قريش، ومما ليس له معنى - فى رأينا - أن ينزل أنصارى إلى مكة، وأفلاذ كبد مكة لم تزل دماؤها لينة طرية على أرض بدر، لولا غرض واحد يستحق ذلك، فيقول ابن كثير: «خرج سعد بن النعمان بن أكال، أخو بنى عمرو بن عوف معتمراً... وكان شيخاً مسلماً، فى غنم له بالبقيع، فخرج من هنالك معتمراً، وقد كان عهد قريش أن قريشاً لا يعرضون لأحد جاء حاجاً أو معتمراً إلا بخير، فعدا عليه أبو سفيان بن حرب بمكة فحبسه بابنه عمرو، وقال فى ذلك:

(١٢) السهيلى: شرح السيرة النبوية لابن هشام، سبق ذكره، مج ٣، ص ٥٥.

أرهـط بنـى أكـال أجيبوا دعـاءه	تعاقدتم لا تسـلموا السـيد الكهـلا
فـإن بنـى عمـرو لئـام أذلـة	لئـن يكفـوا عـن أسـيرهم الكبـلا

ومشى بنو عمرو بن عوف إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فأخبروه خبره، وسألوه أن يعطيهم عمرو بن أبى سفيان فيفكوا به صاحبهم، فأعطاهم النبى، فبعثوا به إلى أبى سفيان، فخلى سبيل سعد،(١٣).

أما ما تبع ذلك من نتائج متوقعة لبدر الكبرى، فهو أن النبى عليه الصلاة والسلام قد أصبح مرموق الود من القبائل، وخاصة المتاخمة ليثرب، وتدفقت عليه الهدايا لكسب رضاه، مما وسع نطاق الدولة الوليدة وحدودها، بحدود القبائل الموادعة لها على كافة الطرق، وهو ما أضعف فى المقابل جبهة مكة، التى لحق تجارتها ضرر جسيم، وهو الموقف الذى أخذ بالتفاقم مع مراجعة القبائل العربية لموقفها، بالنسبة لقريش، إزاء القوة اليثربية الجديدة، هذا بالطبع مع التحسن المطرد لأحوال المسلمين الاقتصادية، بعد أن وضعت بدر بيد المسلمين القوة المادية سلاحاً ومالاً، ومنحتهم الثقة النفسية والقوة المعنوية، التى مكنتهم من السيطرة شبه الكاملة داخل يثرب، فامتلأوا جرأة، وأخذوا بتأديب المخالفين فى يثرب، وإلقاء الرعب فى قلوبهم، ثم قتل أى شخص يتجرأ بمعارضة الدولة الطالعة، وذلك فيما يرى (الدكتور الشريف)(١٤).

أما المصطفى صلى الله عليه وسلم، الذى اصطفاه ربه، فقد جاءت بشأنه الآيات الكريمة ـ بعد ذهاب الملأ ـ تقول:

- ﴿وما أرسلنا من رسول إلا ليطاع﴾ (٦٤/النساء).
- ﴿من يطع الرسول فقد أطاع الله﴾ (٨٠/النساء).
- ﴿كان قول المؤمنين إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا سمعنا وأطعنا﴾ (٥١/النور).

أما الأكثر بلاغة وتبليغاً، وفيصلاً قاطعاً، فهو ما سجلته الآيات الكريمة بقولها:

﴿قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء﴾ (٢٦/آل عمران).

---

(١٣) ابن كثير: سبق ذكره، ج ٣، ص ٣١١، ٣١٢.
(١٤) د. أحمد الشريف: سبق ذكره، ص ٤٣٦.

ولعل العنصر اليهودى فى المدينة، قد أدرك بما عهد به من حصافة، مغزى (الآخرين) فى الآية الكريمة:

﴿وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم﴾ (٦٠/ الأنفال).

وهو البيان الذى ستنبىء به الأحداث اللاحقة، والمتلاحقة على صفحات تراثنا الإسلامى.

ومن بين أهل يثرب، أمسى أهل بدر ومقاتلوها، هم المقدمون على غيرهم من مسلمين، وهو ما يشير إلى وقع الوقعة وقيمتها ونتائجها، ويظهر فى عدد من الروايات حول ما حازه هؤلاء فى الدولة الجديدة، «وكان النبى - صلى الله عليه وسلم - يكرم أهل بدر ويقدمهم على غيرهم، ومن ثم جاء جماعة من أهل بدر للنبى وهو جالس فى صفة ضيقة، ومعه جماعة من أصحابه، فوقفوا بعد أن سلموا ليفسح لهم القوم فلم يفعلوا، فشق قيامهم على النبى - صلى الله عليه وسلم - فقال لمن لم يكن من أهل بدر من الجالسين: قم يا فلان، قم يافلان، بعدد الواقفين فعرف رسول الله الكراهة فى وجه من أقامه، فقال: رحم الله رجلاً يفسح لأخيه، فنزل قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا قيل لكم تفسحوا فى المجالس فافسحوا يفسح الله لكم وإذا قيل انشزوا فانشزوا﴾ (١١/المجادلة)، فجعلوا يقومون بعد ذلك... وخص أهل بدر بأن يزادوا فى الجنازة على أربع تكبيرات تمييزاً لفضلهم»[١٥].

وعليه، فقد كان لوقع الوقعة البدرية، وما أحدثته من تغيير فى موازين القوى، واشتداد عود الدولة الإسلامية الطالعة وصلابته، دور أساسى فى ظهور ولاءات جديدة، اعتلى فيها المحاربون الأول والسابقون، سنام الحظوة فى الدولة الإسلامية، حتى تم منحهم الجنة منحاً مطلقاً دون اعتبارات أخرى غير مشاركتهم فى الوقعة البدرية، وهو ما نجد نموذجاً له فى حدث خطير، بعد زمن من بدر، قبل فتح مكة بأيام، عندما أرسل (حاطب بن أبى بلتعة) رسالة تحذير إلى أهل مكة بينما كان الرسول يجهز للفتح سراً، مع امرأة ذهبت تحملها إليهم، فأرسل النبى - صلى الله عليه وسلم - فى إثرها جماعة على رأسها (على بن أبى طالب) الذى يروى قائلاً:

فأدركناها تسير على بعير لها، فقلنا الكتاب؟ فقالت: ما معى كتاب، فأنخنا بها والتمسنا فى رحلها فلم نر كتاباً، فقلنا: ما كذب رسول الله، لتخرجن الكتاب أو لنجردنك، فلما رأت أنى أهويت إلى حجزتها وهى

(١٥) الحلبى: سبق ذكره، مج ٢، ص ٤٧٠.

محتجزة بكساء، أخرجته فانطلقنا به إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقال عمر: يا رسول الله قد خان الله ورسوله والمؤمنين، فدعني أضرب عنقه، فقال رسول الله: أليس من أهل بدر، وما يدريك لعل الله قد اطلع على أهل بدر، فقال: اعملوا ما شئتم فقد وجبت لكم الجنة وغفرت لكم، فدمعت عينا عمر رضي الله عنه وقال: الله ورسوله أعلم[١٦].

هذا مع نتائج أخطر على مستوى شكل الدولة الاجتماعى المقبل، كناتج لتعزيز سلطة النبى الحاكمة، وهو الأمر الذى أدى إلى تراجعات عن الأممية المطلقة، والأخوة المطلقة (المؤاخاة) التى كادت تكون مشاعاً، وإلغاء نظام المؤاخاة، بعد ما حاز المهاجرون من نفل طيب، وأموال من فك الأسرى، لتطفر الدعوات الأولى للامتلاك والتبرجز، والتى بدأت ترغيباً فى امتلاك كنوز كسرى وقيصر، كذلك سنرى فيما بعد، أن المشاركة فى بدر كانت أساساً فى الحصول على الهبات، ومقياساً للأعطيات، بعد أن اعتلى المحاربون السابقون مكانهم المتميز فى الدولة، وبينما كان الباقون منهم على قيد الحياة يتحولون نحو الثراء والامتلاك، كان يتم استحضار روح الآيات المكية الأولى، التى كرست الملكية الفردية، وقدمت عقلنة واضحة للتفاوت الطبقى، من قبيل:

- ﴿والله فضل بعضكم على بعض فى الرزق﴾ (٧١/ النحل).

- ﴿ضرب الله مثلاً عبداً مملوكاً لا يقدر على شيء ومن رزقناه منا رزقاً حسناً فهو ينفق منه سراً وجهراً هل يستوون الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون﴾ (٧٥/ النحل).

- ﴿وهو الذى جعلكم خلائف الأرض ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليبلوكم فيما آتاكم﴾ (١٦٥/ الأنعام).

لتبدأ مرحلة جديدة على الخط الاستراتيجى، متجاوزة المرحلة التكتيكية المتحالفة مع المستضعفين، تستكمل خطها الأصلى، لكنها وهى بسبيل ذلك تشكل تراجعاً محسوباً عن الأممية المطلقة، فتأخذ السمت الوسطى بين الأممية وبين الدعوة إلى الحفاظ على العلاقات العشائرية، والتوصية بذوى الأرحام، فى طور متوازن عبرت عنه الآيات الكريمة بقولها:

﴿وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس﴾ (١٤٣/ البقرة).

وهو التوجه الذى يفسر رواية أخرى عن (حاطب بن أبى بلتعة) - يجب قراءتها مقارنة

---

(١٦) البخارى: ٧٤ كتاب المغازى، باب فضل من شهد بدراً، انظر أيضاً مسلم فى ٤٤ كتاب فضائل الصحابة، باب فضائل أهل بدر.

بموقف سابق أُعتق فيه (بلال) بعد شراء (أبى بكر) له لرفع الأذى عنه ـ والرواية تقول: إن (حاطبا) آذى عبداً مسلماً له، فجاء العبد المسلم يحمل أذاه إلى النبى عليه الصلاة والسلام ـ موقنا بحقه فى المساواة المطلقة، وبحقه فى ظل المبدأ الأممى الذى دفعه للرسول، غير شاكٍّ فيما يلزم عن المبدأ من مقررات حقوقية تستوجب التطبيق، لينهى للرسول النتيجة التى توصل إليها، غير مدرك ما أدت إليه بدر من نتائج وتحولات، فيقول له:

ليدخلن (حاطب) النار.

لكن ليرد عليه النبى عليه الصلاة والسلام:

كذبت، لا يدخلها، فإنه شهد بدراً[١٧].

ثم لنلحظ أن (حاطبا) نفسه، هو من استمر فى معاملة عبيده بالقسوة، وشدد عليهم النكير. وضيق عليهم إلى حد المسغبة، مما دفعهم ـ عام الرمادة زمن خلافة عمر بن الخطاب ـ إلى السطو على بعير له والتهامه، وهو ما دفع عمر، صاحب الانتماء القوى إلى المنزع الأممى، إلى تعنيف (حاطب) تعنيفاً شديداً، مع إيقاف تطبيق حد السرقة على عبيده.

ومن ثم فإن قراءة نتائج غزوة بدر، تلاحظ بداية الأسلوب الوسطى المتوازن للدولة بين النقائض، فتدعو لتوحد أممى تحت راية واحدة، وسيادة دولة موحدة، وتحت إمرة سلطة نبوية واحدة، لكنها تضم فى شكلها الاقتصادى لوناً طبقياً لا نزاع فيه، وتحوى فى شكلها الاجتماعى قبائل متوحدة، لكنه توحد غير منفرط إلى فردية مطلقة، إنما ترابط لأضمومات قبلية فى هيئة حزم موثقة بوثاق واحد فى إطار الدولة، وهو ما تلحظه القراءة المدققة لنزول المسلمين إلى بدر تحت راية واحدة للرسول، وشعار واحد هو «يا منصور أَمت»، لكنها انقسمت إلى رايات ثلاث تسير تحت ظل راية الرسول، وتنادت بثلاثة شعارات، تحت الشعار الموحد، فكان للخزرج رايتهم، وللأوس رايتهم، وللمهاجرين رايتهم، وكان لكل من الحزم الثلاث، نداءات شعارية ثلاثة.

هذا بينما تم الإبقاء على الفردية والولاء الفردى والمسئولية الفردية، ولكن فى عالم الفكرة، عالمِ السماوات الإلهى، العالم الآخر فى علاقة المسلم بربه، فتم تأجيل الفردية المطلقة بمسئولية الفرد الكاملة والذاتية إلى فيما بعد، لأن تلك المسئولية المطلقة إنما تعنى أيضاً حرية مطلقة، وهو ما يتصادم مع الصرامة المطلقة المطلوبة للسلطة النبوية لإقامة الدولة دون معوقات، وهو ما يفسر لنا تجاور الآيات التى تؤكد مسئولية الفرد عن أفعاله أمام الله، والآيات التى تؤكد من جانب

(١٧) مسلم: ٤٤ كتاب فضائل الصحابة، باب فضائل من شهد بدراً.

آخر الجبرية والحد من تلك الحرية المطلقة، وتقييد تلك الحريات بالمشيئة الإلهية والإرادة القدرية، ومن ثم فقد تأجل تفجير الأطر القبلية تفجيراً كاملاً إلى مرحلة مجتمعية أعلى، لكن مجرد وجود الفكرة عن الفردية المطلقة والمساواة المطلقة والمسئولية الفردية المطلقة أمام الإله فى عالمه السماوى القادم فيما بعد، فى الآخرة بعد البعث، إنما يشير بالتأكيد إلى تواتر الفكرة فى المجتمع المدنى والمكى حينذاك، وربما فى عالم جزيرة العرب، بعد تفكيك الطبقية للشكل الجماعى والمسئولية الجماعية القبلية، وأن الواقع قد أفرز الفكرة، وأنها كانت مطروحة بالفعل فى زمانها.

وعليه؛ فقد ظهرت الفردية ومسئوليتها بالفعل، ولكن كفكرة، فى مجال القوة، وكممكن قادم فى عالم الفعل، لكن فى تطور قادم، وهو ما يظهر المرحلة الآنية كجزء من الحركة الانتقالية وكدرجة أعلى تم ارتقاؤها داخل المرحلة الانتقالية ذاتها، تتلاءم ومعطيات مجمل ظروف الواقع آنذاك، وهو الأمر الذى سيتيح للنبى التحرك داخل ذلك التوازن بين النقائض دون مشاكل، فجاءت التنظيرة لا تصادم الواقع ولا تفرض عليه ما لم يتهيأ له تماماً بعد، مما سيمكن مؤسسة الدولة من استخدام الأممية دوماً، والعشائرية أحياناً، فى موضعها المناسب من الظروف المتغيرة، لتحقيق أهداف أكثر نفعاً، حين الحاجة إلى أىّ منهما وحسب الطارىء وظروفه، وما يستدعيه من حاجة إلى أى من الطرفين النقيضين.

وتأسيساً على كل ذلك، فإن غزوة بدر، قد أفضت إلى نتائج هائلة على المستوى النظرى والعملى، وحددت مواقف كثيرة، كان الإفصاح عنها مؤجلاً حتى يأتى الله بأمره، وكان أهم ما حققته هو وضعها بداية النهاية لنظام قريش السياسى، فى حكومة الملأ شبه الجمهورية البدائية، بالقضاء على سادتها المترفين من الملأ والسادة، المنافس الحقيقى لفكرة الدولة الواحدة، وهو ما سيتم تثبيته بعد زمن، بالاعتماد على ذلك التوازن بين النقائض، فى مملكة وراثية كبرى، ستمسك بأعنتها قبيلة قريش، وقبيلة النبى، والأرستقراطيون فيها تحديداً من البيت الأموى، وهى العودة التى ما كانت لتتم لولا العودة إلى الرحم وصلات العشيرة، التى صبت الأمر بيد الطبقة التى سيتطور شأنها ويتم دعمها بالتدريج خلال حياة الرسول نفسه، وهو ما أدى إلى وضع الشروط السياسية للسلطة المتوازنة للدولة التى انتهت لمركزية متوارثة صارمة.

وبسبيل حدوث ذلك، ستبدأ الدولة تفصح تدريجياً عن وجهها الطبقى دون موارية، ليهدأ تنديد الآيات بالثروة وأصحابها، مع خفوت متساوق فى حديثها عن المستضعفين فى الأرض، ولكن ليظل التوازن بين النقيضين وعدم حسمه وسيلة بيد المستضعفين، عندما يرتدى الصراع الطبقى زيه العشائرى، فى صراع على بن أبى طالب ومعاوية بن أبى سفيان، وفى عدد آخر من ثورات المستضعفين ضد الدولة، والذى ارتدى عادة زيه الفاطمى والهاشمى والعباسى، العشائرى أيضاً.

الباب الثاني



ثأر قريش

باب ثان

السياسة بعد بـدر الكبرى

‹ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين›

[٨٥/ آل عمران]

حروب دولة الرسول

جزء أول

عن ابن اسحاق راوى السيرة النبوية أنه قال:

ولما قدم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - المدينة، مرجعه من بدر، ... لم يقم بالمدينة إلا سبع ليال، حتى غزا بنفسه يريد بنى سليم.

وقال الواقدى:

... فلما أتاه وجد الحى خلوفاً، فاستاق النعم، ولم يلق كيدا، فأقام عليه ثلاث ليال، ثم رجع إلى المدينة(١).

وعليه، فإن السياسة العسكرية الواضحة، تشير إلى أنه بعد قطع الرؤوس من شيوخ قريش وسراتها، اتجه الجيش الإسلامى نحو القبائل الكبرى فى باطن الجزيرة لإخضاعها لدولته، وإرهابها لتؤوب إلى حلف يثرب، إمعاناً فى تقطيع أوصال الإيلاف القرشى لصالح الدولة الجديدة، أما حديث (الواقدى) هنا، فيشير إلى الأثر العظيم لوقعة بدر فى نفوس أعراب بنى سليم، تلك القبيلة التى لا يستهان بها، إلى الحد الذى هربوا فيه من مضاربهم لمجرد سماعهم بمقدم المسلمين، وتركوا ديارهم وأنعامهم، ليقيم المسلمون على مياههم وحياضهم ومضاربهم أياماً ثلاثة، يعودون بعدها إلى يثرب بغنيمتهم آمنين.

وتشير الأخبار إلى مسير آخر للنبى - صلى الله عليه وسلم - إلى سليم، بعد أن رنا إلى علمه اجتماع سليم وغطفان بحلف يريد الانتقام، ومرة أخرى تهرب سليم هرباً غير كريم وتترك حيها:

فلما سار إليه لم يجد به أحداً... فوجد خمسمائة بعير مع الرعاة... فحازوها وانحدروا بها نحو المدينة... فأخرج خمسه، وقسم الأربعة أخماس على أصحابه(٢).

وتخميس الغنائم هنا يعود إلى أمر الوحى:

﴿واعلموا أنما غنمتم من شىء فأن لله خمسه وللرسول﴾ (٤١/ الأنفال).

وهى الحصة التى سبق واشترعها لأول مرة، ابن عمة الرسول (عبد الله بن جحش) فى سريته إلى نخلة، والتى خرق فيها الأشهر الحرم، واستولى على مغانم القافلة، وكانت أول غنم للمسلمين، ثم قال لرفاقه:

---

(١) البيهقى: دلائل النبوة، سبق ذكره، السفر الثالث، ص ١٦٣.
(٢) الحلبى: السيرة، سبق ذكره، مج ٢، ص ٤٨٠.

إن لرسول الله مما غنمناه الخمس، ثم فرق الباقي بينه وبين أصحابه.

وهو ما جاء الوحي بعد ذلك مصدقا عليه في الآية السالفة[٣].

هذا بينما كان الحال في مكة غير الحال في يثرب، فكانت مكة موتورة بقتلاها، حائرة في أمرها وأمر مهابتها وتجارتها وهو ما يعني كل مصيرها، ولما وصل (أبو سفيان) بقافلته، التي كانت سبب بدر الكبرى، ورأى قريشاً تعود فلولا منهزمة وهو لا يستطيع شيئاً، وهو صاحب اللواء والعسكر، نذر بيمين مغلظ إزاء ما رأى من هوان، ألا يمس رأسه من جنابة حتى يغزو يثرب، ومعلوم في تراثنا، أن الغسل من الجنابة كان ميراثاً في تقليد العرب من قديم، مثله مثل الصلاة على الموتى، ومثل الحج وشعائره[٤]، وكذلك القسم باليمين، كان واجب الوفاء.

ولما طال الأمر بالرجل، وهو من السادة المرفهين، وكان غزو يثرب بحاجة إلى زمن وإعداد، لم يحتمل عدم الاغتسال، ولم يكن ممن يحنثون باليمين، وهو حنث عند العرب عظيم، فخرج على رأس مائتي راكب من قريش إلى يثرب متخفياً يريد أن يبر فقط بقسمه حتى يغتسل، فحرقوا بعض النخل المتطرف، وقتلوا رجلين من فلاحي الأنصار كانوا في حرثهما، ثم عادوا هاربين إلى مكة، فخرج النبي عليه الصلاة والسلام مع رجاله في إثرهم، مما اضطر رجال أبي سفيان إلى إلقاء ما معهم من قرب السويق للتخفف والسرعة، والسويق هو حنطة تحمص وتطحن وتمزج بالسمن واللبن والعسل، وتتخذ زاداً في السفر، فغنمها المسلمون، لذلك سميت تلك الغزوة (غزوة السويق)[٥].

ولا يمضي شهر حتى يخرج النبي برجاله لتأديب غطفان على حلفها مع سليم، في الغزوة المعروفة بغزوة (ذي أمر)، وهنا تحكي كتب السير أن غطفان وجدت السلامة في تصرف بني سليم:

> وهربت منه الأعراب فوق ذرى الجبال، ونزل رسول الله صلى الله عليه وسلم ذا أمر، وعسكر به، فأصابهم مطر كثير، فذهب رسول الله لحاجته، فأصابه ذلك المطر فبلل ثوبه، فجعل رسول الله وادي ذي أمر بينه وبين أصحابه، ثم نزع ثيابه فنشرها لتجف، وألقاها على شجرة ثم اضطجع تحتها، والأعراب ينظرون إلى كل ما يفعل رسول الله صلى الله عليه وسلم.

(٣) ابن حبيب: المحبر، ص ١١٦.

(٤) نفسه: ص ٤٧٩.

(٥) ابن سيد الناس: عيون الأثر، سبق ذكره، ج ١، ص ٣٠٤، ٣٥٥.

ثم عـاد - عليه الصـلاة والسـلام - إلى يثـرب، بعد أن أقام هناك شـهر صـفر كله، إرهاباً لهم[٦].

ولم تمض سوى أيام حتى خرج إلى بنى سليم، الطرف الثانى فى حلف (غطفان/ سليم)، فى غزوة ثالثة، حتى بلغ (بحران) وليقيم هناك شهر ربيع الآخر وشهر جمادى الأولى، يستعرض قوة المسلمين وينشر هيبتهم، دون أن يتجرأ عليه أحد، ثم عاد إلى يثرب[٧].

تناقضات يثرب

وهكذا بات غير خافٍ عن الأعراب، أن أحوال المسلمين قد تبدلت، وصاروا يخرجون ذرافات فى سرايا لا تنقطع لقطع طريق الإيلاف، وطرق التجارة الداخلية، وللإغارة على القبائل فى مواطنها لإرهابها لقطع موالاتها لمكة، وإخضاعها للدولة الإسلامية، لكن رغم كل هذا، فإن يثرب من الداخل لم تكن خالصة تماماً لصاحب الدعوة، وكان كل ما حدث من قبل، وبخاصة الصحيفة، مجرد تسكين مؤقت للأوضاع حتى يأتى الله بأمره، وبعد بدر بدأ الظرف يتغير، وفقدت المصلحة المشتركة بين اليهود والمسلمين، وأخذت السياسة طريقاً جديداً، فالسلاح قد فاض بعد بدر ولم تعد الحاجة ملحة لسلاح اليهود، والمال قد جاء من فداء الأسرى المكيين، والأممية إلى تضخم يضيق بالإطار القديم ويتناقض معه، وتحويل يثرب إلى دولة تناوىء دولة مكة، كان لابد أن يسبقه إزالة التناقضات الداخلية، بجمع شمل المدينة جميعاً، ونقلها من كونفودرالية تحالفية، إلى مؤسسة سياسية مركزية واحدة جامعة، تتجاوز القبائل المتحالفة إلى الدولة الموحدة.

ولما كان التناقض فى يثرب يتجاوز القبلية إلى العنصرية الدينية، فقد كان لابد من حسم فى الموقف السياسى نحو توحيد لكل العناصر، أو تخليص يثرب من العناصر المناقضة للتطور الجديد، ومن ثم كان لابد من موقف باتر لكل لون من المعارضة الداخلية كخطوة إجرائية أساسية، خاصة إذا جاءت تلك المعارضة من الجانب الذى يمثل اختلافاً أيديولوجياً غير مرجو الانضواء للدولة، وهنا نقرأ ما حدث بعد إصابة الملأ المكى فى بدر، والفزع الذى أصاب يهود النضير مصحوباً بالحزن والأسى، ممثلاً فى قول (كعب بن الأشرف):

---

(٦) البيهقى: سبق ذكره، ج ٣، ص ١٦٧، ١٦٨.
(٧) نفسه: ص ١٧٢.

أترون محمداً قتل هؤلاء؟... فهؤلاء أشراف العرب وملوك الناس!! والله لئن كان محمداً قد أصاب هؤلاء القوم، لبطن الأرض خير من ظاهرها.

ثم أخذ يرسل نحيبه الباكى شعراً يرثى صرعى القليب ويقول:

طحنت رحى بدر لمهلك أهله ... ولمثل بدر تستهل وتدمع
قتلت سراة الناس حول حياضهم ... لا تبعدوا؛ إن الملوك تصرع
كم ذا أصيب به من أبيض ماجد ... ذى بهجة يأوى إليه الضيع
صدقوا؛ فليت الأرض ساعة قتلوا ... ظلت تسوخ بأهلها، وتصدع

وهنا قام شاعر الرسول (حسان بن ثابت) يكيل لكعب بن الأشرف الرد قائلاً:

فابكى، فقد أبكيت عبداً راضعاً ... شبه الكليب إلى الكليبة يتبع
ولو شفى الرحمن منّا سيداً ... وأهان قوماً قاتلوه وصرعوا

فرد كعب مرة أخرى ينادى المسلمين أن يردوا حساناً عن الشتم والإيذاء بقارص الكلم، وأنه مابكى بشعره القوم إلا لود كان بينهم فى قوله:

ألا فازجروا منكم سفيهاً لتسلموا ... عن القول بأنى غير مقاربِ
أتشقنى إن كنت أبكى بعبرة ... لقوم أتانى ودهم غير كاذبِ
فإنى لباك ما بقيت وذاكر ... مآثر قوم مجدهم بالجباجبِ[8]

وهنا يروى ابن كثير أن النبى صلى الله عليه وسلم قد هتف قائلاً:

من لى بابن الأشرف؟

فنهض محمد بن مسلمة يقول:

أنا لك يا رسول الله، أنا أقتله[9].

ويحكى البيهقى مفصلاً «إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: اللهم اكفنى ابن الأشرف، فقال له محمد بن مسلمة: أنا يا رسول الله أقتله، فقام محمد بن مسلمة منقلباً إلى أهله فلقى

(٨) السهيلى: تفسير السيرة النبوية لابن هشام، سبق ذكره، مج ٣، ص ١٣٩، ١٤٠ (الأخطاء العروضية بالأبيات هكذا بالمصادر).
(٩) ابن كثير: البداية والنهاية، سبق ذكره، ج ٤، ص ٨.

سلكان بن سلامة... فقال له محمد بن مسلمة: إن رسول الله قد أمرني بقتل بن الأشرف، وأنت نديمه فى الجاهلية، ولم يأمن غيرك، فأخرجه إلىّ لأقتله... فخرج سلكان ومحمد بن مسلمة وعباد بن بشر وسلمة بن ثابت وأبو عيسي بن جبر (ومشي معهم رسول الله إلى بقيع الغرقد ثم وجههم وقال: انطلقوا على اسم الله، اللهم أعنهم)... حتى أتوه فى ليلة مقمرة، فتواروا فى ظلال جذوع النخيل، وخرج سلكان فصرخ: يا كعب، فقال له كعب: من هذا؟ فقال له سلكان: هذا أبو ليلى يا أبا نائلة، وكان كعب يكنى أبو نائلة، فقالت امرأته: لا تنزل يا أبا نائلة، إنه قاتلك، فقال: ما كان أخي ليأتيني إلا بخير، ولو يدعى الفتى لطعنة لأجاب... وأدخل سلكان يده فى رأس كعب وشمها فقال: ما أطيب عبيركم هذا!! ثم صنع ذلك مرة أو مرتين حتى أمنه، ثم أخذ سلكان برأسه أخذة نصله منها، فجأر عدو الله جارة رفيعة، وصاحت امرأته وقالت: يا صاحباه، فعانقه سلكان وقال: اقتلوني واقتلوا عدو الله، فلم يزالوا يتخلصون بأسيافهم حتى طعنه أحدهم فى بطنه طعنة بالسيف، خرج منها مصرانه، وخلصوا إليه فضربوه بأسيافهم... فقتل الله عز وجل ابن الأشرف»[10].

وزعم الواقدى أنهم جاءوا برأس كعب بن الأشرف إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم... وفى ذلك يقول كعب بن مالك:

فغودر منهم كعب صريعاً ... فذلت بعد مصرعه النضير
على الكفين ثم وقد علته ... بأيدينا مشهرة ذكور
بأمر محمد إذ دس ليلاً ... إلى كعب أخا كعب يسير
فماكره فأنزله بمكر ... ومحمود أخو ثقة جسور[11]

(ويقول البيهقى إن كعباً فى كلام له كان قد شبب بنساء المسلمين؟!)[12]. ولكن شعر (ابن مالك) هنا يصل إلى غاية المراد فى تأكيده (فذلت بعد مصرعه النضير)، أحد أهم قبائل يهود يثرب، بموت سيدها، ومن الجدير بالذكر أنه فى زمن خلافة معاوية بن أبى سفيان، ذكر قتل (كعب بن الأشرف) عنده، فقال (ابن يامين) وكان يهودياً أسلم فى غزو النبى للنضير: لقد كان قتله غدراً، وسكت معاوية ولم يعقب كما لو كان راضياً عما يقال، أو سامعاً للقصة كما تروى

(١٠) البيهقى: سبق ذكره، ج ٣، ص ١٩١، ١٩٢، انظر أيضاً السهيلى: سبق ذكره، مج ٣، ص ٢٠٠.

(١١) ابن كثير: سبق ذكره، ج ٤، ص ٩.

(١٢) البيهقى: سبق ذكره، ج ٣، ص ١٩٠.

بموضوعية لا مجال فيها للمجاملة، وكان (محمد بن مسلمة) قاتل (كعب) حاضراً رواية (ابن يامين) لمعاوية، فنهض ثائراً يقول: يا معاوية، أيغدر عندك رسول الله ثم لا تنكر، والله لا يظلني وإياك سقف بيت أبداً، ولا يخلو لي دم هذا إلا قتلته[١٣].

وبعد مقتل (كعب)، وعودة الرجال، قام النبي ينادي ورجع الصدى منه يسرى مجلجلاً:

من ظفرتم به من رجال يهود فاقتلوه.

ومن ثم يروى ابن هشام:

فوثب محيصة بن مسعود من الخزرج، على ابن سنينة، رجل من تجار يهود، كان يلابسهم ويبايعهم، فقتله، وكان حويصة بن مسعود (أخو محيصة) إذ ذاك لم يسلم، وكان أسن من محيصة، فلما قتله جعل حويصة يضربه ويقول: أى عدو الله قتلته، أما والله لرب شحم في بطنك من ماله، قال محيصة: والله لقد أمرني بقتله، من لو أمرني بقتلك، لضربت عنقك، قال: أو الله لو أمرك محمد بقتلي لقتلتني؟ قال نعم... فأسلم حويصة[١٤].

وعليه؛ آذن فجر الأيام البدرية، بمغرب مرحلة آن غروبها، وأخذت آيات القرآن تتتالى تحمل روح السياسة الجديدة، تنسخ ما قد سلف من آيات المرحلة السابقة، بآيات تتنبىء بما هو آتٍ، توطئة لخلاص يثرب الكامل لسادتها الجدد.

نعم، قالت الآيات في المرحلة السابقة يقيناً:

- ﴿إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾ (٦٢/ البقرة).
- ﴿إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور﴾ (٤٤/ المائدة).
- ﴿وكيف يحكمونك وعندهم التوراة فيها حكم الله﴾ (٤٣/ المائدة).

لكن السياسة الجديدة، جاءت بقرارات جديدة وحاسمة تقول:

- ﴿إن الدين عند الله الإسلام﴾ (١٩/ آل عمران).

---

(١٣) نفسه: ص ١٩٣.

(١٤) السهيلي: سبق ذكره، مج ٣، ص ١٦٤.

ـ ﴿أفغير دين الله يبغون وله أسلم من فى السماوات والأرض طوعاً وكرهاً﴾ (٨٣/ آل عمران).

ـ ﴿ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه﴾ (٨٥/آل عمران).

وهى السياسة التى ابتغت انضواء اليهود الكامل، السياسى، والعقدى، بحيث لا يكونون أحلافاً على ذات القدر من الندية السياسية والدينية، أو العمل على إجلائهم عن يثرب، أو استئصال شأفتهم، وهو الأمر الذى سيتم تحقيقه بإصرار ودون هوادة، والذى كان سببه الوضع الخاص لليهود كأصحاب كتاب سماوى، ودستور عقدى، وهو ما جعلهم المنكر السماوى الحى لنبوة النبى العربى، وهو ما كان يشكل خطراً دائماً وحقيقياً على الدولة وأيديولوجيتها.

وهنا تروى لنا كتب السير قصة غزوة (بنى قينقاع)، تلك القبيلة اليهودية التى يصف المؤرخون المسلمون رجالها بأنهم «كانوا أشجع يهود، وكانوا صاغة، وكانوا حلفاء عبادة بن الصامت، وعبد الله بن أبى بن سلول»[١٥].

غزوة قينقاع

عن ابن عباس قال:

لما أصاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قريشاً يوم بدر، فقدم المدينة، جمع يهود فى سوق قينقاع فقال: يا معشر اليهود، أسلموا قبل أن يصيبكم بمثل ما أصاب قريشاً[١٦].

فكان رد قينقاع المتحدى:

يا محمد إنك ترانا كقومك؟ لا يغرنك أنك لقيت قوماً لا علم لهم بالحرب، فأصبت منهم فرصة، إنا والله لئن حاربناك لتعلمن أنا نحن الناس[١٧].

وهنا يعلن (الواقدى) ما كان مقدور الحدوث فى باطن الأيام بقوله: فحاصرهم رسول الله

(١٥) الحلبى: سبق ذكره، مج ٢، ص ٤٧٤.
(١٦) البيهقى: سبق ذكره، ج ٣، ص ١٧٣.
(١٧) الطبرى: التاريخ، سبق ذكره، ج ٢، ص ٤٧٩.

خمس عشرة ليلة، لا يطلع فيهم أحد، ثم نزلوا على حكم رسول الله صلى الله عليه وسلم، فكتفوا وهو يريد قتلهم»[١٨].

ويتقدم رواة السير المسلمون بتقديم التبرير الذى رأوه مناسباً لنقض الصحيفة، والسير إلى قينقاع وأسرهم، بحكاية عن امرأة عربية، ذهبت تبتضع فى سوق قينقاع، فتلاعب بها شباب اليهود، بأن ربطوا ثوبها بظهرها، فلما قامت انكشفت سوءتها فضحكوا منها، فوثب رجل من المسلمين على الصائغ اليهودى فقتله، فشد اليهود على المسلم فقتلوه[١٩].

ومثل تلك القصة التبريرية واضحة الضعف والوهن، فالمرأة العربية التى سببت تلك الوقعة الهامة فى تاريخ الدولة الإسلامية، لا ذكر لاسمها، ولا لقبيلتها، ولا ما إذا كانت مسلمة أم لا؟ ولا نعرف اسم الصائغ اليهودى، ولا من هؤلاء الذين تلاعبوا بها، بل والأخطر لا نعلم اسم ذلك المسلم الذى استشهد وهو يدافع عن المرأة، ولا إلى أى قبيلة ينتمى، ولم تزعم قبيلة أنه قد حدث مثل ذلك لأحد من رجالها، وهو الأمر الذى يخالف ما ألفناه مع المتفق عليه بكتب الأخبار والسير، والقصة بكاملها - فى رأينا - مختلقة، صيغت على مثال نموذج قديم حدث زمن حرب الفجار الأولى وكان سبباً لها، وقد لاحظ الحلبى راوى السيرة ذلك التشابه بين الحادثتين، فتطوع بتذكير القارىء الفطن بقوله: «وقد تقدم وقوع مثل ذلك وأنه كان سبباً لوقوع حرب الفجار الأولى»[٢٠].

وربما وافقنا قارىء حصيف فى رفضنا للقصة أعلاه، إذا ما أحطناه علماً بالتبرير الحقيقى لما حدث، وهو ما جاء مروياً عن (الزهرى) عن (عروة):

> نزل جبريل على رسول الله صلى الله عليه وسلم بهذه الآية: ﴿وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء إن الله لا يحب الخائنين﴾ (٥٨/ الأنفال). فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أنا أخاف من بنى قينقاع فسار إليهم، ولواؤه بيد حمزة[٢١].

ولما كان يهود قينقاع، حلفاء للخزرج وسيدهم عبد الله بن أبى بن سلول، فقد قام عبد الله وهو يرى حلفاءه يساقون إلى الذبح مكتفين، بعد أن استسلموا، ليخاطب النبى ويقول: يا محمد أحسن فى مواليّ، فلم يرد عليه النبى، فقام يكرر، يا محمد أحسن فى مواليّ، ومرة أخرى يعرض

---

(١٨) نفسه: ص ٤٨٠.
(١٩) ابن كثير: سبق ذكره، ج ٤، ص ٤.
(٢٠) الحلبى: سبق ذكره، مج ٢، ص ٤٧٥.
(٢١) ابن سيد الناس: سبق ذكره، ج ١، ص ٣٥٣، انظر أيضاً الطبرى: سبق ذكره، ج ٢، ص ٤٨٠.

عنه النبى، فيأخذ الغضب بعبد الله حتى يدخل يده فى جيب درع الرسول يمسكه من لحمه الشريف وهو يقول: يا محمد أحسن فى مواليّ، حتى غضب النبى غضباً شديداً، ورؤى لوجهه ظلل وهو يقول لعبد الله: ويحك، أرسلنى، أرسلنى، بينما ابن سلول لا زال ممسكاً به ويقول: لا والله لا أرسلك حتى تحسن فى مواليّ، أربعمائة حاسر، وثلاثمائة دارع، قد منعونى من الأحمر والأسودِ من الناس، تحصدهم فى غداة واحدة؟ إنى والله امرؤ أخشى الدوائر!! وهنا قال له النبى: هم لك»[٢٢].

وهكذا ألغى الأمر النبوى بقتل بنى قينقاع، لكن شرط جلاءهم من المدينة خلال أيام ثلاثة لا تزيد، وبالفعل لم تمض الأيام الثلاثة حتى كان بنو قينقاع يحملون متاعهم راحلين، تاركين مزارعهم وحصونهم وما لم يقدروا على حمله، متجهين إلى أذرعات ببلاد الشام، وبذلك كان أول صدام بين النبى وبين يهود المدينة، وأول قرار يصدر يؤكد سيادة الرسول ويعنى قيام حاكم واحد لدولة المدينة، وهو القرار الذى أدى دوراً عظيماً فى انكماش بقية المعارضين فى يثرب لسلطان الدولة الجديدة، كما أدى من جانب آخر إلى تقليم أظافر (ابن سلول) وإضعاف مركزه، بهجرة حلفائه الذين كانوا حماية له من الأحمر والأسود من الناس، أى من اليهود والعرب، ويكفى أن نعلم مدى ذلك الأثر على (ابن أبى)، فى فارق الساعات ما بين إمساكه بلحم جنب النبى الشريف، وإصراره على مطلبه، وبين مغادرتهم يثرب بقرار آخر، ما أن سمعه (ابن أبى) حتى عاد مسرعاً إلى النبى ليسأله بقاء قينقاع فى يثرب، فحال بينه وبين الدخول إلى النبى جماعة من الصحابة، فلما حاول الدخول دفعوه إلى الحائط فشج وجهه، بينما قينقاع ينظرون ينتظرون آملين فى نتيجة المحاولة، فلما ضرب (ابن أبى) بالحائط وشج، ذهبت قينقاع فى طريقها وهى تقول: والله لا نمكث فى بلد يفعل فيه ذلك بأبى الحباب، ولا نستطيع أن ننتصر له، وغادروا يثرب، بل والجزيرة جميعاً إلى الشام[٢٣].

وقد عقبت الآيات على موقف (ابن سلول) بقولها: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ومن يتولهم منكم فإنه منهم إن الله لا يهدى القوم الظالمين. فترى الذين فى قلوبهم مرض يسارعون فيهم يقولون نخشى أن تصيبنا دائرة فعسى الله أن يأتى بالفتح أو أمر من عنده فيصبحوا على ما أسروا فى أنفسهم نادمين﴾ (٥١، ٥٢/ المائدة).

---

(٢٢) الطبرى: سبق ذكره، ج ٢، ص ٤٨٠.

(٢٣) الحلبى: سبق ذكره، مج ٢، ص ٤٧٨.

أما (الحلبى) كاتب السيرة، فلم يرض فيما يبدو بخروج قينقاع سالمين من يثرب، والرجوع عن قتلهم، فقال إن النبى دعا عليهم بالهلاك، فما بلغوا أذرعات الشام، حتى هلكوا جميعاً بتلك الدعوة(٢٤).

وهكذا ذلت النضير بمقتل (كعب بن الأشرف)، وغادرت قينقاع، وقلمت أظافر (ابن سلول) وشج وجهه أمام حلفائه وأهله، فى الوقت الذى استمرت فيه السياسة العسكرية على طريق الإيلاف، حتى جاءت سرية ذى قرد، لتكشف المدى الذى وصلت إليه قريش من هوان، ويروى لنا الطبرى أنها كانت فى جمادى الآخرة عام ثلاثة للهجرة، عند مياه فى نجد تدعى ماء القردة من بطن عالج، والقصة «أن قريشاً خافت طريقها التى كانت تسلك إلى الشام، فسلكوا طريق العراق، فخرج منهم تجار فيهم أبو سفيان بن حرب ومعه فضة كثيرة ... وبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم زيداً بن حارثة، فلقيهم على ذلك الماء، فأصاب تلك العير وما فيها، وأعجزه الرجال، فقدم بها على رسول الله... **فكان الخمس عشرين ألفاً**، فأخذه رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقسم الأربعة أخماس على السرية(٢٥).

وهنا قام حسان بن ثابت ينادى العرب، يخبرهم بشأن قريش وجبنها، ساخراً من خوفها ورعبها قائلاً:

فلجأت الشام قد حال دونها ... جلاد كأفواه المخاض الأوارك
بأيدى رجال هاجروا نحو ربهم ... وأنصاره حقاً وأيدى الملائك
إذا سلكت الغور من بطن عالج ... فقولا لها ليس الطريق هنا لك(٢٦)

وكانت السبة عظيمة، والخسارة أعظم، ومجريات الأحداث التى تجرى مع سرايا يثرب تحمل لقريش خراباً تاماً مقبلاً، وما كان الانتظار بعد ذلك ممكناً، فقامت قريش تتهيأ لحماية تجارتها ومصيرها، وتثأر لكرامتها المهدورة، تريد ضرب المدينة والقضاء على هؤلاء الذين خرجوا منها متسللين، لتقوى شوكتهم حتى درجة القضاء على السادة، وطريق التجارة العالمى، وذلك فى الغزوة الكبرى المعروفة باسم غزوة أحد.

---

(٢٤) الموضع نفسه.
(٢٥) الطبرى: سبق ذكره، ج ٢، ص ٤٩٢، ٤٩٣.
(٢٦) البيهقى: سبق ذكره، ج ٣، ص ١٧٠، ١٧١.

باب ثان

الهزيمـــة

«فناديت بأعلى صوتى : يامعشر المسلمين أبشــروا ، هذا رســول الله ، فــأشــار إلىَّ : أنصت» .

[كعب بن مالك الأنصارى]

وبأحد تبدأ المرحلة الرابعة من مراحل تطور الدولة الإسلامية، التى تنتهى عند صلح الحديبية، ويروى لنا (ابن كثير) كيف بدأت حرب أحد بين المسلمين والمشركين فى قوله: «لما أصيب يوم بدر من كفار قريش أصحاب القليب، ورجع فلهم إلى مكة... مشى... رجال من قريش ممن أصيب آباؤهم وأبناؤهم وإخوانهم يوم بدر، فكلموا أبا سفيان ومن كانت له فى تلك العير من قريش تجارة، فقالوا: يا معشر قريش، إن محمداً قد وتركم، وقتل خياركم، فأعينونا بهذا المال على حربه، لعلنا ندرك منه ثأراً، ففعلوا، قال ابن إسحق: ففيهم... أنزل الله تعالى:

﴿إن الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله فسينفقونها ثم تكون عليهم حسرة ثم يغلبون والذين كفروا إلى جهنم يحشرون﴾ (٣٦/ الأنفال).

... فاجتمعت قريش لحرب رسول الله صلى الله عليه وسلم، حين فعل ذلك أبو سفيان وأصحاب العير بأحابيشها، ومن تابعها من بنى كنانة وأهل تهامة، وخرجوا معهم بالظعن (النساء) التماس الحفيظة، وألا يفروا»[١].

ويستكمل (برهان الدين الحلبى) فى سيرته فيقول: «وبلغ رسول الله عليه الصلاة والسلام ذلك، أرسل به إليه عمه العباس، بعد أن راودوه على الخروج معهم، فاعتذر بما لحقه من القوم يوم بدر، ولم يساعدهم بشىء، وذلك فى كتاب جاء إليه صلى الله عليه وسلم، وهو بقباء، أرسله العباس مع رجل استأجره من بنى غفار، وشرط عليه أن يأتى المدينة فى ثلاثة أيام بلياليها، ففعل... ويقال: أن عمرو بن سالم الخزاعى مع نفر من خزاعة، فارقوا قريشاً من ذى طوى، وجاءوا النبى صلى الله عليه وسلم وأخبروه خبرهم، وانصرفوا»[٢].

وعليه، فقد بلغت أخبار مسير قريش رسول الله صلى الله عليه وسلم برسالة عاجلة من عمه العباس، الذى كان عيناً له مع بعض بنى هاشم على قريش، إضافة إلى هوى خزاعة مع النبى، التى كانت عضواً بقبائل الإيلاف، وظلت على إيلافها مع قريش لتتسقط أخبار قريش للنبى، وهو ما يفصح به (عبد الله بن أبى بكر) فى قوله: «كانت خزاعة مسلمهم ومشركهم عيبة رسول الله، أى موضع سره وعيونه على قريش»، وبخاصة (معبد الخزاعى) الذى لم يكن مؤمناً بدعوة الإسلام، فيما تخبرنا به صدور كتب الأخبار[٣].

---

(١) ابن كثير: البداية والنهاية، سبق ذكره، ج ٤، ص ١١، ١٢.

(٢) الحلبى: السيرة، سبق ذكره، مج ٢، ص ٤٨٩، ٤٩٠.

(٣) الطبرى: التاريخ، سبق ذكره، ج ٢، ص ٥٣٥.

ولما بلغت الأنباء رسول الله والمسلمين، فرح المسلمون، ورأى من لم يخرج منهم إلى بدر فلم يصب مغنماً، أن له نفلاً في وقعة قريبة، فيروى (ابن هشام) «فقال رجال من المسلمين... ممن كان فاته بدر: يا رسول الله؛ اخرج بنا إلى أعدائنا، لا يرون إنا جبنا عنهم وضعفنا»[4]. هذا بينما كان (عبد الله بن أبى بن سلول)، ذلك الذى تصفه كتب السيرة بأنه زعيم المنافقين، يرى غير ذلك، والجهاد عنده هو الجهاد سواء داخل المدينة أم خارجها، ولا يجد- وهو الرجل الموسر- فى المغانم رغبة، قدر ما كانت نظرته تقدم على رؤية تعمل الخبرة القتالية، والحكمة العسكرية، وكان الخروج من المدينة إلى (أحد) حيث عسكر المشركون على بعد ما لا يزيد عن ثلاثة أميال من المدينة، يعنى لابن سلول هزيمة محققة للمسلمين، ومن هنا تقدم بالرأى يقول:

> يا رسول الله؛ أقم بالمدينة ولا تخرج إليهم، فوالله ما خرجنا منها إلى عدو قط إلا أصاب منا، ولا دخلها علينا إلا أصبنا منه، فدعهم يا رسول الله، فإن أقاموا، أقاموا بشر محبس، وإن دخلوا قاتلهم الرجال فى وجههم، ورماهم النساء والصبيان بالحجارة من فوقهم، وإن رجعوا رجعوا خائبين كما جاءوا[5].

وقامت الأنصار بدورها تقول:

> يا رسول الله؛ ما غـلَبنا أحد أتانا فى دارنا... فكيف وأنت فيها؟[6].

ومع ذلك، ظل الراغبون من المتحفزين للنفل، أو للقاء الله على حميتهم للخروج إلى قريش، وظلوا بالنبى يحفزونه حتى قام فلبس لباس الحرب، فوضع البيضة على رأسه وتدرع بدرعين، وكان ذلك يوم الجمعة من شوال، من السنة الثالثة للهجرة.

وخرج المسلمون، ولكن على مشارف المدينة، لا أكثر من ميل منها، قرر (ابن أبى) العودة بأتباعه وهو سيد الخزرج، فناداهم بقوله:

> ارجعوا أيها الناس، عصانى وأطاع الولدان، وما ندرى علام نقتل أنفسنا ها هنا أيها الناس؟[7].

---

(٤) السهيلى: الروض الأنف فى تفسير السيرة النبوية لابن هشام، سبق ذكره، مج ٣، ص ١٤٩.
(٥) نفسه: ص ١٤٩.
(٦) الحلبى: سبق ذكره، مج ٢، ص ٤٩١.
(٧) السهيلى: سبق ذكره، مج ٣، ص ١٤٩.

ورجع (ابن سلول) بمن تبعه من قومه «من أهل النفاق والريب، وكانوا ثلث الناس، حوالى ثلثمائة رجل»[٨]، مما يشير إلى أن مجموع المسلمين الذين خرجوا إلى أحد كان تسعمائة مقاتل، مقابل ما تخبرنا به كتب الأخبار عن عدد مقاتلى مكة الذين زادوا عن الثلاثة آلاف، وهو موقف بالمقاييس العسكرية وحدها، كان يفسر بعقلية عسكرية كعقلية (ابن سلول) بأنه لون من الانتحار المؤكد، وأتى واضحاً فى قوله: «علام نقتل أنفسنا ها هنا؟»، ومن ثم نستطلع وضع الجيشين فى كتب الأخبار فتقول: «حتى إذا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم بالشوط من الجبانة، انحزل عبد الله بن أبى بقريب من ثلث الجيش، ومضى النبى وأصحابه وهم فى سبعمائة، وتعبأت قريش وهم ثلاثة آلاف، ومعهم مائتا فرس، جنبوها، وجعلوا على ميمنة الخيل خالد بن الوليد، وعلى ميسرتها عكرمة بن أبى جهل... **فكان أصحاب رسول الله فرقتين فرقة تقول: نقاتلهم، وفرقة تقول: لا نقاتلهم**»[٩].

ومن ثم فكان حال الجيش الإسلامى، كحال قريش فى بدر، منقسم على نفسه، لكنه فى أحد، كان لا يشكل أكثر من ربع جيش قريش، وهى عوامل موضوعية، كانت كفيلة لمن يقرأها أن يتنبأ بهزيمة ماحقة للمسلمين، وهو ما قرأه (ابن أبى) الذى صقلته الحروب بالحنكة العسكرية، فنصح بعدم الخروج، ثم رأى إنقاذ أتباعه فعاد بهم إزاء وقعة هى فى رأيه لون من الانتحار، ولا شك أن عودته كانت من جانب آخر ضغطاً على المسلمين ليتراجعوا إلى المدينة، وكان مثل ذلك الموقف كفيلاً بوضع (ابن سلول) فى التاريخ الإسلامى كرأس للمنافقين، وهو ما عبرت عنه عبارة ابن هشام:

فرجع بمن اتبعه من قومه، من أهل النفاق والريب[١٠].

وهكذا تم وصف ثلث المقاتلين المسلمين أنصار رسول الله وأخواله، بأنهم منافقون، يرتابون فى نصر الله لنبيه، وربما كان ذلك الوصف الذى دمغ به ثلث المسلمين، راجعاً لكون (ابن سلول) وأتباعه لم يأخذوا فى اعتبارهم إلا الواقع فقط، دونما أنزل الله تعالى وتبارك من وعد وبشرى حيث يقول:

- ﴿سنلقى فى قلوب الذين كفروا الرعب﴾ (١٥١/ آل عمران).

- ﴿وإذ غدوت من أهلك تبوىء المؤمنين مقاعد للقتال والله سميع عليم.

---

٨) الحلبى: سبق ذكره، مج ٢، ص ٤٩٤.

٩) البيهقى: دلائل النبوة، سبق ذكره، السفر الثالث، ص ١٦٣.

١٠) السهيلى: سبق ذكره، مج ٣، ص ١٤٩.

إذ همت طائفتان منكم أن تفشلا والله وليهما وعلى الله فليتوكل المؤمنون. ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة فاتقوا الله لعلكم تشكرون. إذ تقول للمؤمنين ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين. بلى إن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين﴾ (١٢١: ١٢٥/ آل عمران).

ومن ثم؛ فإن موقف (ابن سلول) إنما يعنى عدم أخذه الوعد الإلهى مأخذ الجد، واعتماده معطيات الواقع فقط فى اتخاذ القرار، مما يشير إلى عدم إيمان حقيقى، لكن الواجب هنا التنبيه إلى أن (ابن سلول) وهو يدعو إلى عدم الخروج من يثرب، وإشارته إلى أنه ما هاجمها أحد وانتصر، إنما يعنى اعتماداً واثقاً على حصانة يثرب، وما بها من حصون وآطام، كما يعنى أن الرجل يغامر بمدينته وأهله بالكامل فى حال انتصار المهاجمين، وهو احتمال وارد أمام العدد الهائل لجيش قريش، وإن كان ضعيفاً، وهى مغامرة قبلها على بلده وأهله، مع خيار النصر المحتمل فى رد المهاجمين، مفضلاً ذلك على أن تنزل بالمسلمين إذا خرجوا هزيمة محققة، قد يفنى فيها الرجال جميعاً، وهو نصح لو أخذناه بإنصاف لأنصفنا الصدق والحق على الأقل، خاصة أن ما حدث فى وقعة أحد بعد ذلك، كان هزيمة حقيقية للمسلمين على مستويات عدة.

وكانت تلك الهزيمة النكراء لجيش المسلمين، مدعاة لمحاولة بعض المفسرين القول: إن وعد الآيات بالإمداد بالثلاثة وبالخمسة آلاف ملك، كان يوم النصر البدرى، وليس يوم أحد، بينما وقف آخرون موقفاً صارماً، يلتزم التأريخ وأسباب النزول وسياق الآيات فى السور مقارناً بالحدث، بحجج فقهية تؤكد أن الآيات نزلت فى أحد تحفيزاً للمسلمين، أما السر فى عدم انتصار المسلمين - رغم هذا المدد العظيم، وهو ما كان يعنى عدم نزول الملائكة، لأنهم لو جاءوا لحققوا نصراً سهلاً دون جهد يذكر للمسلمين - فهو أن الإمداد كان معلقاً بشرط، هو التقوى ومصابرة عدوهم، لكن المسلمين لم يصبروا بل فروا، فسقط الشرط، فتوقف الإمداد، ولم يمدوا بملك واحد، أما ذكر بدر فى الآيات السالفة فقد جاء اعتراضاً فى سياق آيات أحد، تذكيراً بنعمة الله على المؤمنين ونصره لهم فى بدر رغم ضعفهم ومذلتهم، ليحفزهم على خوض أحد بذات الثقة فى نصر الله، مع حجة أخيرة تقول: إن القصة الواردة فى سورة آل عمران هى قصة أحد وحدها مستوفاة مطولة، وإن مقارنتها بسورة الأنفال التى تعلقت ببدر، يقطع باليقين أن الآيات نزلت فى أحد وليس فى بدر[١١].

(١١) البيهقى: سبق ذكره، ج ٣، ص ٥٨.

وقائع أحـد

وتجمع كل كتب السير والأخبار، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم، كان يكره الخروج إلى أحد، لكنه خرج لرغبة أصحابه، ولما لبس لامته، جاءه الذين استكرهوه على الخروج يراجعون موقفهم ويعتذرون، فكان رد النبى: ما كان لنبى إذا لبس لامته أن يضعها حتى يحارب، وجعل النبى لأصحابه فى ذلك اليوم شعاراً يشبه شعار بدر، مع اختلاف بسيط، فقد أسقط من شعار بدر (يا منصور)، ليصبح بدلاً من (يا منصور أمت) كلمة واحدة تقول: (أمِتْ، أمِتْ)[١٢].

وعند خروج النبى إلى أحد قال له الأنصار:

ـ يا رسول الله، ألا نستعين بحلفائنا من يهود؟

ـ فقال: لا حاجة لنا فيهم[١٣].

ولما سار بجيشه ووصل رأس الثنية، «وجد كتيبة كبيرة، فقال: ما هذا؟ قالوا: هؤلاء حلفاء عبدالله بن أبى من يهود... فقال:

إنا لا ننتصر بأهل الكفر على أهل الشرك»[١٤].

ويبدو لنا أن تلك الكتيبة كانت من قبيلة بنى قريظة، خرجت إعمالاً لبنود الصحيفة، وانتصاراً لحليفتها الخزرج، لكن الواضح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يكن على ثقة كافية بهم، ومرة أخرى عرض الأوس على النبى بعد رجوع (ابن سلول)، الاستعانة بحلفائهم من يهود بنى النضير، حلفاء (سعد بن معاذ)، ومرة أخرى رفض النبى[١٥]، ومع ذلك فقد أصر (مخيريق) اليهودى على الخروج إلى أحد، وهو على دينه، وأوصى بماله للنبى إن هو قتل، وبالفعل قاتل الرجل حتى قتل، وآل ما يملكه إلى رسول الله، وفيه قال النبى الكريم: «مخيريق خير يهود»[١٦].

ولما كانوا بالقرب من أحد ـ حيث بدت لهم صفوف الثلاثة آلاف مكى تنتشر بدروعها وقضها

---

(١٢) الحلبى: سبق ذكره، مج ٢، ص ٤٩٩.
(١٣) السهيلى: سبق ذكره، مج ٣، ص ١٤٩.
(١٤) الحلبى: سبق ذكره، مج ٢، ص ٤٩٣.
(١٥) نفسه: ص ٤٩٥.
(١٦) ابن كثير: سبق ذكره، ج ٤، ص ٣٨.

وقضيضها، قد اتخذوا مواقعهم حسب خطتهم فى بقاع أحد. استرسل الوحى يحمل إلى قريش برقية تقول:

﴿قل للذين كفروا إن ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف وإن يعودوا فقد مضت سنة الأولين﴾ (٣٨/ الأنفال).

والبرقية هنا رغبة فى السلم، لكنها رغبة المقتدر، لذلك فهى نصيحة أكثر منها رغبة، فإن تنتهوا وتعودوا إلى مكة، يغفر الله لكم ما قد سلف، وبمعنى موضوعى، توقف ما جرته الأحداث الماضية على مكة، لكن النصح هنا جاء مصحوباً بذكر الملأ القرشى الذين أهيل عليهم تراب القليب البدرى، «فقد مضت سنة الأولين»، أى مضى الأشياخ ومضت معهم سنتهم ونهجهم، ولا معنى للاعتراك على ثأر لقوم ذهبوا، لكن ذلك التذكير كان كفيلاً بتأجيج لهيب الذكرى وحمية الرغبة فى الثأر، بضرب تلك القوة اليثربية التى إن بقيت فستقضى تماماً على قريش وتجارتها، وحتى يتم تأمين طريق الإيلاف مرة أخرى، بعد أن أشرفت مكة على الهلاك بحصارها الاقتصادى.

ووقف (أبو سفيان / صخر بن حرب) يؤكد أن سنة الأولين باقية، بتصرفه تصرف (عتبة ابن ربيعة) فى بدر، فقام ينادى أهل يثرب بعدم رغبة مكة فى قتال يثرب، ويعلنهم أنهم يريدون فقط غرضاً محدداً، يتضح فى قوله:

يا معشر الأوس والخزرج، خلوا بيننا وبين بنى عمنا، وننصرف عنكم.

لكن الرجل (بسنة الأولين أيضاً)، وكرأس من رؤوس قريش، لم يع حتى الآن ما تمخضت عنه ظروف التطور، ولم يدرك ما جد فى وجدان الأنصار ووعيهم، وأنهم قد أدركوا ممكناتهم ومستقبلهم، وأنهم قد أصبحوا المنافس الحقيقى لمكة، ليس فقط على الطريق التجارى، إنما أيضاً على من بالحجاز جميعاً، فكان ردهم أقبح الشتائم بأقذع اللعنات لأبى سفيان ورهطه[17].

وهنا قامت (هند بنت عتبة) مع نساء مكة وصباياها الغيد، اللائى ترفلن فى النعمة، فمشقوا القد، وحازوا الحسن واللطافة، يضربن الدفوف يحرضن رجال مكة ويغنين، مستخدمين أفصح فحيح أنثوى للإغراء، بنداء الوصال (وى ـ ها):

ويهـا بنـى عبـد الـدار ويهـا حمـاة الأديـار

ضـربـاً بكـل بتـار

(١٧) الحلبى: سبق ذكره، مج ٢، ص ٤٩٧.

إن تقبلـــوا نعـــانــق ونفـــرش النمـــارق
إن تدبـــروا نفـــارق فـــراق غـــير وافـــق[18]

وعلى الجانب الإسلامى، ركز النبى خطته على حماية رجاله السيافة، بالرجال النبّالة، فأنزل الرماة فى مواقع تواجه خيل العدو، وأمّر عليهم نبالاً مشهوداً له، هو (عبد الله بن جبير)، وأمرهم بعدم ترك مواقعهم حتى يأتيهم منه الأمر بذلك، مهما حدث، فقط كان مطلبه منهم الذى أكده لهم «اكفونى الخيل»[19].

أما قريش فكانت البادئة بتسخين أحد، «فخرج طلحة بن أبى طلحة، وأبو طلحة والده اسمه عبد الله بن عثمان بن عبد الدار... وطلب طلحة المبارزة مراراً، فلم يخرج إليه أحد، فقال:

يا أصحاب محمد؛ زعمتم أن قتلاكم فى الجنة، وأن قتلانا إلى النار...
فهل أحد منكم يعجلنى بسيفه إلى النار، أو أعجله بسيفى إلى الجنة؟

فلما لم يخرج إليه أحد، من بين المسلمين، نادى يقول:

كذبتم واللات والعزى، لو تعلمون ذلك حقاً، لخرج إلىّ بعضكم.

فخرج إليه على بن أبى طالب... فالتقيا بين الصفين، فبدره على فصرعه، أى قطع رجله ووقع على الأرض وبدت عورته، فقال: يا ابن عم، أنشدك الله والرحم، فرجع عنه ولم يجهز عليه،.. فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: ما منعك أن تجهز عليه؟ فقال: ناشدنى الله والرحم، فقال: اقتله، اقتله»[20].

وهكذا، بدا تردد المسلمين واضحاً لأهل مكة، فخرج رجل ثان من صفوف المشركين يدعو للمبارزة، «فأحجم عن الناس حتى دعا ثلاثاً، فقام إليه الزبير بن العوام، فوثب حتى استوى معه على البعير، فعانقه، فاقتتلا فوق البعير، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: الذى يلى حضيض الأرض مقتول، فوقع المشرك فوقع عليه الزبير، فذبحه»[21].

وارتفعت معنويات المسلمين بهذين القتيلين، وخرج عبد الرحمن بن أبى بكر من صفوف

---

(18) السهيلى: سبق ذكره، مج ٣، ص ١٥١، انظر الشرح للألفاظ ص ١٦٠ (والنمارق هى وسائد تفرش على الأسرة، كناية عن النكاح).

(19) البيهقى: سبق ذكره، ج ٣، ص ٢٠٩.

(20) الحلبى: سبق ذكره، مج ٢، ص ٤٩٧.

(21) نفسه: ص ٤٩٩.

المشركين، فقال: من يبارز؟ فنهض إليه أبوه أبو بكر شاهراً سيفه، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: شم سيفك، وارجع إلى مكانك، ومتعنا نفسك»[٢٢]. أما أبو دجانة (سماك بن خرشة) الأنصارى، ذو الخبرة الحربية، والشجاعة المتفردة بين أقرانه، فقد نهض يتناول من يد رسول الله سيفاً، ورجل مثل أبى دجانة إن قام للقتال، كان ذلك تحفيزاً لنفوس من يعرفون قدره، ويقول ابن هشام فى أمر أبى دجانة:

> وكان أبو دجانة رجلاً شجاعاً يختال عند الحرب إذ كانت، وكان إذا أعلم بعصابة حمراء فاعتصب بها، علم الناس أنه سيقاتل، فلما أخذ السيف من رسول الله صلى الله عليه وسلم، أخرج عصابته تلك فعصب بها رأسه، وجعل يتبختر بين الصفوف، فقالت الأنصار: أخرج أبو دجانة عصابة الموت، فقال رسول الله حين رأى أبا دجانة يتبختر: إنها لمشية يبغضها الله، إلا فى مثل هذا الموطن[٢٣].

ثم بدأت الوقعة فعلياً عندما هتف النبى صلى الله عليه وسلم برجاله: أمت، أمت، وبدأت وقعة أحد بداية متميزة، فقد صرع المسلمون أصحاب اللواء من بيت عبد الدار، ثم انتشر النبى وأصحابه، وصاروا كتائب متفرقة، فجاسوا فى العدو ضرباً حتى أجهضوهم عن أثقالهم، وحملت خيل المشركين على المسلمين ثلاث مرات، كل ذلك تنضح بالنبل فترجع مغلولة، وحمل المسلمون عليهم فنهكوهم قتلاً[٢٤]».

ولاحت بوادر النصر، وتقهقر المشركون وهم يلقون بدروعهم وجحفهم وتروسهم، تخففاً للهرب، بينما علا صراخ نساء قريش المنعمات وهن يولولن، يبرز صراخهن الخائف مفاتن أنوثتهن، وأخذن يهربن أمام أعين المسلمين.

> وقصدن الجبل، كاشفات عن سيقانهن، يرفعن الثياب، وتبع المسلمون المشركين يضعون فيهم السلاح، وينتهبون الغنائم[٢٥].

بينما يصف (عبد الله بن الزبير) الموقف بقوله:

---

(٢٢) نفسه: ص ٤٩٩.

(٢٣) السهيلى: سبق ذكره، مج ٣، ص ١٥٠، ١٥١.

(٢٤) البيهقى: سبق ذكره، ج ٣، ص ٢٠٩.

(٢٥) الحلبى: سبق ذكره، مج ٢، ص ٥٠٢.

والله لقد رأيتنى أنظر إلى هند بنت عتبة وصواحباتها، مشمرات هاربات، ما دون أخذهن قليل ولا كثير[٢٦].

بينما يقول آخر:

والله لقد رأيت النساء يشتددن على الجبل، قد بدت خلاخيلهن وسوقهن، رافعات ثيابهن، فقال أصحاب عبد الله بن جبير - الرماة - الغنيمة، الغنيمة[٢٧].

وهكذا نزل الرماة يلهثون وراء الغنيمة، وهو ما يصوره أحدهم: «والله ما نجلس هنا لشيء، قد أهلك الله العدو، فتركوا منازلهم التى عهد إليهم النبى ألا يتركوها»[٢٨]. «ونهاهم أميرهم عبد الله ابن جبير، فقالوا له: انهزم المشركون فما مقامنا ها هنا؟ وانطلقوا ينتهبون وثبت عبد الله بن جبير، وثبت معه دون العشرة»[٢٩].

لكنها لقارىء مدقق، كانت الخطة والتكتيك، فقد تقهقر قلب جيش المشركين، وشمرت النساء عن سوقهن يصعدن الجبل فى المعتليات، وانطلق المسلمون خلفهن، وترك الرماة مواقعهم، بينما كانت ميمنة (خالد بن الوليد) فى مكانها لا تتزحزح، كذلك ميسرة (عكرمة بن أبى جهل)، ظلت ثابتة دون حراك، حتى إذا ما نزل الرماة، أطبقت الأجنحة على الوسط، وثبت القلب المتقهقر ليعاود الهجوم، فى هجمة مرتدة سريعة، ثم ثنى (خالد) و(عكرمة) على الرماة، فحملوا على من بقى منهم فقتلوهم مع أميرهم ابن جبير.

وأحاطوا بالمسلمين، فبينما المسلمون قد شغلوا بالنهب والسلب، إذ دخلت خيول المشركين تنادى فرسانها بشعارها: يا للعزى، يا لهبل، ووضعوا السيوف فى المسلمين وهم آمنون... واختلط المسلمون، وصار يضرب بعضهم بعضاً من غير شعار، وهو أمت، أمت، مما أصابهم من الدهش والحيرة[٣٠].

أما الأخطر من نسيان المسلمين لشعارهم، نتيجة الدهشة والذهول، وقتلهم بعضهم بعضاً، هو

---

(٢٦) ابن كثير: سبق ذكره، ج ٤، ص ٢٣.

(٢٧) البيهقى: سبق ذكره، ج ٣، ص ٢٢٩.

(٢٨) نفسه: ص ٢١٠.

(٢٩) الحلبى: سبق ذكره، مج ٢، ص ٥٠٢.

(٣٠) نفسه: ص ٥٠٢، ٥٠٣.

تمكن المشركين من الانغراس فى العمق إلى نهايته، والوصول إلى موقع رسول الله صلى الله عليه وسلم، لتأخذ منه ثأرها، وتنال منه فيخمد الجسد الإسلامى ويستسلم، وهو ما خرجت من أجله، لإيقاف نهر الدم، وإنقاذ ما بقى من مصالحها، بقتل النبى عليه الصلاة والسلام بالذات وبالتحديد.

صرخة الشيطان

وعندما وصل المشركون إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، هرب أصحابه من حوله، حتى صار ينادى:

> إلىّ يا فلان، إلىّ يا فلان، أنا رسول الله، فما يعرج إليه أحد، والنبل يأتى إليه من كل ناحية[٣١].

ويروى (الطبرى) إنه عند الهجوم على النبى، تفرق عنه أصحابه، فهرب بعضهم وعاد إلى المدينة لا يلوى على شىء، بينما صعد البعض الآخر إلى صخرة فوق الجبل، بينما استمر النبى ينادى:

> إلىّ عباد الله، إلىّ عباد الله[٣٢].

واستطاع (عتبة بن أبى وقاص) أن يصل إلى النبى، ويهشم بيضته فوق رأسه، بينما تمكن (عبد الله بن شهاب) من أن يشجه فى جبهته، ثم كر عليه (ابن قمئة الحارثى)، فكسر أنفه ورباعيته، وضربه بالمغفر فدخلت حلقتان من حلقات المغفر فى وجنته الشريفة، كل هذا والرسول ينادى أصحابه[٣٣]. ثم وقع رسول الله صلى الله عليه وسلم، فى حفرة، عندما هاجمه ابن قمئة فى كرة ثانية، فضربه على عاتقه ضربة شديدة، لكن الدرعين كانا وقاء له، لكن عزم الضربة جعل رسول الله يشكو من عاتقه بعدها شهراً أو أكثر[٣٤].

وهنا لمح المحارب الصلب (أبو دجانة) رسول الله وهو على حاله هذا، فانطلق إليه ليرتمى

---

(٣١) نفسه: ص ٥٠٥.

(٣٢) الطبرى: سبق ذكره، ج ٢، ص ٥١٩، ٥٢٠.

(٣٣) ابن كثير: سبق ذكره، ج ٤، ص ٥٦.

(٣٤) الحلبى: سبق ذكره، مج ٢، ص ٥١٣.

فوقه يحميه، والنبل يتساقط عليه بغزارة حتى ملأ ظهره وهو لا يتحرك، فى الوقت الذى أخذ فيه المهاجمون دورتهم الواسعة فى كرة جديدة، انطلق أثناءها إلى النبى عدد من أصحابه، فأنهضوه من الحفرة، وأسرعوا به يصعدون شعب الجبل نحو صخرة منيعة، فى اللحظة التى عادت فيها كرة المهاجمين، «فقال النبى صلى الله عليه وسلم: ألا أحد لهؤلاء؟ فقال طلحة: أنا لهم يا رسول الله، فقال: كما أنت يا طلحة، فقال: رجل من الأنصار: فأنا يا رسول الله، فقاتل عنه، وصعد رسول الله ومن بقى معه، فلحقوه، فقال: ألا أحد لهؤلاء؟ فقال له: طلحة مثل قوله، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم مثل قوله، فقال رجل من الأنصار: أنا يا رسول الله، فأذن له، فقاتل مثل قتاله وقتال أصحابه، ورسول الله وأصحابه يصعدون، ثم قتل، فلحقوه، فلم يزل رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول مثل قوله الأول، ويقول طلحة: أنا يا رسول الله، فيحبسه، فيستأذنه رجل من الأنصار للقتال فيأذن له، حتى لم يبق معه إلا طلحة فقال رسول الله: من لهؤلاء؟ فقال طلحة: أنا»[٣٥].

وتصف كتب السير أبا طلحة بأنه «كان رجلاً رامياً شديد الرمي»، فنثر نبله، وأخذ يرمى والرسول يجلس خلفه محتمياً به[٣٦]، بينما كان النبى يرسل قوله الآسف على هرب أصحابه المهاجرين عنه: «ما أنصفنا أصحابنا»، ويشرح البيهقى «معناه ما أنصفت قريش (المهاجرين) الأنصار، لكون القرشيين لم يخرجوا للقتال دفاعاً عن النبى، بل خرجت الأنصار واحداً بعد واحد»[٣٧].

وظل (أبو طلحة) يرمي دفاعاً عن النبى يومذاك، ويترس دونه، حتى كسر ثلاثة أقواس، وكان المسلم يفل هارباً فيمر عليهما فيناديه رسول الله صلى الله عليه وسلم: انثر نبلك لأبى طلحة[٣٨]، حتى وتره رام أصاب يده فى أوتارها فشلت من فورها فصرخ متألماً: حس، فقال له النبى: لو قلت باسم الله لرفعتك الملائكة، والناس ينظرون إليك، حتى تلج بك فى جو السماء[٣٩].

وفى كرة رابعة، عادت موجة مهاجمة إلى المكان الذى فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم،

---

(٣٥) البيهقى: سبق ذكره، ج ٣، ص ٢٣٦.
(٣٦) الحلبى: سبق ذكره، مج ٢، ص ٥٠٥.
(٣٧) البيهقى: سبق ذكره، ج ٣، ص ٢٣٥.
(٣٨) نفسه: ص ٢٣٩.
(٣٩) ابن كثير: سبق ذكره، ج ٤، ص ٢٧، ٢٨.

بينما كان النبى قد تقهقر من مكانه مصعداً فى الشعب، وخرج لهم (مصعب بن عمير) دون رسول الله، فوجد (ابن قمئة) مصعباً في دروعه وخوذته فى مكان رسول الله، فشد عليه شدة قتله بها، وهو يظن أنه محمد، ثم أكمل دورة فرسه نحو المشركين وهو يصيح مهللاً: قتلت محمداً[٤٠]، فى اللحظة التى كان فيها الرسول يتابع صعوده فى شعب الجبل متحاملاً على طلحة بن عبيد الله، والزبير بن العوام، الذى هرع إلى طلحة يساعده فى حمل رسول الله[٤١].

وإذ يقول زعيم طبقة المفسرين ورواة السير والأخبار الحافظ ابن كثير، أن صيحة ابن قمئة: قتلت محمداً، قد أدت إلى بهتة عظيمة بين المسلمين[٤٢]، فإنها على الفور أوقفت لا جدال يد القتل المكية عن استمرار القتل والقتال، فهذا ما جاءوا من أجله، وقد تحقق، ولم تعد ثمة ضرورة لاستمرار القتل، وبالفعل هدأ الميدان تماماً بعد صيحة ابن قمئة، تلك الصيحة التى تصر كتبنا التراثية على القول: إنها صيحة الشيطان، لا لشىء إلا أنها قالت مكروهاً بحق النبى، رغم أن المتأمل بقليل من النزاهة، يمكنه أن يراها صيحة جاءت فى موعدها تماماً، وكانت صيحة الإنقاذ لرقاب المسلمين، ولنبيهم.

هذا بينما يرى آخرون - بتغافل حقائق عدة - أن تلك الصيحة كانت السبب فى هزيمة المسلمين، ومن ثم لا شك أنها كانت صيحة الشيطان الذى يعنيه هزيمة حزب الله، وذلك بالتأثير الذى فعلته الصيحة بنفوس المسلمين، وخوار عزيمتهم وفزعهم لما علموا أن نبيهم قد قتل، وهو المعلق به مصيرهم ومصير دولتهم، ولكن دقائق الحدث لا تترك لأصحاب ذلك الرأى ما يتمحلون به، لأن الهزيمة كانت قد حلّت بالفعل قبل تلك الصيحة، وكانت يد القتل القرشية قد بدأت تفعل فعلها فيمن بقى من المسلمين، ووصل المشركون إلى النبى وفر أصحابه عنه، حتى أصيب إصابات شديدة، وكانت الصيحة متأخرة إلى حد بعيد عن الهزيمة التى تمت قبلها بوقت، عندما ضرب ابن قمئة مصعباً وهو يحسبه محمداً، وما كان ممكناً أن يصل إلى الرسول صلى الله عليه وسلم فى مؤخرة جيشه، إلا إذا كان ذلك الجيش قد تهاوى وتشرذم، ولم يعد هناك حائل بين المشركين وبين النبى، لكن هؤلاء يصرون، مستندين إلى روايات مثل رواية (الزبير بن العوام):

---

(٤٠) السهيلى: سبق ذكره، مج ٣، ص ١٥٣، انظر أيضاً البيهقى: ج ٣، ص ٢٣٨.

(٤١) البيهقى: سبق ذكره، ج ٣، ص ٢١١.

(٤٢) ابن كثير: سبق ذكره، ج ٤، ص ٣٢.

وصرخ صارخ:

ألا إن محمداً قد قتل،

فانكفأنا، وانكفأ القوم علينا[٤٣].

هذا بينما أصحاب تلك الرؤية، وفى روايتهم أنفسهم عما حدث، يظهر واضحاً أن (الزبير) كان يصعد مع (طلحة) يساعدان نبيهم الجريح على ارتقاء الشعب، بعد أن خلا الميدان حولهم من أصحابهم وبقية الصحابة إلى فرار، ومن بقى منهم أخذوا يضربون بعضهم بعضاً من البهتة، أما (البيهقى) فيقول:

وصاح الشيطان: قتل محمد[٤٤].

ويقول (ابن هشام):

الصارخ: إزب العقبة، يعنى الشيطان[٤٥].

أما من هو (إزب العقبة)؟ فهو ما يأتى فى حديث منسوب لعبد الله بن الزبير، «أنه رأى رجلاً طوله شبران على رحله، فقال: من أنت؟ قال: إزب، قال: ما إزب؟، قال: رجل من الجن»، أما (الحلبى) الذى اعتددناه يقف مع ما لا يجده متسقاً ومتوافقاً، يتساءل أحياناً، ويبرر أخرى، فقد حاول تقديم تبرير لتضارب الروايات حول صاحب الصرخة، فقال: «ويجوز أن يكون قد صدر عن الثلاثة: ابن قمئة، وإبليس، وإزب العقبة»[٤٦].

وعليه، فإن تلك الصرخة المنقذة التى أطلقها (ابن قمئة)، كانت سبباً فى تراخى أيدى قريش عن القتل، بينما النبى وطلحة والزبير يتسللون متخفين فى الشعب، يريدون صخرة عالية، تصادف أنها كانت الصخرة التى فر إليها بعض المسلمين الفارين، ولجأوا إليها لمنعتها، فكان أن رآه (كعب بن مالك) من أعلى الشعب وهو قادم مع صاحبيه، ويروى:

قد عرفت عينيه الشريفتين تزهران تحت المغفر، فناديت بأعلى صوتى:

---

(٤٣) السهيلى: سبق ذكره، مج ٣، ص ١٥٥.

(٤٤) البيهقى: سبق ذكره، ج ٣، ص ٢٧٠.

(٤٥) السهيلى: سبق ذكره، مج ٣، ص ١٥٥.

(٤٦) الحلبى: سبق ذكره، مج ٢، ص ٥٠٣.

يا معشر المسلمين أبشروا، هذا رسول الله فأشار إلىّ: أنصت، فلما عرف المسلمون رسول الله نهضوا، ونهض معهم نحو الشعب على بن أبى طالب، وأبو بكر الصديق، وعمر بن الخطاب،... فى نفر من المسلمين(٤٧).

لكن ليلمحهم (أُبى بن خلف) وهم يخفون إلى النبى يساعدونه على الصعود، وقد تطرف (أُبى) عن قومه، فسمع صيحة (كعب بن مالك)، فعلم أن الرسول ما زال حياً، وبينما النبى يسند رأسه تعباً فى الشعب، كر (أبى بن خلف) بفرسه وهو يهتف متسائلاً: أى محمد (؟!) لا نجوت إن نجا، فقال القوم: يا رسول الله أيعطف عليه رجل منا؟ فقال رسول الله: لا، دعوه فلما دنا تناول رسول الله الحربة من الحارث بن الصمة،.. وانتفض بها انتفاضة تطايرنا عنه تطاير الشعراء عن ظهر البعير إذا انتفض،.. ثم استقبله فطعنه فى عنقه، طعنة تدأدأ منها عن فرسه مراراً(٤٨)، وجعل يخور كما يخور الثور إذا ذبح،(٤٩).

ولمزيد من المنعة، بعيداً عن متناول قريش «نهض النبى صلى الله عليه وسلم إلى صخرة فى الجبل ليعلوها، وقد كان بدن رسول الله بين درعين، فلما ذهب لينهض لم يستطع، فجلس تحته طلحة بن عبيدة، فنهض به حتى استوى عليها،(٥٠)، وهكذا نال الإجهاد من النبى كل منال، وأخذ منه الألم كل مأخذ، حتى أنه بعد العودة «ذكر عمرو مولى عفرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم، صلى الظهر يوم أحد قاعداً من الجراح التى أصابته، وصلى المسلمون خلفه قعوداً،(٥١).

وبعد أن امتنع المسلمون الذين بقوا مع نبيهم على الصخرة المنيعة ـ التى ما كان لأحد أن يصعد عليها إلا ويصاب برماح وسهام الممتنعين فوقها ـ ومعهم سيوفهم، لا مجال لأخذهم، تقدم أبو سفيان حتى اقترب من سفح الصخرة ثم نادى: «أفى القوم محمد؟ أفى القوم محمد؟ ثلاثاً، فنهاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يجيبوه»، وهكذا كانت حصافة القائد تملى على رجاله رغم الإمتناع فوق الصخرة، أن يتركوا قريشاً تتوهم قتله، حتى لا يحاولوا الكر عليهم مرة

---

(٤٧) ابن كثير: سبق ذكره، ج ٤، ص ٣٦.
(٤٨) السهيلى: سبق ذكره، مج ٣، ص ١٦٦.
(٤٩) الحلبى: مج ٢، ص ٥١١.
(٥٠) ابن كثير: سبق ذكره، ج ٤، ص ٣٧.
(٥١) الموضع نفسه.

أخرى، كما سبق وأمر (كعب بن مالك) بعدم الإعلان عنه وأمره بالصمت، لكن (أبو سفيان) استمر ينادى «أفى القوم ابن أبى قحافة؟ أفى القوم ابن أبى قحافة؟ أفى القوم ابن الخطاب؟ أفى القوم ابن الخطاب؟ ثم أقبل على أصحابه فقال: أما هؤلاء فقد قتلوا وقد كفيتموهم، فما ملك عمر نفسه أن قال: كذبت والله يا عدو الله، إن الذين عددت لأحياء كلهم، وقد بقى لك ما يسوؤك»[٥٢]. فكان أن رد عليه (أبو سفيان) ومن معه ينادون شامتين متوعدين:

يوماً بيوم بدر، إن موعدكم بدر للعام القابل.

«فقال رسول الله لرجل من أصحابه: قل: نعم هو بيننا وبينكم موعد... ثم بعث رسول الله على بن أبى طالب فقال: اخرج فى آثار القوم فانظر ماذا يصنعون؟ فإن كانوا قد جنبوا الخيل وامتطوا الإبل، فإنهم يريدون مكة، وإن ركبوا الخيل وساقوا الإبل، فإنهم يريدون المدينة، والذى نفسى بيده، لئن أرادوها، لأسيرن إليهم فيها، ثم لأناجزهم، قال على: فخرجت فى آثارهم أنظر ماذا يصنعون؟ فجنبوا الخيل وامتطوا الإبل، ووجهوا إلى مكة»[٥٣].

وهكذا، انتهت غزوة أحد بثأر قريش، الذى أعملت له حسابات دقيقة، وهم تجار أصحاب حسابات، يدققون فيما لهم وفيما عليهم، تحدوهم المصلحة والمكاسب فى الأول وفى الآخر، فتؤكد كتب الأخبار أنهم قتلوا على التدقيق سبعين مسلماً، بسبعين مشركاً يوم بدر، وأسروا سبعين مسلماً بسبعين مشركاً يوم بدر، وهو ما يردفه المفسرون بالآية الكريمة:

﴿أو لما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم أنى هذا﴾

(١٦٥/آل عمران)[٥٤].

(ومثليها هنا تعنى مثل الأمرين، السبعين قتيلاً، والسبعين أسيراً)، وهو ما عبر عنه منطق التاجر الأموى، أبى سفيان صخر بن حرب، وهو ينادى المعتصمين بالصخرة، مقدماً كشف حساب تجارى دقيق، يقول:

يوماً بيوم بدر، وإن موعدكم بدر العام القابل.

هو ما عقب عليه الطبرى فى حديثه عن أحد مقارناً ببدر، وهو يقول:

---

(٥٢) نفسه: ص ٢٧.

(٥٣) السهيلى: سبق ذكره، مج ٣، ص ١٧٠، ١٧١.

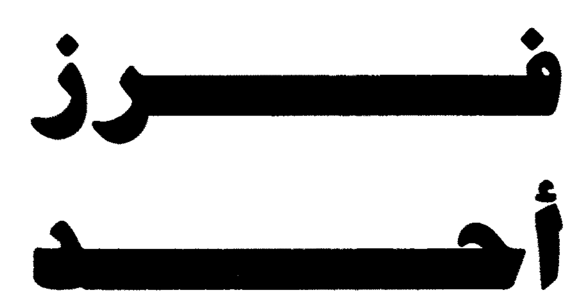
(٥٤) ابن كثير: سبق ذكره، ج ٤، ص ٤٧.

فلما كـان العام القابل فى أحـد، عوقبوا بما صنعوا، قُتل من أصـحـاب رسول الله صلى الله عليه وسلم سبعون، وأسر سبعون، وكسرت رباعيته، وهشمت البيضة على رأسه، وسال الدم على وجهه، وفر أصحاب النبى وصعدوا الجبل(٥٥) .

---

(٥٥) الطبرى: سبق ذكره، ج ٢، ص ٤٧٥ .

باب ثان



«لو كان من الأمر شيء ما قُتلنا ها هنا» .

[عتاب بن قشير الأنصارى]

وكانت أحد ابتلاء فرز واختبار وتمحيص للمؤمنين الصادقين، منهم من أخذهم الرعب فولوا هاربين من حول رسول الله حتى انكشف للمهاجمين، وهو صلى الله عليه وسلم يناديهم:

أنا رسول الله، إليّ يا فلان، إليّ يا فلان، فلم يثبتوا وفروا عنه ليعتصموا بصخرة في أعلى الشعب، فأنّبهم الوحي الكريم بقوله:

﴿إذ تصعدون ولا تلوون على أحد والرسول يدعوكم في أخراكم فأثابكم غما بغم...﴾ (١٥٣/ آل عمران).

هذا عمن فروا، ثم هناك ما جاء وحياً يحدث عمن ظنّوا بالله ظن الجاهلية، وشكّوا في صدق الرسول بل وفي الدعوة برمتها، ليرد عليهم قائلاً:

﴿وطائفة قد أهمتهم أنفسهم يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية يقولون هل لنا من الأمر من شيء قل إن الأمر كله لله يخفون في أنفسهم ما لا يبدون لك يقولون لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا ها هنا قل لو كنتم في بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم وليبتلي الله ما في صدوركم وليمحص ما في قلوبكم والله عليم بذات الصدور﴾ (١٥٤/ آل عمران).

ثم يتوجه الوحي نحو من قالوا: لو سمعوا نصحنا لهم بالتحصن في يثرب، وعدم الخروج إلى المشركين ما قتلوا، قائلاً:

﴿الذين قالوا لإخوانهم وقعدوا لو أطاعونا ما قتلوا قل فادرءوا عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين﴾ (١٦٨/ آل عمران).

أما الذين تساءلوا كيف يُهزمون والله معهم ورسوله؟ فقد جاءهم جواب الوحي مفحماً يذكرهم أنهم وإن أصيبوا في أحد، فقد سبق وأصابوا في بدر، ويقول:

- ﴿أو لما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم أنى هذا قل هو من عند أنفسكم إن الله على كل شيء قدير﴾ (١٦٥/ آل عمران).

- ﴿إن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله﴾ (١٤٠/ آل عمران).

ثم يثني الوحي بصدقه بالقول الفصل، لتأكيد أن ما حدث كان خطة إلهية مقدورة سلفاً، من الله تعالى، لفرز المؤمنين الصادقين عن غيرهم، بقوله:

﴿وما أصابكم يوم التقى الجمعان فبإذن الله وليعلم المؤمنين. وليعلم الذين نافقوا...﴾ (١٦٦، ١٦٧/ آل عمران).

مواقف من الهزيمة

ونعود إلى عيون التاريخ نقرأ فيها المفاجأة التى رتبتها قريش للمسلمين، بقرارات مقاتلين من جيل جديد، تلتمع أسماؤهم مع نصال سيوف شرذمت شمل المسلمين وصعقتهم، مثل (خالد بن الوليد) و(عكرمة بن أبى الحكم)، حتى صار المسلمون يضربون بعضهم ويقتلون بعضهم بعضاً على غير هدى، ولا شعار، بعد أن أضاعت البهتة لبهم فنسوا شعارهم، ثم جاءت صيحة (ابن قمئة): إن محمداً قد قتل، لتترك أثراً أعمق فى الفارين يحتمون بالشعاب والصخور، فأصحاب الشعب يقولون:

إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد قتل، فارجعوا إلى قومكم فيؤمنونكم، قبل أن يأتوكم فيقتلونكم، فإنهم داخلون البيوت[١].

وقد ذهب هؤلاء تحديداً إلى رأى يقول:

نلقى إليهم بأيدينا، فإنهم قومنا وبنو عمنا.

ويعقب رواة السيرة بالقول:

وهذا يدل على أن هذه الفرقة ليست من الأنصار، بل من المهاجرين[٢].

هذا؛ بينما كان بعض المسلمين ينتهز فرصة المعركة، ويحفز الناس للخروج إليها، من أجل أخذ ثأره من مسلم آخر فى حومة الوغى دون عيون تراه، مثل (الحارث بن سويد بن الصامت) ابن صاحب صحيفة لقمان، ذلك المسلم الذى لم تؤثر فيه الأخوة الإسلامية والأممية الجديدة، بل ظل أسير الحمية القبلية الجاهلية، يخضع رغبته الثائرة على مضض ينتهز لها فرصة، يريد بها (المجذر بن زياد) الذى كان قد قتل أباه (سويد) فى حرب الأوس والخزرج، وما أن تبدأ المعركة ويختلط الناس بالناس، حتى يغمد سيفه فى قاتل أبيه ليشفى غليل ثأره[٣].

---

(١) البيهقى: دلائل النبوة، سبق ذكره، السفر الثالث، ص ٢١٠.

(٢) الحلبى: السرية، سبق ذكره، مج ٢، ص ٥٠٤.

(٣) السهيلى: الروض الأنف فى تفسير السيرة النبوية لابن هشام، سبق ذكره، مج ٣، ص ١٦٨، انظر أيضاً: ابن سيد الناس؛ عيون الأثر، سبق ذكره، ج ٢، ص ٢٥.

ثم موقف ثالث لأصحاب الصخرة الذين فروا من حول النبى، واعتصموا بها يردون عن أنفسهم فى خفائها، وقد رأى هؤلاء رأياً آخر:

فقال بعض أصحاب الصخرة، ليت لنا رسولاً إلى عبد الله بن أبى فيأخذ لنا أمنة من أبى سفيان، يا قوم، إن محمداً قد قتل فارجعوا إلى قومكم، قبل أن يأتوكم فيقتلونكم[٤].

وقد بلغ الرعب أصحاب الصخرة أنهم كادوا يقتلون نبيهم وهو يخف إليهم متحاملاً على مناكب صاحبيه، وهم لا يميزونه، ورفعوا عليه نبالهم ورماحهم.

فقال رسول الله: أنا رسول الله، ففرحوا بذلك حين وجدوا رسول الله صلى الله عليه وسلم، وفرح رسول الله حين رأى أن فى أصحابه من يمتنع بهم... فقال الله عز وجل فى الذين قالوا: إن محمداً قد قتل فارجعوا إلى قومكم ﴿وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفئن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم﴾ (١٤٤/ آل عمران)[٥].

أما الموقف الرابع، فيمثله من جاء ذكرهم فى الواقدى وهو يقول:

لما صاح إبليس: إن محمداً قد قتل، تفرق الناس، فمنهم من ورد المدينة، حتى دخلوا على نسائهم وجعل النساء يقلن: عن رسول الله تفرون؟![٦].

وقد عدد (البلاذرى) فى أنساب الأشراف (٣٢٦/١) أسماء بعض الفارين من الميدان تماماً ـ الذين يمثلون موقفاً خامسا ـ بعد أن تركوا إخوانهم ورسولهم إلى مصيرهم، وهم عثمان بن عفان، وسواد بن غزية، والحارث بن حاطب، وسعد بن عثمان، وعقبة بن عثمان، وخارجة بن عامر، وأوس بن قيظى، حتى أبعدوا عن المدينة بما يصل إلى ثلاثين ميلاً[٧]، ولم يعودوا إلى يثرب إلا بعد أن وصلتهم الأخبار بعودة النبى إليها مع من بقى من أصحابه، فعادوا إليها من مهربهم بعد أيام ثلاثة، فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم: لقد ذهبتم فيها عريضة، ثم جاء الوحى بشأنهم يقول:

(٤) ابن كثير: البداية والنهاية، سبق ذكره، ج ٤، ص ٢٤.
(٥) نفسه: ص ٢٤.
(٦) البيهقى: سبق ذكره، ج ٣، ص ٣١٠.
(٧) نفسه: ص ٣٠٠.

﴿إن الذين تولوا منكم يوم التقى الجمعان إنما استزلهم الشيطان ببعض ما كسبوا ولقد عفا الله عنهم﴾ (١٥٥/آل عمران).

ويقول (ابن حبيب): «الذين تولوا يوم التقى الجمعان فعفا الله عنهم من المهاجرين عثمان بن عفان بن العاص بن أمية، وأبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة، وسعد بن عثمان من الخزرج وأخوه عقبة بن عثمان»(٨). وكان لهرب (عثمان بن عفان) من أحد، مدعاة بعد ذلك بسنين فى الصراع السافر الذى قام على السلطة فى الدولة الإسلامية، للتدليل على أن الموقف العدائى لبنى أمية من الهاشميين بل من النبى ودعوته، كان متأصلاً فى نفوسهم، فحكى البخارى عن عثمان ابن وهب قوله: «جاء رجل حج البيت فرأى قوماً جلوساً، فقال: من هؤلاء القعود؟ قالوا: قريش، قال: من الشيخ؟ قالوا: ابن عمر، فأتاه فقال: إنى سائلك عن شىء، أتحدثنى؟ أنشدك بحرمة هذا البيت أتعلم أن عثمان بن عفان فر يوم أحد؟ قال: نعم، قال: فتعلمه تغيب عن بدر فلم يشهدها؟ قال: نعم، قال: فتعلم أنه تخلف عن بيعة الرضوان فلم يشهدها؟ قال: نعم فكبر، فقال ابن عمر: تعال لأخبرك ولأبين لك عما سألتنى عنه، فأما فراره يوم أحد، فأشهد أن الله عفا عنه، وأما تغيبه عن بدر، فإنه كان تحته بنت النبى وكانت مريضة، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن لك أجر رجل ممن شهد بدراً وسهمه، أما تغيبه عن بيعة الرضوان، فإنه لو كان أحد أعز ببطن مكة من عثمان بن عفان لبعثه مكانه، فبعث عثمان وكانت بيعة الرضوان بعدما ذهب عثمان إلى مكة»(٩).

ثم موقف سادس. أعلن تشككه فى أمر الدعوة بكاملها، وعلاقة الرسول بالسماء، يمثله عتاب ابن قشير الذى وقف يتطلع إلى هزيمة المسلمين وهم يقتلون فى أحد ويقول:

لو كان من الأمر شىء ما قتلنا ها هنا(١٠).

وجاوبه رجع الصدى ممن هم على مثل رأيه:

لو كان نبياً ما قتل، فارجعوا إلى دينكم الأول(١١).

وهكذا كان الفرز، وهكذا جاءت أحد لتفصح بوقعتها عما بذات الصدور، وتحدد مواقف،

---

(٨) ابن حبيب: المحبر، سبق ذكره، ص ٢٨٣، ٢٨٤.

(٩) ابن كثير: سبق ذكره، ج ٤، ص ٢٩.

(١٠) السهيلى: سبق ذكره، مج ٣، ص ١٩٤.

(١١) الحلبى: سبق ذكره، مج ٢، ص ٥٠٤.

وتصنف الأتباع تصنيفاً كامل التحديد والوضوح، لأنه مقابل كل تلك المواقف المتخاذلة والمؤسفة، كانت هناك مواقف أخرى وإن كانت قليلة نادرة ضعيفة، لكنها دخلت الفرز وبرزت كمواقف مبدئية صارمة لا تقبل المساومة، فهذا (أنس بن النضر) ينادى (عمر بن الخطاب) و (على بن أبى طالب) و(أبا بكر) وصحبهم من أصحاب الصخرة ويقول:

يا قوم؛ إن كان محمد قد قتل، فإن رب محمد لم يقتل، فقاتلوا على ما قاتل عليه محمد، اللهم إنى أعتذر إليك مما يقول هؤلاء، وأبرأ إليك مما جاء به هؤلاء، ثم شد بسيفه يقاتل، حتى قتل[12].

وهكذا، وبينما المهاجرون فى فزعهم، والأنصار يقتلون الواحد بعد الآخر دون رسول الله وهو يصعد الشعب، وبينما المهاجرون يفكرون فى اللحاق بقومهم، فإن «رجلاً من المهاجرين مر على رجل من الأنصار، وهو يتشحط فى دمه، فقال له: يا فلان، أشعرت أن محمداً قد قتل؟ فقال الأنصارى: إن كان محمداً قد قتل، فقد بلغ، فقاتلوا عن دينكم»[13].

ثم ذلك الأنصارى المبارز الفارس، (أبو دجانة / سماك بن خرشة)، الذى ترس عن الرسول يتلقى عنه النبل، وظل محارباً يخوض معه المواقع بعدها بذات البطولة، (وقزمان) الأنصارى، الذى أبلى فى أحد بلاء يعادل فى ميزان القتال جيش المسلمين جميعاً، فنزل الحومة لا يكل ولا يهرب ولا يتراجع، يتخطف سيفه رؤوس المشركين رأساً فى إثر رأس، ويصول حتى ينغرس فى عمق ثلاثة آلاف مقاتل دون خطوة واحدة للوراء، حتى أعمق بينهم، وحتى عددت له كتب السير عشرة قتلى، من بين اثنين وعشرين قتيلاً مكياً هم كل من قتل المسلمون من قريش فى أحد، وبينما يعدد (ابن هشام) أسماء المقتولين من قريش، وقاتليهم من المسلمين، نقتطع ما يخص (قزمان) وحده، حيث يقول ابن هشام:

... وكلاب بن طلحة، والحارث بن طلحة، قتلهما قزمان... وأبو يزيد ابن عمير.. قتله قزمان، وصؤاب غلام له حبشى قتله قزمان... والقاسط ابن شريح.. قتله قزمان... وهشام بن أبى أمية بن المغيرة قتله قزمان، والوليد بن العاص بن هشام بن المغيرة، قتله قزمان... وعبيدة بن جابر وشيبة بن مالك بن المضرب، قتلهما قزمان،.. قال ابن إسحق: فجميع

---

(١٢) ابن كثير: سبق ذكره، ج ٤، ص ٢٤.
(١٣) البيهقى: سبق ذكره، ج ٣، ص ٢٤٨، ٢٤٩.

من قتل الله تبارك وتعالى من المشركين يوم أحد، اثنان وعشرون رجلاً[١٤].

ومع ذلك تصر كتبنا التراثية على وصم قزمان بأنه كان منافقاً، وأنه من أهل النار، وأن الله قد ينصر دينه على الكافر بالفاجر(؟!!)، حتى أن تلك الكتب قدمت روايات تستجهل (قزمان)، وتتجاهل معرفته من بين صحبه وآله من الأنصار، ومن تلك الروايات:

كان فينا رجل أني لا يُدرى من هو، يقال له: قزمان، فكان رسول الله يقول إذا ذكر: إنه لمن أهل النار، فلما كان يوم أحد قاتل قتالاً شديداً... وكان ذا بأس، وأثبتته الجراح، فاحتمل إلى دار بنى ظفر[١٥].

أما لماذا حمل إلى دار بنى ظفر بالذات، فإن كتب السيرة تروى روايات بعد أن تتذكر معرفتها بالرجل، فنعرف عند (ابن هشام) أنه «حليف بنى ظفر»[١٦]، فهو لم يكن مجهولاً، إنما التجهيل جاء عن عمد، ورغم نسبة قتلاه العشرة من المشركين إلى الله جل وعلا، «فجميع من قتل الله تبارك وتعالى يوم أحد من المشركين اثنان وعشرون رجلاً»، ضمنهم عشرة قتلهم قزمان وحده، دون أن يفر إلى شعب، ولا أن يلجأ إلى صخرة، ولا أن يهرب إلى المدينة، ولا أن يوغل ثلاثين ميلاً هرباً بعيداً عن الميدان، لينتظر هناك أياماً يستخبر على من كانت الكرة، ليحدد موقفه، أما السر وراء كل هذا التجهيل والتبخيس لرجل هذا بلاؤه، فيرجع إلى حديث ترويه كتب السيرة عن قزمان وهو جريح فى دار بنى ظفر:

فجعل رجال من المسلمين يقولون له: والله لقد أبليت اليوم يا قزمان فأبشر، قال: بماذا أبشر؟ فو الله ما قاتلت إلا عن أحساب قومي، ولولا ذلك ما قاتلت، فلما اشتدت عليه جراحه، أخذ سهماً من كنانته فقتل به نفسه[١٧].

وهو موقف يختلف إلى حد ما عن موقف (حاطب بن أمية) الذى أصيب ابنه (يزيد) فى أحد، فحملوه إلى دار قومه واجتمع حوله أهله،

فجعل المسلمون يقولون له من الرجال والنساء، أبشر يا ابن حاطب

(١٤) السهيلى: سبق ذكره، مج ٣، ص ١٩٢.
(١٥) ابن كثير: سبق ذكره، ج ٤، ص ٣٧.
(١٦) السهيلى: سبق ذكره، مج ٣، ص ١٩٢.
(١٧) ابن كثير: سبق ذكره، ج ٤، ص ٣٧.

بالجنة، وكان حاطب شيخاً قد عسا فى الجاهلية، فنجم يومئذ نفاقه فقال: بأى شيء تبشرونه؟ بجنة من حرمل؟ غررتم والله هذا الغلام من نفسه»[18]، وفى شرح السهيلى «الجنة من حرمل، يريد الأرض التى دفن فيها وكانت تنبت الحرمل، أى ليس له جنة إلا ذاك»[19].

مقتل أسد الله

فى يثرب، وبعد العودة من أحد «مر رسول الله صلى الله عليه وسلم، بدار من دور الأنصار، من بنى عبد الأشهل وظفر، فسمع البكاء والنواح على قتلاهم، فذرفت عينا رسول الله فبكى ثم قال: لكن حمزة لا بواكى له، فلما رجع سعد بن معاذ، وأسيد بن حضير إلى دار بنى عبد الأشهل، أمر نساءهم أن يتحزمن ثم يذهبن فيبكين على عم رسول الله»[20]. وهو ما يظهر مدى اللوعة التى أصابت قلب رسول الله صلى الله عليه وسلم، على مصابه فى عمه (حمزة بن عبد المطلب)، الذى قتله (وحشى الحبشى) عبد (جبير بن مطعم)، انتقاماً لمقتل عم جبير (طعيمة بن عدى) الذى سبق وقتله المسلمون فى بدر الكبرى، مع وعد لوحشى الحبشى بالعتق من العبودية إلى الحرية إن فعل، هذا مع وعد آخر تلقاه الحبشى الوحشى من (هند بنت عتبة) إن قتل حمزة انتقاماً لأبيها وأخيها وعمها، وكان المقابل الذى سيناله وحشى من هند، هو ما يعبر عنه نداؤها له كلما مر بها فى أحد، أو مرت به، وهى تردد بغنج وبدلال وترغيب:

ويها أبا دسمة،

اشـــف

واشـــتف[21].

ويرسم رواة السيرة، صورة حية لمقتل حمزة رضى الله عنه، بلسان قاتله وحشى، الذى يروى، أنه بينما كان حمزة يصول بسيفه «مر به سباع بن عبد العزى الغبشانى، وكان يكنى أبا نيار، فقال له حمزة: هلم إلىّ يا ابن مقطعة البظور، وكانت أمه أم إنمار... ختانة بمكة، فلما

---

(18) السهيلى: سبق ذكره، مج ٣، ص ١٦٨.

(19) نفسه: ص ١٧٧.

(20) الطبرى: التاريخ، سبق ذكره، ج ٢، ص ٥٣٢.

(21) ابن كثير: سبق ذكره، ج ٤، ص ١٢.

التقيا فضربه حمزة فقتله. وهنا عثر حمزة فوقع، فانكشف درعه الحديدى عن بطنه «فهززت حربتى حتى إذا رضيت منها، دفعتها عليه، فوقعت فى ثنته حتى خرجت من بين رجليه، فأقبل نحوى، فغلب، فوقع، وأمهلته حتى إذا مات، جئت فأخذت حربتى ثم تنحيت عن العسكر، ولم تكن لى بشىء حاجة غيره»[٢٢].

وهنا هرولت (بنت عتبة) المدللة الثائرة، لتبقر بطن حمزة رضى الله عنه، وتخرج كبده وتلوك منه قطعة تشفياً، حتى إذا انتهت المعركة ورحلت قريش، مر رسول الله بعمه وهو على تلك الحال، فوقف على رأسه وقد أخذ منه الكمد مأخذاً، حتى جعل يقول:

> لولا أن تحزن صفية، ويكون سنة بعدى، لتركته حتى يكون فى بطون السباع وحواصل الطير، ولئن أظهرنى الله على قريش فى موطن من المواطن، لأمثلن بثلاثين رجلاً منهم[٢٣].

وقد عقب بعض المفسرين بالقول: إن الوحى جاء يرد النبى عن ذلك بقوله: ﴿وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به﴾ (١٢٦/النحل)، لكن ابن كثير بحصافته، يدرك أمراً، فيقول:

> قلت هذه الآية مكية، وقصة أحد بعد الهجرة بثلاث سنين!! فكيف يلتئم هذا؟![٢٤].

أما ابن مسعود فيروى القول عن حال النبى يوم مقتل حمزة:

> ما رأينا رسول الله صلى الله عليه وسلم باكياً، أشد من بكائه على حمزة رضى الله عنه، وضعه فى القبلة ثم وقف على جنازته، وانتحب حتى نشق، وحتى بلغ به الغشى، وهو يقول: يا حمزة يا فاعل الخيرات، يا حمزة يا كاشف الكربات، يا حمزة يا ذاب[٢٥].

أما الأنصار، ورغم مصابهم فى قتلاهم، فإنهم عندما شاهدوا حزن ابن أختهم على عمه قالوا:

---

(٢٢) السهيلى: سبق ذكره، مج ٣، ص ١٥٢.
(٢٣) ابن كثير: سبق ذكره، ج ٤، ص ٤١.
(٢٤) الموضع نفسه.
(٢٥) الحلبى: سبق ذكره، مج ٢، ص ٥٣٤.

والله لئن ظهرنا عليهم يوماً من الدهر، لنمثلن بهم مثلة لم يمثلها أحد من العرب بأحد قط[٢٦].

ومن ثم ـ وعلى شرط مسلم ـ جاءت نساء الأنصار تبكى حمزة وتندبه، لما قال النبى: لكن حمزة لا بواكى له[٢٧].

وهكذا عادت قريش بعد أن أشفت ثأرها، واستشفت لقتلاها، تحمل فى ركابها حبلاً طويلاً تجر فيها الأسرى من المسلمين، تشعر أنها قد أعادت هيبتها فى عيون الأعراب، وردعت من فكر بموادعة يثرب على طرق التجارة الداخلية، وأعادت لطريق الإيلاف أمنه، مع اعتزازبنجاحها فى إعادة كنانة إلى إيلافها، ومشاركتها قريشاً فى أحد، وهو ما عبر عنه شعر هبيرة بن أبى وهب وهو يقول:

سقنا كنانة من أطراف ذى يمن	عرض البلاد على ماكان يزجيها
قالت كنانة: أنى تذهبون بنا؟	قلنا: النخيل، فأموها ومن فيها
نحن الفوارس يوم الجر من أحد	هابت معد، فقلنا نحن نأتيها

فأجابه شاعر الرسول حسان بن ثابت وهو يقول:

سقتم كنانة جهلاً من سفاهتكم	إلى الرسول، فجند الله مخزيها
أوردتموها حياض الموت ضاحية	فالنار موعدها والقتل لاقيها
ألا اعتبرتم بخيل الله إذ قتلت	أهل القليب ومن ألقينه فيها

ثم قام (كعب بن مالك) يدعم (ابن ثابت) بالقول:

ونحن أناس لا نرى القتل سبة	على كل من يحم الذمار ويمنع
جلاد على ريب الحوادث لا نرى	على هالك لنا عيناً لنا الدهر تدمع
بنو الحرب لا نعيا بشىء نقوله	ولا نحن مما جرّت الحرب نجزع

وهنا قام (عبد الله بن الزبعرى) يرد على (حسان بن ثابت) مؤكداً أن النصر كان حليف قريش، وأنهم مقابل شيوخ الملأ فى بدر، قد قتلوا من سادة يثرب ومحاربيها من لا يقلون شرفاً

---

(٢٦) الطبرى: سبق ذكره، ج ٢، ص ٥٢٩.

(٢٧) ابن كثير: سبق ذكره، ج ٤، ص ٤٩.

ومحتداً، بل ويزعم أن قريشاً قد قتلت من اليثاربة ضعف ما قتل المسلمون من قريش فى بدر، ويقوم ذلك فى قوله:

يا غـراب البين؛ أسـمعت فقـل ... إنمـا تنطـق شـيئاً قـد فعـل
أبلغـن حسـان عنـى آيـة ... فقريض الشعر يشفى ذا الغلل
كـم قتلـنا مـن كريـم سـيد ... ما جـد الجـدين مقـدام بطـل
ليت أشـياخى ببـدر شـهدوا ... جـزع الخـزرج من وقـع الأسـل
حـين حكـت بقـبـاء بركهـا ... واسـتحر القتـل فى عبـد الأشـل
فقتلنـا الضعـف مـن أشـرافهم ... وعدلنـا ميـل بـدر فاعتـدل

فأجابه (حسان) يرد له الصاع صاعين بقوله:

ذهبـت يا ابـن الزبعـرى وقعـة ... كـان منـا الفضل فيها لـو عـدل
ولقـد نلتـم ونلنـا منكـم ... وكـذاك الحـرب أحـياناً دول
نضـع الأسـياف فى أكتـافكـم ... ـــــــــــ
نخـرج الإصـبع مـن إسـتاهكم ... ـــــــــــ
وتركنـا فى قريـش عـورة ... يـوم بـدر، وأحـاديث المثـل

أما (هند بنت عتبة) فقد كانت ترسل شعرها يعلن استشفاءها بعد ثأرها من (حمزة)، وهى تنادى المسلمين بقولها:

نحـن جزينـاكم بيـوم بـدر ... والحرب بعـد الحـرب ذات سـعر
ما كـان لى عن عتبـة من صبر ... ولا أخـى وعمـه وبكـر
شـفيت نفسـى وقضـيت نـذرى ... شـفيت وحشـى غليـل صدرى
فشـكر وحشـى علىّ عمـرى ... حتى تـرم أعظمـى قـبرى[٢٨]

هذا، وإن كانت (هند) ترى فى نفسها بقية من رغبة لم تتحقق، فى القضاء على كل هاشمى وكل أنصارى، فتقول:

(٢٨) نفسه: ص ٣٩. (الخطأ العروضى فى الشطر الثانى من البيت الثانى من شعر كعب بن مالك هكذا فى الأصل).

رجعت وفى نفسى بلابل رحـــمة وقد فاتنى بعـض الـذى كـان مطلبى
من أصحاب بدر من قريش وغيرهم بنـى هاشـم منهـم ومن أهـل يثرب
ولكننــى قـــد نلــت شـيئاً ولم يكــن كما كنت أرجو فى مسيرى ومركبى[٢٩]

فقامت (هند بنت أثاثة بن عبد المطلب)، سليلة البيت الهاشمى، وقد استنفرها شعر (هند بنت عتبة)، لترد عليها قائلة:

خــزيت فى بـــدر وبعـــد بـــدر يا بنــت وقـــاع عظـــيم الكفــــر
صبحــك اللــه غـــداة الفجـــر م الهاشـــميين الطـــوال الزهـــر
بكـــل قطّـــاع حســـام يغـــرى حمـــزة ليثـــى وعلـــىٌّ صـــقرى
إذا رام شـــيب وأبـــوك عـــذرى مخضـــباً منه ضـــواحى النحـــر

ونـــــذرك الســــوء فشــــر نـــــذر[٣٠]

واستمر (حسان بن ثابت) يتبع قوافى (هند بنت عتبة)، ليقع بها وقعة فاحشة، ويرفع الستر عن سرها، ليقول:

لعـــن الإلـــه وزوجهـــا معهـــا هنـــد الهنــود عظيمـــة البظـــر
أُخْــرِجْــتِ مرقصـــة إلى أحـــد فى القـــوم، مقتبـــة على بكـــر
بكـــر ثقـــال لا حـــراك بـــه لا عـــن معاتبـــة ولا زجـــر
وعصـــاك إســـتك تتقـــين بهـــا دقـــى العجايـــة هـــند بالفهـــر
قرحـــت عجيزتهـــا ومشـــرجها من دأبهـــا نصـــاً علـــى القـــتر
ونســيت فاحشـــة أتيـــت بهـــا يا هـــند ويحـــك ســـبة الدهـــر
زعـــم الولائـــد أنهـــا ولـــدت ولـــداً صـغيراً كان من عـــهر[٣١]

---

(٢٩) السهيلى: سبق ذكره، مج ٣، ص ٢١٥.
(٣٠) ابن كثير: سبق ذكره، ج ٤، ص ٣٩.
(٣١) الطبرى: سبق ذكره، ج ٢، ص ٥٢٥، ٥٢٦.

باب ثان

نتائج غزوة أحد

«والله ما أبتغى أن يستغفر لى، إن قمت إلا لأشدد أمره» .

[عبدالله بن أبى بن سلول]

يقول البيهقى مصوّراً حال يثرب بعد هزيمة المسلمين فى أحد بقوله:

وأخذ المنافقون عند بكاء المسلمين فى المكر... وتحزين المؤمنين... وفارت المدينة بالنفاق فور المرجل[1].

ونعت النفاق عند أُحد تحديداً، صار - كما هو واضح فى كتب الأخبار - يلحق بكل معترض، أو بكل من عقب على الهزيمة بالتشكيك، وهو ما يظهر واضحاً فى قول ابن كثير:

وقالت اليهود: لو كان نبياً ما ظهروا عليه، ولا أصيب منه ما أصيب، لكنه طالب ملك تكون له الدولة وعليه، وقال المنافقون مثل قولهم، وقالوا للمسلمين: لو كنتم أطعتمونا ما أصابكم الذى أصابوا منكم[2].

والإشارة هنا إلى ثلاثمائة أنصارى، قرروا قبل المعركة البقاء فى المدينة، وعدم الخروج إلى أحد، برأى عسكرى عركته خبرتهم بمناعة مدينتهم، وإزاء ذلك الفوران، الذى بات يهدد هيبة الدولة الناشئة، ويعطى الفرصة للرؤوس المحنية للتعالى والتغامز، وما قد يجره ذلك من تردى هيبة صنعها المجاهدون بدمائهم فى بدر، كان لابد من خطوة أولى لتهدئة روع المسلمين، ومن ثم استرسل الوحى يرد على هؤلاء بالقول الكريم:

- ﴿الذين قالوا لإخوانهم وقعدوا لو أطاعونا ما قتلوا قل فادرءوا عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين﴾ (١٦٨/آل عمران).

- ﴿وما أصابكم يوم التقى الجمعان فبإذن الله وليعلم المؤمنين...﴾ (١٦٦/ آل عمران).

- ﴿وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله كتاباً مؤجلاً﴾ (١٤٥/ آل عمران).

- ﴿أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم﴾ (١٤٢/ آل عمران).

أما الذين حزنوا على المغانم الزائلة من عرض الدنيا، فقد توجه إليهم الوحى يقول:

- ﴿ذلك متاع الحياة الدنيا والله عنده حسن المآب﴾ (١٤/آل عمران).

---

(١) البيهقى: دلائل النبوة، سبق ذكره، السفر الثالث، ص ٢١٦.

(٢) ابن كثير: البداية والنهاية، سبق ذكره، ج ٤، ص ٤٩.

ـ ﴿ولئن قتلتم فى سبيل الله أو مُتم لمغفرة من الله ورحمة خير مما يجمعون﴾ (١٥٧/آل عمران).

ـ ﴿ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون﴾ (١٦٩/آل عمران).

العلاج النفسى

والدليل أن النبى صلى الله عليه وسلم قال: «لما أصيب إخوانكم بأحد، جعل الله أرواحهم فى جوف طير خضر، ترد أنهار الجنة، وتأكل من ثمارها، وتأوى إلى قناديل من ذهب معلقة فى ظل العرش، فلما وجدوا طيب مأكلهم ومشربهم ومقيلهم، قالوا: من يبلغ إخواننا عنا أننا أحياء فى الجنة نرزق، لئلا ينكلوا عند الحرب، ولا يزهدوا فى الجهاد، قال الله عز وجل: أنا أبلغهم عنكم، فأنزل الله تعالى: ﴿ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله..﴾»[٣].

ثم يلتفت المصطفى إلى (جابر) رضى الله عنه ويقول له: «يا جابر؛ ألا أبشرك؟ قال: بلى بشرك الله بالخير. قال: شعرت أن الله أحيا أباك فقال: تمن على عبدى، ما شئت أعطكه، قال: يارب ما عبدتك حق عبادتك، أتمنى عليك أن تردنى إلى الدنيا فأقتل مع نبيك، وأقتل فيك مرة أخرى، قال: إنه قد سلف منى القول، لا يرجع إليها»[٤].

وهكذا كان العلاج النفسى، والبلسم الشافى المداوى، ولم شتات الأنفس المبعثرة فرقاً وهلعاً، وتقوية العزائم بتثبيت الإيمان، لكن مؤرخينا لا يجدون ـ عافاهم الله ـ فى تلك الخطة المداوية، والكلام السديد بالرأى الرشيد، كفاية وشفاء وغناء، إنما يطمحون دوماً كدأبهم إلى حديث الأحاجى والمعجزات، وهو حديث ما كان يشفى أصحاب أحد وهم مهزومون، قدر ما يشفيهم الوحى الصادق، والقيادة الحكيمة، لكن أحاديث الأحاجى كتبت على ما يبدو لأجيال بعد ذلك ستقرأ التاريخ، وربما تتساءل فى ضوء المشروع عقلاً، فكان إلقامهم سلفاً تلك الدلائل على الإعجاز، رغم تجرع المسلمين مرارة الهزيمة فى هدوء وبطولة، فجاءتنا الروايات تقفو بعضها، لتعيد حديث الملائكة، وتؤكد أن الملأ الأعلى المحارب قد هبط إلى أحد، وأعمل خبرته القتالية

(٣) انظر الحديث فى مسلم، رواه موقوفاً فى ٣٣ من كتاب الإمارة، بيان أن أرواح الشهداء فى الجنة.
(٤) البيهقى: سبق ذكره، ج ٣، ص ٢٩٨.

فى المعركة، غير مدركين إلى أى منزلق يذهبون بتلك المزاعم، ومنها ما جاء يحكى عن الوقعة فى حميتها، والرسول يتعرض للهجوم، وأمامه سعد بن أبى وقاص، «فقال عليه الصلاة والسلام لسعد: اردده‍م، قال: كيف أرده‍م وحدى؟ فقال له: اردده‍م، قال سعد رضى الله عنه: فأخذت سهماً من كنانتى فرميت به رجلاً منهم فقتلته، ثم أخذت سهماً آخر فإذا هو سهمى الذى رميت به، فرميت به آخر فقتلته، ثم أخذت سهماً فإذا هو الذى رميت به فرميت به آخر فقتلته، فهبطوا من مكانهم، فقلت: هذا سهم مبارك، فكان عندى فى كنانتى لا يفارق كنانتى».

ولا تفطن الروايات إلى أن سعداً لو استمر بسهمه المبروك هذا، لأفنى المشركين، ثم تؤكد أن هذا السهم «كان بعده عند بنيه... وروى عنه أنه قال: لقد رأيتنى أرمى بالسهم يوم أحد، فيرده علىّ رجل أبيض حسن الوجه لا أعرفه، حتى كان بعد... فظننت أنه ملك».

ثم ينسب لسعد حديث آخر يقول فيه:

> رأيت يوم أحد عن يمين النبى عليه الصلاة والسلام وعن يساره، رجلين عليهما ثياب بيض، يقاتلان عن رسول الله أشد القتال، ما رأيتهما قبل ذلك اليوم ولا بعده[٥].

بل وتحدد كتب التراث الرجلين البيض بالثياب البيض بالاسم فقد كانا الملكين (جبريل) و(ميكائيل)[٦].

ورواية أخرى، تضع سعداً مرة أخرى، فى حبكة أخرى، تقول:

> لما كان يوم أحد انكشفوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وسعد يرمى بين يديه، وفتى ينبل له كلما ذهبت نبلةٍ أتاه بها، يقول: ارم أبا إسحق، فلما فرغوا نظروا: من الشاب؟ فلم يروه ولم يعرف[٧].

ومثل تلك الروايات التى تصر على نزول الملائكة إلى أحد وحربها مع المسلمين، رواية تحكى عن أمر تعلمه كتب الأخبار، وهو أن (أبا الروم) أخو (مصعب بن عمير)، حمل اللواء من (مصعب) بعد سقوط أخيه شهيداً، وفى زحمة المعركة وهولها، ومع إصابة النبى تلك الإصابات الشديدة، ظن أبا الروم مصعباً، لكن الرواية تتم حياكتها لتخبرنا خبراً آخر يقول:

---

(٥) البخارى: كتاب المغازى، باب: إذا همت طائفتان منكم أن تفشلا.

(٦) مسلم: كتاب الفضائل، باب قتال جبريل وميكائيل عن النبى يوم أحد.

(٧) البيهقى: سبق ذكره، ج ٣، ص ٢٥٦.

ولما قتل مصعب بن عمير رضى الله عنه، وسقط اللواء، أخذه ملك فى صورة مصعب... وجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يقوم للملك الذى على صورة مصعب: تقدم يا مصعب، فالتفت إليه الملك فقال: لست بمصعب، فعرف عليه الصلاة والسلام أنه ملك أُيِّد به.

هذا بينما يعقب الحلبى فى سيرته على الرواية فيقول: «... رأيت فى رواية أنه لما سقط اللواء، أخذه (أبو الروم) أخو (مصعب)، ولم يزل فى يده حتى دخل المدينة»[8].

وفى سياق سوق المعجزات، لا يرضى (الحلبى) فى موضع آخر من سيرته، إلا بموتة قميئة لابن قمئة الذى شج النبى فى وجهه وضربه بالمغفر، فيقول:

إن هذه الشجة لم تشنه، بل زادته جمالاً... فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أقمأك الله... وقد استجاب فيه دعوة نبيه، فإنه بعد الوقعة خرج إلى غنمه فوافاها على ذروة الجبل، فأخذ يعترضها، فشد عليه كبشها، فنطحه أرداه من شاهق الجبل فتقطع[9].

كذلك تثنى الروايات على (أبى بن خلف) الذى قتله النبى بالحربة، حتى يسكته عن إسماع المشركين ندائه وهو يهتف: أى محمد؟ لا نجوت إن نجا، لتقول بلسان عبد الله بن عمر:

مات أبى بن خلف ببطن رابغ، فإنى لأسير ببطن رابغ بعد هوى من الليل، إذا نار تتأجج لى فهبتها، وإذا رجل يخرج منها فى سلسلة يجتذبها وهو يصيح: العطش العطش، وإذا رجل يقول: لا تسقه، فإن هذا قتيل رسول الله، هذا أبى بن خلف[10].

ثم لا يجد مؤرخونا بأسا هنا من تكرار بعض ما صاغوه لبدر الكبرى، ومنها القول: «أخبرنا أشياخنا أن عبد الله بن جحش جاء إلى النبى يوم أحد وقد ذهب سيفه، فأعطاه النبى صلى الله عليه وسلم عسيباً من نخل، فرجع فى يد عبد الله سيفاً... وأصيبت يومئذ عين قتادة بن نعمان حتى وقعت على وجنته، فردها رسول الله صلى الله عليه وسلم فكانت أحسن عينيه وأحدّهما،

(٨) الحلبى:السيرة، مج ٢، ص ٥٤٤، ٥٤٥.

(٩) نفسه: ص ٥١٣، ٥١٤.

(١٠) البيهقى: سبق ذكره، ج ٣، ص ٢٥٩.

وتفصيل إعادة تركيب العين في موضعها، في أن النبي «رفع حدقته فوضعها موضعها ثم غمزها براحته، وقال: اللهم اكسه جمالاً، فمات وما يدرى من لقيه أى عينيه أصيبت»(١١).

ثم يعرج رواة السير والأخبار على ألوان أخرى من الروايات، قصدوا بها التدليل على صدق نبوة المصطفى صلى الله عليه وسلم، وعصمته، وطهارته، وطهارة جسده، وما قد ينال المؤمن الصادق إذا ما نال من ذلك الجسد شيئاً، يرفع من مكانته ويزكيه، لكنها من جانب آخر - إن كانت قد حدثت - فإنها تلقى ضوءاً على المكانة التى وصل إليها رسول الله بين أتباعه وربما قصد بتلك الروايات وضعها فى مقابلة مع أخبار من شك أو فر وهرب، لإثبات وجود المؤمنين الصادقين الثابتين، الواثقين بنبيهم إلى حد التبتل فيه، حداً لم يصله قبله إنسان ولا بعده، ومن تلك الروايات أن (مالكاً بن سنان الخدرى)، أبا (سعيد الخدرى)، قد امتص دم النبى من جروحه فى أحد، وازدرد تلك الدماء، فقال النبى:

من سره أن ينظر إلى رجل لا تمسه النار، فلينظر إلى مالك بن سنان،
من مس دمى لم تصبه نار.

ويعقب (الحلبى) على ازدراد دم النبى تعقيباً شارحاً مطولاً يقول فيه: «ولم ينقل أنه صلى الله عليه وسلم، أمر هذا الذى امتص دمه بغسل فمه، ولا أنه غسل فمه بعد ذلك، كما لم ينقل أنه أمر حاضنته أم أيمن بركة الحبشية رضى الله عنها، بغسل فمها، ولا هى غسلته بعد ذلك لما شربت بوله صلى الله عليه وسلم، ففيها رضى الله عنها أنها قالت: قام رسول الله من الليل إلى فخارة تحت سريره، فبال فيها، فقمت وأنا عطشى فشربت ما فى الفخارة، وأنا لا أشعر، فلما أصبح النبى صلى الله عليه وسلم، قال: يا أم أيمن، قومى إلى تلك الفخارة فأهريقى ما فيها، فقالت: والله لقد شربت ما فيها، فضحك حتى بدت نواجذه، ثم قال: لا يجفر بطنك بعده أبداً... أى لا تشتكى بطنك... وقد شربت بوله أيضاً امرأة يقال لها بركة بنت ثعلبة بنت عمرو، وكانت تخدم أم حبيبة رضى الله عنها، جاءت معها من الحبشة،... وفى كلام ابن الجوزى، بركة بنت يسار مولاة أبى سفيان الحبشية، خادمة أم حبيبة زوج النبى صلى الله عليه وسلم،... فقال لها حين علم أنها شربت ذلك: صحة يا أم يوسف، فما مرضت قط، حتى كان مرضها الذى ماتت فيه»(١٢).

---

(١١) نفسه: ص ٢٥١، ٢٥٢، ٢٥٣.

(١٢) الحلبى: سبق ذكره، مج ٢، ص ٥١٥، ٥١٦.

غزوة حمراء الأسد

هكذا كانت البلسمة الشافية لجراح أحد على المستوى النفسى، لإعادة تثبيت المؤمنين حول الإيمان، وحول نبيهم صلى الله عليه وسلم، وعلاقته الحميمة بمحبيه ومريديه والخلص له، أما على المستوى العسكرى، فإن (ابن هشام) راوى السيرة يحكى:

> فلما كان الغد يوم الأحد، لست عشرة ليلة مضت من شوال، أذن مؤذن الرسول فى الناس بطلب العدو، ... أنه لا يخرجن معنا أحد، إلا أحد حضر يومنا بالأمس.

ثم يعقب بالقول: «وإنما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم، مرهباً للعدو، وليبلغهم أنه خرج فى طلبهم، ليظنوا به قوة، وأن الذى أصابهم لم يوهنهم عن عدوهم»[١٣].

وعليه، فإن قريشاً لم تستمتع بنشوة نصرها سوى ليلة واحدة، أو بضع منها، وخاب فألها فى هيبتها، وسقطت آمالها فى تأمين طريق الإيلاف، فلم تمض شوطاً عن المدينة، حتى خرج المسلمون وهم بعد جرحى، بزعامة قائدهم المقتدر، رغم ما أثقل جسده الشريف من آلام وجراح، إلى حمراء الأسد، ليوهم قريشاً أنه خرج لها مطارداً، وأن المسلمين لم يهنوا أو يتخاذلوا ليسلبهم لذة نصر الأمس، ونشوة عزهم الكاذب، وليثبت لهم أن ما حدث بأحد، كان أمراً اعتراضياً فى مشوار طويل سيطول مداه، وأن النبى لن يتراجع عما انتواه، وبالفعل خرج المسلمون إلى حمراء الأسد طاعة لنبيهم رغم جراحهم، «فمنهم من كان به تسع جراحات، وهو أسيد بن حضير رضى الله عنه، وعقبة بن عامر رضى الله عنه، ومنهم من كان به عشر جراحات وهو خراش بن الصمة رضى الله عنه، ومنهم من كان به بضع عشرة جراحة، وهو كعب بن مالك رضى الله عنه، ومنهم من كان به بضع وسبعون جراحة، وهو طلحة بن عبيد الله... وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو مجروح فى وجهه من أثر الحلقتين، ومشجوج فى وجهه، ومكسورة رباعيته، وشفته السفلى قد جرحت من باطنها، وشفته العليا قد كلمت من باطنها، متوهن منكبه لضربة ابن قمئة لعنه الله، وركبتاه مجروحتان من وقعته فى الحفيرة»[١٤].

ثم نعلم أن خزاعة بمشركيها، رغم هزيمة المسلمين، ظلت على عهدها ليثرب وقائدها، وهنا يجب ألا ننسى، أن خزاعة لم تنس أبداً أن قريشا سلبتها سيادتها على مكة وعلى البيت، وطردتها

---

(١٣) السهيلى: الروض الأنف فى تفسير السيرة النبوية لابن هشام، سبق ذكره، مج ٣، ص ١٧٣.

(١٤) الحلبى: سبق ذكره، مج ٢، ص ٥٥١، ٥٥٢.

من مكة بعد أن تحالفت مع من والاها من قبائل العرب، بحيلة احتال بها سلف قريش (قصيّ بن كلاب) على (أبى غبشان الخزاعى)، فاشترى منه مفتاح الكعبة بزق من الخمر وقعود[١٥]، لذلك:

كانت خزاعة مسلمهم وكافرهم عيبة رسول الله صلى الله عليه وسلم بتهامة، صفقتهم معه لا يخفون عنه شيئاً كان بها، ومعبد بن أبى معبد الخزاعى يومئذ مشرك، مر برسول الله صلى الله عليه وسلم وهو مقيم بحمراء الأسد، فقال: يا محمد؛ أما والله لقد عز علينا ما أصابك فى أصحابك، ولوددنا أن الله عافاك فيهم، ثم خرج من عند رسول الله بحمراء الأسد، حتى لقى أبا سفيان بن حرب ومن معه بالروحاء، وقد أجمعوا الرجعة إلى رسول الله وأصحابه،... فلما رأى أبو سفيان معبداً قال: ما وراءك يا معبد؟ قال: محمد قد خرج فى أصحابه يطلبكم فى جمع لم أر مثله قط، يتحرقون عليكم تحرقاً، قد اجتمع معه من كان تخلف عنه فى يومكم، وندموا على ما صنعوا، فيهم من الحنق عليكم ما لم أر مثله قط، قال: ويلك ما تقول؟ قال: والله ما أراك ترتحل حتى ترى نواصى الخيل... فقال النبى وهو بحمراء الأسد حين بلغه أنهم هموا بالرجعة، والذى نفسى بيده، لقد سومت لهم حجارة، لو صبحوا بها لكانوا كأمس الذاهب[١٦].

وعليه، شدت قريش فى طريق العودة سراعاً نحو مكة، وهى تظن يثرب بجمعها قد خرجت وراءها تطلبها، بينما كان النبى عليه الصلاة والسلام فى طريق عودته من حمراء الأسد إلى يثرب، بعد أن حقق غرض الإرهاب لقريش، ليبدأ بالمرحلة الثالثة من علاج نتائج أحد، بعد العلاج النفسى، والإرهاب العسكرى، فقام يضرب بسرعة وبقوة، كل القوى المناوئة والمضادة فى يثرب، وكل من سولت له نفسه التشفى أو التهكم أو ابتهال الفرص، وهو ما بدأه بإصدار الأمر بقتل (الحارث بن سويد بن الصامت)، الذى قتل (المجذر بن زياد) فى أحد، ثأراً لأبيه:

فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم، عويمر بن ساعدة بضرب عنقه، فقال له: قدّم الحارث بن سويد إلى باب المسجد واضرب عنقه، وقيل أمر عثمان بن عفان بذلك (والمرجح أن عثمان هو الذى قتله)، فقدم ليضرب

---

(١٥) انظر: سيد القمنى، الحزب الهاشمى، سبق ذكره،

(١٦) ابن كثير: البداية والنهاية، سبق ذكره، ج ٤، ص ٥٠ : ٥٢.

> عنقه، فقال الحارث: لم يا رسول الله؟ فقال: بقتلك المجذر بن زياد،... فقال الحارث: والله قتلته، وما كان قتلي إياه رجوعاً عن الإسلام ولا ارتياباً فيه، ولكن حمية من الشيطان، وإني أتوب إلى الله ورسوله مما عملت، وأصوم شهرين متتابعين، وأعتق رقبة، فلم يقبل منه النبي صلى الله عليه وسلم[17].

أما (ابن سلول) الذى عاد بثلث جيش المسلمين من أحد، متشككاً في النصر الموعود، والملائكة المنزلة، فكان له شأن آخر، نقرأه في رواية تقول:

> كانت عادة عبد الله ابن أبي بن سلول، إذا جلس النبي صلى الله عليه وسلم يوم الجمعة على المنبر، قام فقال: أيها الناس، هذا رسول الله بين أظهركم، أكرمكم الله تعالى به وأعزكم، فانصروه وعزروه، واسمعوا له وأطيعوا، ثم جلس.

ومثل ذلك القول المعتاد من (ابن سلول)، يشير إلى أمر الرجل كسيد من سادة المدينة، يوجه نصحه وأمره لرجاله وأتباعه وحلفائه، بطاعة النبي، كما يشير لهم أنه بخطابه قد بدأ هو بالطاعة للنبي وعليهم اتباعه، كما أن تلك المقدمة الدورية منه كل جمعة، كانت تعني من جانب آخر، تنازلاً مضطراً للسيد الجديد، كما كانت تمسحاً به وتزلفاً لبقية المؤمنين، وهو يعطيها كما لو كان يعطي برضاه، أو كمن تنازل عن السيادة وأمر أتباعه بالطاعة ولولاه ما أطاعوا، إنها المحاولة الدائبة من سيد انحدر أمره يريد التشبث بما بقي له من ظلال السيادة، ولو على من بقي له من أتباع، ليقوم ممثلاً لهم معطياً بيعة دورية للسيد الجديد، لكن بعد أحد، حدث ما جاء في كتب السير يقول:

> فبعد أحد، أراد أن يفعل ذلك، فلما قام، أخذ المسلمون بثوبه من نواحيه، وقالوا له: اجلس عدو الله، والله لست لذلك بأهل، وقد صنعت ما صنعت، فخرج وهو يتخطى رقاب الناس وهو يقول: كأني إنما قلت هجراً؟! وقال له بعض الأنصار: ارجع يستغفر لك رسول الله، فقال: والله ما أبتغي أن يستغفر لي، إن قمت إلا لأشدد أمره[18].

وهكذا سقط ما كان قد تبقى لابن سلول من سيادة وتشريف، كان يلتمسه عبر تقديم سيد

---

(١٧) الحلبي: سبق ذكره، مج ٢، ص ٥٥٥، ٥٥٦.

(١٨) نفسه: ص ٥٩٤، انظر أيضاً ابن كثير: سبق ذكره، مج ٤، ص ٥٣.

المدينة الجديد لأتباعه، وانحدر أمره، وتضاءل حجمه وأمعن بقيّة الأنصار مع المهاجرين في تصغيره، حتى لا يكون فتنة للمسلمين بعد الهزيمة، وحتى لا يكون ذا أثر محسوس لمعارضة حية أو نشطة في الدولة الجديدة، زمن حرب ومعركة دائبة.

المعارضون

ثم كان أن سل الإسلام سيفه على الرؤوس الكبيرة داخل المدينة وخارجها، إرهاباً وإنذاراً، لتعود القبائل إلى الانكماش، ولا تجد في أحد فرصة للتطاول على دولة المسلمين الطالعة، وفي ذلك يذكرنا (ابن حبيب) بمقتل الرأس اليهودي (كعب بن الأشرف)، الذي هاله أمر قتلى المشركين في بدر وأفصح بالعداء للمسلمين، لكن ليضيف إليه رأساً آخر تم اجتثاثه، فيقول: «وفي سنة ثلاث، بعث محمد بن مسلمة وسلكان بن سلامة إلى كعب بن الأشرف فقتلاه ... وبعث في النصف من رجب عبد الله بن أنيس إلى سلام بن أبي الحقيق اليهودي فقتله»[١٩]، ويفصّل لنا (ابن كثير) أمر اغتيال (أبي رافع/ سلام بن أبي الحقيق) بقوله: «وكانت الأوس قبل أحد قد قتلت كعب بن الأشرف، فاستأذن الخزرج رسول الله صلى الله عليه وسلم في قتل سلام بن أبي الحقيق وهو بخيبر، فأذن لهم، قال ابن إسحق: فحدثني محمد بن مسلم الزهري عن عبد الله بن كعب بن مالك قال: وكان مما صنع الله لرسوله صلى الله عليه وسلم، أن هذين الحيين من الأنصار والأوس، كانا يتصاولان مع رسول الله تصاول الفحلين، لا تصنع الأوس شيئاً فيه غناء عن رسول الله إلا وقالت الخزرج: والله لا يذهبون بهذه فضلاً علينا عند رسول الله، فلا ينتهون حتى يوقعوا مثلها، وإذا فعلت الخزرج شيئاً قالت الأوس مثل ذلك، ولما أصابت الأوس كعب بن الأشرف في عداوته لرسول الله قالت الخزرج: والله لايذهبون بها فضلاً علينا أبداً. قال: فتذاكروا من رجل لرسول الله في العداوة كابن الأشرف، فذكروا ابن أبي الحقيق وهو بخيبر، فاستأذنوا رسول الله فأذن لهم، فخرج من الخزرج من بني سلمة خمسة نفر: عبد الله بن عتيك، ومسعود بن سنان، وعبد الله بن أنيس وأبو قتادة الحارث بن ربعي، وخزاعي بن أسود حليف لهم ... حتى إذا قدموا خيبر أتوا دار ابن أبي الحقيق ليلاً ...»، ثم يروي راويهم «فلما دخلنا عليه، أغلقنا عليه وعلينا الغرفة، فابتدرناه وهو على فراشه بأسيافنا، فو الله ما يدلنا عليه في سواد الليل إلا بياضه، كأنه قبطية ملقاة ... وتحامل عليه عبد الله بن أنيس بسيفه في بطنه حتى أنفذه وهو

(١٩) ابن حبيب: المحبر، سبق ذكره، ص ١١٧.

يقول: قطنى قطنى..». أما (ابن أنيس) فيؤكد المقتلة حتى الموت بقوله:

فوضعت السيف فى بطنه، ثم انكفأت عليه، حتى سمعت صوت العظم.

وقال (الزهرى): قال (أبى بن كعب): فقدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو على المنبر: فلما رآهم قال: أفلحت الوجوه... فقال حسان بن ثابت فى ذلك، يعلم الحاضر والبادى أن سيف الإسلام وإن تراجع مهزوماً فى أحد، فلا زال قادراً على قطع الرؤوس:

للـــه در عصـــــابة لاقيتهـــــم	يا ابن الحقيق وأنت يا ابن الأشرف
يسـرون بالبيـض الخفـاف إليكـم	مرحـاً كأسـد فى عريـن مغـرف
حـتى أتوكـم فى محـل بلادكـم	فسـقوكم حتفـاً ببيـض ذفـف
مستبشـرين لنصـر ديـن نبيهـم	مستصـغرين لكل أمـر مجحـف[20]

وإذ يصر (ابن حبيب) فى كتابه المحبر، على اغتيال أبى رافع سلام بن أبى الحقيق، بعد أحد مباشرة، فإن رواة السيرة فى مواضع مختلفة يحاولون تبرير المقتلة، فيقولون إنها حدثت فيما بعد، بعد وقعة الخندق، والسبب هو أن (سلام بن أبى الحقيق) كان أحد الذين حزبوا الأحزاب ضد دولة الرسول وهو ما يناقض ما جاء فى شعر (حسان بن ثابت)، عندما جمع بين مقتل (كعب ابن الأشرف) ومقتل (أبى رافع سلام بن أبى الحقيق) فى قصيدته التى تستعرض قوة السيف الإسلامى، ومعلوم أن (ابن الأشرف) قد تم قتله بعد أحد مباشرة لقولته التى قالها، هذا بينما نعلم من (ابن سيد الناس) فى مغازيه (عيون الأثر)، أن (أبا رافع سلام بن أبى الحقيق) قد قتل بعد أحد، وتم تسييد سيد بعده على خيبر هو (أسير بن رزام)، وذلك فى قوله: «لما قتل أبو رافع سلام ابن أبى الحقيق، أمرت يهود عليهم أسير بن رزام، فسار فى غطفان وغيرهم فجمعهم لرسول الله»، ومن ثم فإن من حزب الأحزاب هنا هو (أسير بن رزام) وليس (أبا رافع)، لأن أبا رافع كان قد قتل بعد أحد، وقد تم خلط بعد ذلك بين كليهما، إذ أن (أسير بن رزام) هو الذى قتل بعد تحزيبه الأحزاب فى سرية إسلامية أخرى، سرت إليه لتقتله بعد غزوة الأحزاب أو الخندق كما سنرى[21]. بل إنه فى رواية ابن هشام ما يؤكد قتل (أبى رافع) بعد أحد مباشرة، فى قوله السالف «وكانت الأوس قبل أحد قد قتلت كعب بن الأشرف، فاستأذن الخزرج رسول الله فى قتل سلام بن أبى الحقيق».

---

(٢٠) ابن كثير: سبق ذكره، ج ٤، ص ١٣٩ : ١٤٢.

(٢١) ابن سيد الناس: عيون الأثر، سبق ذكره، ج ٢، ص ١٤٥.

ثم انطلق سيف الإسلام داخل يثرب يعمل عمله لإسكات أى لون من ألوان الاستهانة بالدولة، وهى الاستهانة والمعارضة التى يمكن أن تشكل كارثة لدولة عسكرية فى زمن حرب، وهو ما نقرأه فى قصة اغتيال (أبى عفك/ عمرو بن عوف)، ذلك الشيخ الذى تخطى بعمره من الزمان قرناً، فلم تبق لديه قوى تمكنه من إمساك دمعه واستمرار تجلده، وهو يرى مسلماً آخر هو (الحارث بن سويد بن الصامت)، وهو يذبح بباب المسجد النبوى وهو ابن (سويد بن الصامت) الذى عرف بين العرب بالحكمة، وبأنه صاحب صحيفة لقمان التى وافق عليها الوحى القرآنى، فانهمر دمع (أبى عفك) مرسلاً شعره نحيباً باكياً (الحارث) بن صاحب صحيفة لقمان، ورجل فى عمر (أبى عفك) إن أرسل نواحه فى الفيافى بين العربان، الذين يقدسون المسنين، ويعبدون الأسلاف ويحنون الهامة للمعمرين، لا يتركها إلا بقلوب كليمة موجوعة جزعة، وهو الشعر الباكى الذى جاءنا خبر منه فى رواية ابن إسحق عن «غزوة سالم بن غمير لقتل أبى عفك، أحد بنى عمرو بنى عوف، ثم بنى عبيدة، وكان قد نجم نفاقه حين قتل رسول الله صلى الله عليه وسلم الحارث بن سويد بن الصامت، وإشارة ابن إسحق لنفاق الرجل تشير إلى أنه كان حتى قوله ذلك الشعر مسلماً، وما نافق إلا بتلك البكائية التى تقول فى طرف منها:

لقد عشت دهراً وما إن أرى ... من الناس داراً ولا مجمعاً
أبر عهوداً وأوفى لمن ... يعاقد فيهم إذا ما دعا
من أولاد قيلة فى جمعهم ... يهد الجبال ولم يخضعا
فصدعهم راكب جاءهم ... حلال حرام لشتى معاً
فلو أن بالعز صدقتم ... أو الملك تابعتم تبعا

فقال رسول الله: من لى بهذا الخبيث؟ فخرج إليه سالم بن عمير، أخو بنى عمرو بن عوف (أى أحد رجال عشيرته) فقتله، وهو ما طربت له (إمامة المزبرية) حتى قالت:

تكذب دين الله والمرء أحمداً ... لعمر الذى أمناك أن بئس ما يمنى
حباك حنيف آخر الليل طعنة ... أبا عَفَكٍ خذها على كبر السن

ولكن لمصرع رجل مثل (الحارث)، ثم مقتل رجل السنين والطوال والحكمة (أبى عفك)، كان لابد أن يدوّى الصدى ليرجع الأمر ترجيعاً بين النفوس الجازعة، ولم تتمكن (عصماء بنت مروان) من الإمساك على إسلامها، فأرسلت عبراتها شجوناً، تعول تبكى وتهجو وتحرض، ليسرى شعرها بين الناس مرجعاً لوعتها وهى تقول:

باسـت بنـى مـالك والنبيـت	وعـوف، وباسـت بنـى الخـزرج
أطعتـم أتـاوى من غيـركـم	فـلا مـن مـراد ولا مـذحـج
ترجونـه بعـد قتـل الرؤوس	كمـا يرتجـى مـرق المنضـج
ألا أنـف يبتغـى غـيره	فيقطـع مـن أمـل المرتجـى؟

ومن ثم لا يجد (ابن هشام) من أمر عبراتها إلا نفاقاً، بقوله:

«فلما قتل أبو عفك نافقت».

وهو النفاق الباكى الذى استحقت عليه ما جاء ذكره (عند ابن هشام) فى قول النبى بين أصحابه هاتفاً:

ألا آخذ لى من ابنة مروان؟

فسرى إليها ليلاً واحد من بنى عشيرتها، هو (عمير بن عدى) فكلاهما من بنى خطمة، فأعمل سيفه فى أحشائها وهى مستسلمة لنومها فى فراشها، «ثم أصبح مع رسول الله فقال: يا رسول الله إنى قتلتها، فقال: نصرت الله ورسوله يا عمير».

أما النتيجة التى ترتبت على قتل عقيلة بنى خطمة، فهى هرع من لم يسلم منهم إلى إعلان إسلامه، «فذلك اليوم أول ما عز الإسلام فى دار بنى خطمة... فأسلم، يوم قتلت ابنة مروان، رجال من بنى خطمة لما رأوا من عز الإسلام»[٢٢].

ويستمر راوى السيرة (ابن هشام) فى سرد ما سقط من أحداث فى سيرة (ابن إسحق)، ليضيف إلى مقتل (أبى رافع) و (أبى عفك) و (عصماء بنت مروان)، عدداً من السرايا لعل أهمها سرية (عبد الله بن أنيس) لقتل سيد هذيل (خالد بن سفيان الهذلى) وسرية (زيد بن حارثة) إلى بنى فزارة.

ويروى (الطبرى) قصة سرية (عبد الله بن أنيس) فيقول: إن النبى عليه الصلاة والسلام بعث إلى (عبد الله بن أنيس) وقال له: «بلغنى أن خالد بن سفيان بن نبيح الهذلى يجمع لى الناس ليغزو لى، وهو بنخلة - أو بعرنة - فأته فاقتله»، وذهب (ابن أنيس) حتى التقى بالرجل، وأخذه فى مسيره شوطاً بعيداً عن أصحابه وهو يحكى له عن رغبته فى الالتحاق به، حتى وجد

(٢٢) السهيلى: سبق ذكره، مج ٤، ص ٢٤٤، ٥٤٥.

منه فرصة بعيدة عن الأعين فقتله، وعاد إلى يثرب ليحكى لنا «فلما قدمت على رسول الله وسلمت عليه ورآنى قال: أفلح الوجه»[٢٣].

أما سرية (زيد بن حارثة) إلى بنى فزارة بوادى القرى، فكانت إلى (فاطمة بنت ربيعة) المعروفة بأم قرفة، وكانت عجوزاً كبيرة تجاوزت من عمرها قرناً، وكانت مطاعة فى قومها، ذات منعة وشرف وسيادة، بلغ صيتها كل العربان، وضربوا بعزها الأمثال، وبقى من الأمثال التى تتعلق بأم قرفة مثلان على الأقل، وهما «أمنع من أم قرفة»، و «لو كنت أعز من أم قرفة ما زدت»[٢٤]، وهى كلها أسباب تكشف عن ملامح غزوة (زيد بن حارثة) وغرضها الذى تم بهبوطه عليها على غرة، فأعمل السيوف فى الفزاريين، ثم أسر أم قرفة وابنتها هنداً، وبينما أبقى على (هند) سبية، فقد أمر بقتل أم قرفة قتلاً ذكر (ابن هشام) أنه كان عنيفاً[٢٥]، وهو ما جاء تفصيله فى (الطبرى) شارحاً: أنه تم ربط رجليها بحبلين، ثم ربط الحبلان ببعيرين متعاكسين، ثم ضرب البعيران فانطلقا، فشقاها شقاً[٢٦].

وهكذا جاء مسلسل الاغتيال والعنف والتصفية الجسدية، لإعادة تثبيت هيبة الدولة التى ترنحت فى أحد، ولإعلان الإصرار الذى لا يتزحزح على استدامة الدولة وسيادتها والحفاظ على مستقبلها، ولو مع التضحية بأرواح كثيرة.

ومن ثم كان ضرورياً أن تهدأ المدينة، بعد قبر الأصوات المعارضة، لكن بعد أن أصلت غزوة أحد الثارات بين اليثاربة وبين المكيين ناراً، كما تركت سرايا الاغتيال بدورها أحقاداً ثأرية فى نفوس قبائل، قطع السيف الإسلامى رؤوس سادتها وأشرافها. وهو الأمر الذى ظل قائماً ومحركاً لأحداث سيتناولها الجزء الثانى من هذا الكتاب، لحروب دولة الرسول المصطفى صلى الله عليه وسلم.

---

(٢٣) الطبرى: التاريخ، سبق ذكره، ج ٣، ص ١٥٦.

(٢٤) نفسه: ج ٢، ص ٦٤٣.

(٢٥) السهيلى: (فى سيرة ابن هشام)، سبق ذكره، ج ٤، ص ٢٣٧.

(٢٦) الطبرى: التاريخ.. سبق ذكره، ج ٢، ص ٦٤٣.